

روايات جائزة نوبل

16

أناتول فرانس

7.8.2017

الآلهة عطشى

ترجمة وتقديم
مصطفى كامل خليفة

الدار المصرية اللبنانية

الآلهة عطشى

أناتول فرانس

نوبـــل / 1939

ترجمة وتقديم

مصطفى كامل خليفة

روايات جائزة نوبل

16

روايـــات جائـــزة نـوبــــل
سلسلة تصدرها
الـدار المصرية اللبنــانية
المــديــر العـــام : محمد رشـــاد
رئيس التحـريـــر : فتحى العشرى
الإعداد والصياغة : محمد فتحى

---

16 شـارع عبـد الخالق ثروت. تليفـون : 3910250 . فاكس : 3909618
ص.ب 2022 . برقيا دار شادو . القاهرة
E - mail:info @ almasriah. com
WWW . almasriah . com

رقم الإيداع : 2001 / 18753
الترقيم الدولى : 6 - 646 - 270 - 977
جمع وطبع : عربية للطباعة والنشر
العنوان : 7 - 10 شارع السلام - أرض اللواء - المهندسين
تليفـــــون : 3256098 - 3251043

الطبعة الأولى : 1422هـ ـ 2001 م
الطبعة الثانية : محرم 1427هـ ـ فبراير 2006 م


1

« الآلهة عَطْشَى »

1

إيفاريست جاميلان، رسـام، تلميذ دافيد، عضو فى دائرة بونت – نوف[1]، إقليم هنرى الرابـع سـابقًا، تـوجـه فى الصباح الباكر إلى كنيسة البارنابيت [2] القديمة .

كـان يشـغل مقعدًا فى الجمعيـة العامـة للإقليم منذ ثلاث سنوات، من تاريخ واحد وعشرين من مايو ١٧٩٠، وكانت هذه الكنيسة تقع فى ميدان ضيق ومظلم، بالقرب من سياج القصر .

تتكون واجهة الكنيسة من طرازين معماريين كـلاسيكيين، ومزخرفة بإفـريزين معكوسـين، ومسارج من الخزف، وقـد أبلاها الدهر، وأهانها البشر، وبالمطارق، دُقَّـت شعـاراتها الدينيـة، وسُجِّلَ عليهـا الشعـار الجمهورى بالحروف السوداء : «الحرية والمساواة، الإخاء أو الموت».

دلف «إيفـاريست جاميلان» إلى داخـل جناح الكنيسة.. عقـود القباب التى كـانت تستمع إلى كهنة جمعية «سـان بول» عندمـا كانوا يترنمـون

---

(١) لوبونت – نوف : دوائر اختصاص انتخابية .

(٢) لوبارنابيت : قديس ميلانو أصلاً (عام ١٥١٧) .

بالقداس الإلٰهى وهم يرتدون قمصانهم الخاصة، الآن ترى المواطنين بغطاءِ رأسٍ أحمرَ اللَّوْن، وقد تجمعوا لينتخبوا أعضاء المجلس البلدى ويتداولوا بصدد شئون الدائرة .

سُحِبَت تماثيل القديسين من مواضعها، وحلت محلها التماثيل النصفية لبروطس، وجان جاك، ولوبيلتييه (١)، ولوحة حقوق الإنسان تنتصب على المذبح العادى .

فى هذا الجناح من الكنيسة، تنعقد الجمعيات العمومية، مرتين فى الأسبوع ، من الساعة الخامسة وحتى الساعة الحادية عشرة. المنبر فى الكنيسة يُزَيِّنه عَلَمُ الأُمَّة بألوانها، ويُستخدم كمنصة لإلقاء المواعظ. وفى الجانب الأيمن من المذبح توجد منصة من السِّقالات الضخمة مرتفعة، مخصصة لاستقبال النساء والأطفال الذين كانوا يتوافدون بأعداد كبيرة إلى حدٍّ مّا لحضور هذه الاجتماعات.

وفى هذا الصباح - أمام أحد المكاتب عند سفح المنبر - يقف نَجَّارُ ميدان ثيونفيل الوطنى ديبون اينيه مرتديًا غطاءَ رأسٍ أحمرَ وكرمنيولا(٢)، وهو أحد الأعضاء الاثنا عشر للجنة المراقبة .

كان يوجد على المكتب قاروة وأقداح، ومحبرة وأدوات كتابة، ودفتر يحتوى على نص العريضة التى دعت الجمعية إلى أن تستبعد من هيكلها

---

(١) لوبيلتييه دى سان فارجو : مستشار فى برلمان باريس قبل الثورة . أُغتيل فى اليوم السابق لتنفيذ حكم الإعدام فى لويس السادس عشر، أى فى العشرين من يناير سنة ١٧٩٣ .

(٢) أى : سترة قصيرة .

الأعضاء غير الجديرين بالعضوية، وعددهم اثنان وعشرون.. إيفاريست جاميلان تناول القلم ووَقَّع .

قال القاضى المهنى : « كنتُ على يقينٍ أنكَ سوف تعطى صوتك أيها الوطنى «جاميلان». إنكَ متحمس، ولكن الدائرة ليست متحمسة، تنقصها الفضيلة. وقد اقترحتُ على لجنة المراقبة ألاَّ تعطى شهادة المواطنين لأى فرد لا يوقِّع على العريضة».قال جاميلان : إننى على استعداد أن أوقع بدمائى على حظر دخول الخونة الفيدراليين. لقد أرادوا قَتْلَ مارات (١)، فَلْيَهْلِكُوا .

أجاب ديبون إينيه : هذا ما يُحيرنا، عدم الاكتراث واللامبالاة فى دائرة تحتوى لى تسعمائة مواطن لهم الحق فى التصويت، لم يحضر منهم إلى الجمعية غير خمسين. بالأمس كان عددنا ثمانيةً وعشرين .

جاميلان : حسنًا يجب إجبار المواطنين على الحضور وإلاَّ تُفْرَض عليهم غرامات .

النجار عابسًا : ما هذا ؟ إنهم إذا حضروا جميعهم فسوف يكون المواطنون أقلية... أيها الوطنى جاميلان، هل لك فى قدح من النبيذ فى صحة السان كولوت (٢) ؟.....

---

(١) مارات جان بول : ثائر شعبى فرنسى مشهور.. ولد سنة ١٧٤٣ وكان طبيبًا، وأنشا صحيفة «لامى دى بيبل» سنة ١٧٨٩ . وله مسئولية كبيرة فى وقوع مذبحة سبتمبر الشهيرة، واغتالته شارلوت كورداى فى الثالث عشر من شهر يوليو سنة ١٧٩٣ .

(٢) اسم أطلقه الأرستقراطيون على الثوريين سنة ١٧٨٩ .

وعلى حائط الكنيسة، من ناحيـة الإنجيل، تقرأ هذه الكلمات مصحوبة بيـد سـوداء تشير بالسبـابة إلى الممـر الذى يؤدى إلى رواق الدير : لجنة مدنية، لجنة المراقبة، لجنة خيرية.

وبعـد بضـع خطوات إلى الأمـام نصل إلى باب مخزن الأمتعـة الذى تعلوه عبارة : «لجنة عسكرية». ودفع «جاميـلان» البابَ، فوجد سكرتير اللجنة يكتب على منضدة كبيرة مـزدحمة بالكتب والأوراق، وسبائك من الصلب ، وخراطيش، وعينات من الطين ، ولفائف البارود .

– تحياتى إليك أيها الوطنى «تُروبير».. كيف حالك ؟

– أنا ؟.... فى أروع حال !

سكرتير اللجنة العسكرية «فورتونيه تروبير» يردُّ دائمًا بهذه الإجابة بدون تغيير على كل من يريد أن يطمئن على صحته، وكان يفعل ذلك ليس ليُطمئنهم على صحته فحسب، بل لكى يختصر أى محادثة فى هذا الصدد . كـان مصابًا بجفـاف الجلد منذ أن كـان فى الثامنة والعشرين من عمـره، وسقـوط شعـره إلاَّ النادر منه. وكـان أحمر الوجنتين، مقـوس الظهـر، متخصصًا فى البصريات بحى الصـاغة. وكـان يمتلك منزلاً عتيقًا، والذى تنازل عنه فى عام ألف وسبعمائـة وواحد وتسعين لأحـد الأمناء، ليتفرغ لأعماله بالمجلس .

كـانت والدته جميلة، وقـد توفيـت وهى فى العشرين من عمـرها. ويحتفظ بعض سكان الحى من المتقـدمين فى السن بذكـرياتها الطيبـة،

وكان يرث عنهـا عينيها الجميلتين والمؤثرتين، كما وَرِثَ عنهـا شحوبها، وحَيَاءَها .

وأَمَّـا والده فكان مهندسَ بصرياتٍ ، وكـان متعهد المَلِك، وقـد أُصيب بنفس المرض قبل أن يبلغ الثـلاثين من عمـره، وكان يتمتع بفكر سـديد ومُرَكَّز .

ويقول دون أن يتوقف عن الكتابة :

– وأنت أيها المواطن ، كيف حالك ؟

– حَسنٌ . هل من جديد ؟

– لا شىء ، لا شىء كما ترى . كل الأمور هادئة هنا .

– والموقف ؟

– الموقف كما هو دائمًا .

كـان الموقف مخيفًـا . وأفضل جيـوش الجمهـورية حـوصر فى «مايانس»(١)، كذلك حـوصرت «فالنسيان»(٢)، واستولى «الفانديون»(٣) على «فـونتناى(٤)، وثارت «ليـون»، وتمرد «السيفينيـون(٥) ، والجبهـة

---

(١) مايانس : من المُدُن الالمانية .

(٢) فالنسيان : من المدن الفرنسية .

(٣) الفـانديون : نسبة إلى «فـاندة» وهى مـديرية فرنسيـة كانت تـؤيد النظام الملكى وكانت شـديدة المقاومة للثورة الفرنسية .

(٤) فونتناى : مدينة تابعة لمديرية « فاندة » .

(٥) السيفينيون : نسبة إلى «سفين» من جبال فرنسا الوسطى .

مفتوحة أمـام الإسبان. وثُلُثَا عدد المقاطعات إمَّـا تم غَزْوُهُ، وإِمَّا ثائرون. وباريس تحت وطأة المدافع النمساوية بدون مال وبدون خبز .

كـان «فـورتونيه تروبير» يكتب فى هـدوء حين كانت الدوائـر مكلفـة بقـرار رسمى من مجلس العمـوم بتجنيـد اثنى عشر ألف رجل من أجل «فاندة»، فكتب تعليمات بالنسبة إلى تجنيد وتسليح الفيلق الذى يجب على «بونت – نوف» أو ، «هنرى الرابع» سابقًا أن تُعِدَّه .

لابد من تسليم البنادق والذخائر إلى الذين يتم استـدعاؤهم . وسوف يُسَلَّح الحرس الوطنى بالبنادق والأسلحة البيضاء فى كل دائرة .

قال جاميلان : سأُحضر إليكَ كشفًا بالأجراس التى يجب أن تُرْسلَ إلى لوكسمبورج لِتُحَوَّلَ إلى مدافع .

ومع أن «إيفـاريست جـاميـلان» لا يملك مليمًا واحـدًا، إلا أنه كـان مُسَجَّلًا بين أعضـاء الدائرة المتحمسين. إنَّ القـانون لا يمنح هذا الامتياز إلَّا للمواطنين القـادرين على دَفْع نسبةً تَعْـدِلُ قيمةَ ثلاثة أيام عمـل، وقد كـان القـانون يشترط دفع ضريبـة تعـدل عمل عشرة أيام حتى يصبح الناخب مـؤهلًا للانتخـاب . ولكن دائـرة «بونت – نوف » كانت مأخوذة بمبدأ المسـاواة، وغيورة على استقـلالها ، فقد كانـت تتمسك بالنسبة إلى الناخب وإلى أهليـة الانتخاب بكل مـواطن دَفَعَ من مـاله الخاص ثمنَ زىٍّ الحرس الوطنى الخاص به. تلك كانت حالة «جاميلان» الذى كان مواطنًا نشيطًا فى دائرته، وعضوًا فى اللجنة العسكرية .

ويضع فورتونيه تروبير القلم ويقول :

– أيها المواطن «إيفاريست»، اذهبْ إلى الجمعية واطلب منهم أن يرسلوا إلينا تعليمات بتقليب أرض الكهوف، وغسيل الأرض والأحجار للحصول على ملح البارود. فليست المسألة فقط هى الحصول على مدافع، بل أيضًا لابد من البارود.

يدخل أحدب قصيرٌ مخزن الأمتعة واضعًا القلمَ خلف أُذنه، والأوراق بين يديه.. كان ذلك هو المواطن «بوفيزاج»، من لجنة المراقبة:

– أيها المواطنون – قال ذلك واستطرد: لقد تلقينا أنباءً سيئة، فقد «كوستين»[1] عن «لاَنْدُو»[2].

جاميلان صارخًا: كوستين خائن!

– قال بوفيزاج: سوف يُعدم بالمقصلة.

تروبير بنفسه اللاهث قليلاً، يتحدث بصوته الهادىء كالمعتاد:

– إن الجمعية لم تُشكل لجنة الخلاص الشعبى عبثًا، وفيها سوف يُدرس سلوك كوستين، فيُرى أهو خدائن أم لا؟ وسوف يُسْتَبْدَلُ به جنرالًا موطَّد العزم على الانتصار، وذلك حتمًا سيكون!

ثم تصفح بعض الأوراق، وألقى عليها نظرة شاملة بعينيه المرهقتين، واستطرد:

---

(١) كونت دى كوستين: قائد فرنسى، ولد سنة ١٧٤٠، وقَاتَلَ فى أمريكا فى حرب الاستقلال. وعُيِّن قائدًا عامًا لجيوش الشمال – وحُكم عليه بالإعدام بالمقصلة فى الثامن والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٣ للاشتباه فيه.

(٢) لاندو: من مُدُن «بفاريه».

– وحتى يقوم جنودنا بواجبهم على الوجه الأكمل بدون أدنى تقصير، يجب أن يعرفوا أن ذويهم الذين سيخلفونهم فى موطنهم سوف يكونون فى أمان . وإذا كنت على هذا الرأى أيها المواطن «جاميلان» فسوف تطالب معى فى المجلس القادم، بأن تُجْمِعَ اللجنة الخيرية واللجنة العسكرية أمرهما على مساعدة الأُسَرِ المُعْسِرَةِ التى لها عائل فى الحرب .. ثم ابتسم وقال مُدَنْدِنًا :

– ستكون الأحوال مرضية !.

إن أمين هذه اللجنة يعمل يوميًّا اثنتى عشرة ساعة ، أو أربع عشرة ساعة أمام منضدته المصنوعة من الخشب الأبيض، لينقذ الوطن من الخطر . هذا السكرتير المتواضع لإحدى لجان الدائرة، لا يرى مطلقًا أى تباين بين ضخامة المهمة وتدنى الوسائل، فهو يشعر بأنه مشترك فى مجهود عام لجميع المواطنين ، وأنه يتكاتف مع الأمة ، كما يشعر بأن حياته تمتزج مع حياة شعب عظيم .

إنه من هؤلاء الذين يَتَذَرَّعُون بالحماس والصبر عند كل هزيمة ، ويعدون العُدَّة للانتصار المستحيل والأكيد، ولابد لهم من الانتصار. هؤلاء الرجال المُسْتَحْقَرُونَ الذين هدموا المَلَكِيَّة ، وقلبوا العالم القديم، وهذا «التروبير» مهندس البصريات القصير، وهذا «الإيفاريست جاميلان» الرسام المغمور، لا ينتظرون مطلقًا الخلاص من أعدائهم، ولم يكن لهم خيار سوى الموت أو النصر، ومن هنا كانت حميَّتهم وصفاء نفوسهم .

* * *

فى لحظة خروج البرنابى، توجه «إيفاريست جاميلان» إلى ميدان «دُوفين»، والذى أصبح ميدان «تيونفيل»[1] تشريفًا لهذه المدينة الحصينة .

هذا الميدان الذى يقع فى أكثر الأحياء ارتيادًا فى باريس فَقَدَ نظامه ومظهره الجميلين منذ حوالى قرن : فالفنادق التى كانت مشيدة على الواجهات الثلاثة فى عهد «هنرى الربع» على نمط واحد من القرميد الأحمر، مع سلاسل من الحجر الأبيض، وذلك من أجل قضاة عظام ، تغيرت الآن سقوفها العالية من الإردواز إلى طابق أو طابقين بائسين من الجص ، أو أنها هخدمت وسُوِّيت بالأرض ، وأقيمت بدلا منها منازل محرومة من الجمال، وطُليت بالجبس بطريقة سيئة، ولا تعرض سوى واجهات مشوهة حقيرة قذرة ، تخترقها نوافذ غير متساوية، ضيقة، لا حصر لها، تزينها أُصُصٌ من الزهور، وأقفاص الطيور، وغسيل منشور.

هناك ، يقيم خليط من الحرفيين : الجواهرجية، والنقاشين، والساعاتية ، ومتخصصى البصريات، والطبَّاعين، وتاجرات البَزِّ والقبعات، والغسَّالات أو الكوَّاءات، وبعض رجال القانون كبار السن الذين لم ينجرفوا قط فى اضطرابات مع الحكم المَلَكىِّ .

كان ذلك فى صباح يومٍ من أيام الربيع ، مع أول خيوط من أشعة الشمس التى تُثْمِلُ كما يُثْمل النبيذ المُسْكِر.. تبتسم على الأسوار،

(١) تيونفيل : من مدن فرنسا المنيعة .

وتنساب فى بهجة على الأَسْقُف . وكانت أسقف نوافذ المقصلة مرفوعة، وتظهر من تحتها الرءوس الشَّعِثَة للخادمات .

كاتب محكمة الثورة خارجٌ من منزله، مُتَوَجِّهٌ إلى عمله، يداعب خدود الأطفال الذين كانوا يلعبون، وهو مارٌّ فى طريقه تحت الأشجار . وسُمِعَ صوتٌ يصيح على « لوبونت – نوف »، قائلاً : خيانة الدَّنِىء «ديموريِيه»(١).

وكان «إيفاريست جاميلان» يُقيم فى جانب ساحة «الهورلوج»، فى منزل قديم يرجع تاريخه إلى هنرى الرابع، وكان المنزل أيضًا يظهر بمظهر لائقٍ لولا وجود مخزن صغير مُغطًّى بالقرميد، وَالذى تم تعليته فى عهد الطاغية الأسبق، لتخصيص إحدى شقق أحد قُدامَى البرلمانيين لغرض معين لتتلاءم مع العائلات البورجوازية والحرفية، الذين كانوا يقيمون فيها، فقد ضوعف عدد القواطيع، وعدد حجرات السُلَّم.. وهكذا كان البوَّاب الخيَّاط الوطنى «رِيمَاكل» يسكن فى طابق أرْضِىٍّ ضيِّقٍ فى المساحة والارتفاع والعرض بحيث كان يُرَى من خلال الباب الزجاجىّ متربعًا على منضدة العمل، ورقبته على القاطع، يحيك زىَّ الحرس الوطنى.

هذا ولم يكن لموقد زوجته المواطنة ريماكل الذى تطهو فيه سوى

---

(١) ديموريِيه : نقيب فى الرابعة والعشرين من عمره، وصل إلى قيادة جيش الشمال، وأحرز انتصارات، وغزا بلجيكا وهولندا .. هزمه النمساويون.. دَبَّرَ خيانة وانضم للأعداء فى الخامس من أبريل سنة ١٧٩٣ .

السُّلَّم كمدخنة تُسمِّم بها أنوف المستأجرين بدخان محمراتها ومقلياتها. وعلى عتبة الباب تجلس طفلتهم الجَميلة «جوزفين» ملطخه بميلاس قصب السكر ، وهى تبدو جميلة كضوء النهار، تلعب مع الكلب مُوتُون، كلب النَّجَّار .

كانت المواطنة «ريماكل» طيبة القلب، ممتلئة الصدر والحقو، وكانت دائمًا تمر لتعرض خدماتها على جارها المواطن «ديبون لينيه»، أحد أعضاء لجنة الرقابة الاثنى عشر. وكان زوجها شديد الارتياب، وكان الزوجان «ريماكل» يملأن المنزل بالصياح المتبادل بسبب مشاجراتهما ومصالحاتهما . وكان يشغل الطوابق العليا للمنزل كل من المواطن «شابيرون»، وهو صائغ، ومحله يقع فى ساحة «الهورلوج»، وضابط صحة، وأحد رجال القانون، وطَرَّاقٌ للذَّهب، وكثير من موظفى القصر .

صعد «إيفاريست جاميلان» الدَّرَج القديم حتى الطابق الرابع والأخير، حيث توجد ورشته، مع غرفة لوالدته. وهنا ينتهى الدرج الخشبى المُزَيَّن بالتربيعات التى أعقبت السلم الحجرى الكبير من الطوابق الأولى. ويوجد سلم معلَّق على الحائط، يؤدي إلى مخزن حيث كان ينزل آنئذٍ رجل ضخم، كبير فى السن، له وجه جميل وردى ومضىء، ويحمل بصعوبة بالةً ضخمة، ومع ذلك كان يُرَدِّدُ : فقدت خادمى .. ثم توقف عمَّا كان يردده وأومأ إلى «جاميلان» بطريقه كورتوازية فحيَّاه «جاميلان» بطريقة أخوية، وساعده فى إنزال الطَّرْد الذى يحمله، والذى شكره كثيرًا على مساعدته فى حَمْله.

قال له وهو يمسك بحمله : أتعرف ما هذا ؟ هذه لعب، ودُمًى متحركة، وذاهب لأسلمها إلى أحد تجار اللعب فى شارع «لالوا» حيث يوجد كثير من الزبائن.. إنها من مبتكراتى وصُنْعى، وقد أنهكنى صُنعها وَصَبًا وألمًا ، ولكنى لم أُبَالِ بذلك ما دُمْتُ رَبًّا صالحًا .

وهذا هو المواطن «موريس بروتو» الذى كان جابيًا للضرائب، وكان فيما مضى من النبلاء . أمَّا والده فقد اغتنى فى الزمن الغابر من انضمامه إلى الأحزاب. كان «موريس بروتو»، يُسَمَّى السيد «ديزيليت»، ويُقَدِّم فى فندقه (أوتيل دى لارى دو لاشيز) طعامَ عَشَاءٍ لذيذًا وشهيًّا، وأن السيدة الجميلة «دى روشيمور»، الزوجة الحسناء لأحد النواب، مضيئة بعينيها وهى سيدة متكاملة، لم يُنْكَرْ وفاؤها وأمانتها الشريفة ما دامت الثورة قد تركت إلى «موريس بروتو ديزيليتو مَكَاتِبَهُ وإيراداته، وفندقه، وأراضيه، واسمه .

لقد انتزعت الثورة منه كل شىء، وصار يكسب عيشه عن طريق رسم لوحات تحت أبواب العربات. ويصنع فطائرَ مُحَلَّاةً وأخرى محشوة باللحم أو بالخضار أو الفاكهة فى شارع «ميجيسيرى». ويؤلف خُطَبًا لممثلى الشعب، ومن إعطاء دروس فى الرقص للشابَّات الوطنيات .. إنه حاليًّا فى بيته الذى يشبه المخزن ، حيث يدلف إليه عن طريق سلم ، ولا يمكن أن نظل واقفين فيه. إن «موريس بروتو» غنى بأدواته : إناء به مادة لاصقة، ولفة من الخيط، وعُلْبة ألوان ماء.. يصنع الدُّمَى المتحركة، والتى يبيعها إلى كبار تجار اللعب، وهم بدورهم يبيعونها إلى التجَّار

الجائلين الذين يطوفون بها فى شارع «الشانزيليزيه»، مُعلقة على طرف عصًا طويلة، وأشياء لامعة تجذب أنظار ورغبات الأطفال .

وفى خِضَّم الاضطرابات الشعبية، وفى وقت النكبة الكبرى التى تأثَّر بها هو شخصيًّا، فى هذا الوقت العصيب يحتفظ بنفسٍ صافية.. ويقرأ «لوكريس» لِيَتَسَلَّى، ويحمل كتابه دائمًا فى جيب «الريدينجوت» الأكلف اللون (١)، والمفتوح دائمًا .

ويدفع «إيفاريست جاميلان» باب مسكنه الذى فُتِحَ فى الحال . إن فقره يوفِّر عليه استعمال المزاليج(٢)، وعندما تسحب والدته المزلاج كعادتها لتغلق الباب ، يقول لها : « ما الفائدة؟ إن نسيج العنكبوت لا يُسْرَقُ.... ونسيجنا لا يقل قيمة عنه ».

وفى روشته تتكدس – تحت طبقة سميكة من التراب، أو على الحائط – لوحاته التى فى بدايتها . وكان يختار مناظر غزلية، يُلاطف بريشته الناعمة الخجولة جعباتٍ فارغةً، وطيورًا محلقة، ولعبًا خطيرة، وأحلامًا بالسعادة، وتجمُّعًا لحارسات الإوز، وَيُزَيِّنُ بالورود صدْرَ الراعيات .

ولكن هذه الطريقة لا توافق ميوله مطلقًا. هذه اللوحات التى تم اختيارها بدون أى حماس تشهد على طهارة نفس الكاتب، والتى لا يمكن تعويضها. ولم ينخدع الهواة فيه . وجاميلان لن يتحول إلى فنان غَزَلىٍّ مطلقًا . واليوم – مع أنه لم يبلغ الثلاثين من عمره بعد – فإن موضوعاته

---

(١) الأكلف اللون : أى الذى بين اللونين ، الأحمر الأسود .
(٢) المزاليج : جمع مزلاج ، وهو المغلاق « القفل » .

تبـدو له كأنها من زمن سحيق . ويعـرف فيهـا الفســاد الملكى، والتأثير المُخجِل لانحـلال البـلاد . ويعترف بأنه أخطأ فى الانخـراط فى هذا النوع الحقير، ودلَّ على عبقـرية محقرة بالعبـودية. والآن هو مــواطن فى شَعْب حــر، يرسم بالفحم بخطوطٍ قويــة حريات حقـوق الانسان، والدســاتير الفــرنسية ، وفضــائلَ جُمهـورية ، وهراقلةً شَعْبِيِّين، يصرعون أفعــوان الطغيــان، ويصب فى جميع هذه الموضــــوعـــات كل حماس الوطنيـــة. وللأسف ! لم يكسب منها عيشه .

كان الوقت عصيبًــا بالنسبة إلى الفنانين، ولا رَيْبَ أن ذلك لم يكن خطأ الجمعية التى تُطلق فى جميع الأنحــاء جيوشًــا ضد الملوك، والتى – وهى متغطرســة – لا تتأثر بشىء، فهى صامـدة أمــام أوروبا المتآمــرة، وهى غادرة بطبعهــا، وقاسية مع نفسهــا.. كانت تمزق نفسها بيـديها، وكانت تدرج الإرهاب فى جـــدول الأعمال، وأنشأت محكمــة لا ترحم لمعـــاقبـة المتـآمـرين، وإليها ســوف يُقـدم – فيما بعد – أعضاؤها لكى تفترسهم، وهى فى نفس الوقت هادئــة، متفكرة، صــديقــة للعِلْم وللجمال.. أعــادت ترتيب التقــويم، وأنشأت مـدارس خــاصــة، وأصــدرت قــرارًا بإجـراء مسابقات فى الرسم والنحت، ورصـــدت جوائزَ لتشجيع الفنانين، ونظَّمت صالونات سنــوية، وفتحت المتحف، واقتداء بأثينا ورومــا أضفت طابعًا رفيعًا فى الاحتفال بالأعياد، وبالحداد الشعبى .

ولكن الفن الفرنسى المنتشر قـديمًا فى إنجلترا وألمانيا وروسيا وبولندا لم يكن له أســواق فى الخارج .. هواة الـرسم، والمعجبـون بالفن، وكبــار الســادة، والماليـون، حَلَّ بهم الخراب ، وقد هاجـروا واختفـوا . والناس

الذين أَثْرَتْهُم الثورة فلاحون يمتلكون أراضىَ وطنية، ومضاربون بالأسهم المالية، ومُمولون للجيوش، ومديرو صالات الميسر فى القصر الملكى، لم يجرءوا بعد على إظهار ثرائهم ، وعلاوة على ذلك لا يهتمُّون بالرسم .

كان الفنان لابد أن تكون له شهرة «رينيو»(١)، ومهارة «جيرارد»(٢) الصغير من أجل أن يبيع لوحة .

واستبد بكل من «جروز»(٣)، و «هوين»، و «فراجونار»(٤)، فقر مدقع، وكان «برودون»(٥) ينفق بصعوبة على زوجته وأطفاله، فكان يرسم مناظرَ، وكان «كوبيا» ينقشها بالتنقيط .

وَكَابَدَ الرسَّامُون الوطنيون : « هينيكان »(٦)، و « فيكار » ، و « توبينو لوبران »(٧)، الجُوعَ كثيرًا . وكان «جاميلان» لا يجد تكاليف لوحاته ، ولا يستطيع دفع أجر «الموديل»، ولا يستطيع شراء ألوان، وكان يحتفظ بلوحة كبيرة تكاد تكون خطوطها الأولى مرسومة، تمثل الطاغية تطارده

---

(١) رينيو : هوجان بابتيست رينيو، مصوّر فرنسى (١٧٥٤— ١٨٢٩) من أشهر لوحاته الإلٰهات الثلاث، ورمزية كونية والحرية أو الموت. وقد أقام معرضًا فى سنة ١٧٩٥ فى الصالون .

(٢) جيرارد : هو فرانسوا جيرارد، مصور فرنس (١٧٧٠—١٨٣٧). وهو تلميذ دافيد. وقد أصبح محلفًا فى محكمة الثورة.

(٣) جروز : مصور فرنسى (١٧٢٥ — ١٨٠٥) .

(٤) فراجونار : رسام ونحَّات فرنسى (١٧٣٢ — ١٨٠٦).

(٥) برودون : هو بيير بول برودون (١٧٥٨ — ١٨٢٣) رسام فرنسى من مدرسة دافيد، أشهر لوحاته « العدالة وانتقام الإله » رمزية .

(٦) هينيكان : رسام ونحات فرنسى (١٧٧٣ — ١٨٦٣) .

(٧) هو : فرانسوا توبينو لوبران، رسام ، ومن تلاميذ دافيد، صار محلفًا فى محكمة الثورة، وأُعدم بالمقصلة سنة ١٨٠١ لاتهامه بالتآمر ضد بونابرت .

الجنيَّـــات فى جهنم.. كـــانت تغطى نصــف المرسم بوجـــوه غير مكتملة ومخيفــة، أكبر من الحجم الطبيعى، وخليـط من الأفــاعى الخضراء، لكل أفعى منهن لسانان حـــادَّانِ معقوقان تقـذف بهما. ومن أول وهلة، نُميز على اليسارِ فى اللـــوحة (كارونًــا) نوتيًّا نحيفًــا وشرسًا فى قاربــه.. قطعة مؤثرة برسم جميل، ولكنها جديرة بالمدرسة .

وكـانت توجد لوحـــة بأقل المســاحــات ولم تكتمل بعد، ولكنهـــا بحق تتسم بالعبقـرية والطبيعيــة، وكانت مُعلَّقــة فى أكثــر الأماكن إضـــاءة فى المرسم . كانت تمثل أوريست، وأخته إليكترا ممددة على فــراشهـا، فراش الألم، وترى الفتاة فى حــركة مؤثرة، تبعـد شعرها المتشـابك، والذى كان يحجب عيون أخيها . وكانت رأس أوريست حزينة وجميلة ، وبينها وبين وجه الرسام شبه كبير.

كـان «جاميـلان» ينظر دائمًا إلى هذه الصورة بنظرة حــزبية، أحيـانًا ذراعاه ترتعدان رغبة فى التصـــوير، تمتدَّان إلى وجه إليكترا المرسوم بغير دقة، ثم تهبطان إلى جواره واهنتين . كان الفنان ممتلئًا بالحماس، وتتطلع نفسه إلى أشيــاء كبيرة. ولكن كان لزامًـــا عليه أن يبذل قصـــارى جهده فى أعمال مطلوبة نَفَّذَهَا بدرجــة دون المتوسط، لأنه مضطر أن يُرضى ذَوْقَ العــامَّـــة ، ولأنه لا يعـرف أيضًـــا أن يطبع تلــك الأعمال البسيطة بطابع العبقرية .

كـان يرسم منـــاظر رمــزية صـغيرة، والتى كـــان يخطُّهـــا صـــديقــه «ديماهيس» بمهـارة كـافيــة باللــون الأســود والألوان المختلفــة، والتى يأخذها بثمن بخس أحد تجار الرَّشْم بشارع هونوريه المواطن «بلين» .

« إنَّ تجارة الرَّشْم، تسير من سيىء إلى أســـوأ ».. هكذا قــال «بليــن»، الذى لم يكن يريد أن يشترى شيئًا منذ زمن .

وهذه المرة بالذات ، دفعت الضرورة «جاميــلان» إلى أن يكون ماهرًا ، فقد أدرك اكتشــافًا هائلًا وجـديدًا يحقق ثروة لتاجـر الرسم ، وللحفَّار ، وله هو شخصيًّا : « لعبة ورق وطنية ».

وفى هذه اللعبة ، استبدل الملوك بــالجن ، والسيدات بالحُرِّيات، وخدم الحُكْم القـديم بالمســاواة . وكان قــد صمم جميع صــوره، وأنجز منهــا الكثير، وكان متعجلًا ليسلم إلى «ديماهيس» تلك التى كانت توجد فى حالة حفر جاهزة .

والصورة التى تبـدو له موفقة هى التـــى تمثل أحد المتطوعين يرتدى على رأسه قُبعــة ثلاثية القــرون، ويرتدى ملابسَ زرقــاء اللون بزركشة حمراء ، وسروالًا أصفرَ ، وَلُفافــات سَاقَيْن سوداء ، يجلس على صندوق ، وقدماه على كومة من الرصاص ، وبندقية بين ساقيه .. ذلك كان «المواطن المُفضَّل »، الذى يحل محل الخادم المفضل . ومنذ أكثر من ستة أشهر كان «جــاميـــلان» يرسم متطوعين، ودائمًا يــرسمهم بمـــودَّة، وباع بعض لوحاتهم فى أيــام الفرح – والكثير منها مُعَلَّق على حــائط المرسَم – وهناك خمســة رســـوم – أو ستــة – بألوان الماء ، وألوان الجواش ، وبــأقــلام رصاص، مبعثرة على المنضدة، وعلى المقاعد .

وفى شهر يوليو ٩٢ ، عندمــا نُصِبت فى جميع ميادين باريس منصَّات من أجل المتطوعين، عندمــا كــانت جميع المقــاهى الفنيــة مــزدانة بأوراق وفروع الشجر ، ترن فيها الصيحات قــائلة : «تحيا الأمة ، نعيش أحرارًا أو نموت !».

لم يستطع «جاميلان» المرور فوق «لوبونت – نوف » أو أمام دار البلدية بدون أن يخفق قلبه فرحًا ، نحو الخيمة المزدانة بالأعلام ، حيث يوجد القضاة ينتحون جانبًا يسجلون أسماء المتطوعين، ولكنَّ التحاقَهُ بالجيش يترك والدتَه بدون خبز .

وتدخل المواطنة «أرملة جاميلان» فى المرسم مسبوقة بصوت أنفاسها اللاهثة ، يسيل عرقها ، ومكفهرة الوجه ، والشارة الوطنية مُعَلَّقة بإهمال فى غطاء رأسها ، وعلى وشك السقوط .

وضعتْ سلتها جانبًا على أحد المقاعد ، وظلت واقفة لتتنفس بطريقة أفضل ، وتَئن من غلاء المعيشة، بائعة سكاكين فى شارع «جرينيل سان جيرمان» بعلامة مميزة على المحل «لافيل دى شاتيلْرو»(١)، طالما عاش زوجها، والآن مدبرة منزل، المواطنة «جاميلان» تعيش منزوية عند ابنها الرسام . وهو أكبر من ابنها الآخر (أى : البكرى)، وبالنسبة إلى ابنتها «جولى»، فمنذ عهد قريب كانت فتاة فى محل بيع ملابس بشارع «هونورية»، ومن الأفضل عدم معرفة ما آلت إليه، لأنه لا يطيب القول بأنها رحلت مع أحد الأرستقراطيين .

– يا إلٰهى !.. قالتها المواطنة وهى تتنهد ، وهى تُرِى ابنَها رغيفَ خبز، سَمِيكَ العجينة، وأسمر اللون، الخبز باهظ الثمن، وهيهات أن يُصنع من الحِنْطَة الخالصة. وليس فى السوق لا بيض ، ولا خضروات، ولا جبن، ومن الإفراط فى أكل القَسْطَل، سوف تتحول إلى قسطل (٢).

---

(١) شاتيلرو : مدينة فرنسية .

(٢) القسطل : شجر من الفصيلة البلُّوطية له ثَمَرٌ كثير النِّشا ، يؤكل مشويًا ، ويُعرف فى مصر «بأبى فَرْوَة» .

وبعد فترة صمت طويلة استطردت تقول :

– رأيت فى الطريق سيدات لا يجدن ما يسد رَمَق أطفالهن . البؤس عظيم بالنسبة إلى الناس المساكين. وستظل الحال على ما هى عليه إذا لم تنتظم الأمور .

قال «جاميلان» وهو يُقَطِّبُ حَاجِبيه: أُمِّى، إِنَّ المجاعة التى نعانى منها، ترجع أسبابها إلى تحكم المتحكرين والمضاربين بالأسهم المالية فى أقوات الشعب لِيُجِيعُوهُ، بالاتفاق مع الأعداء من الخارج، حتى يشوهوا صورة الجمهورية ويجعلوها مخيفة بالنسبة إلى المواطنين، ويدمروا الحرية .

هذا ما انتهت إليه مؤامرات البريسوتان[1] وخيانات بيتيون[2] وعائلة رولاند[3] ونكون موفقين إذا لم يحضر الفيدراليون مُدججينَ بالسلاح إلى باريس ليذبحوا المواطنين الذين لم تقض عليهم المجاعة سريعًا ! يجب أَلَّا نضيع الوقت : يجب تحديد سعر الدقيق ، والإعدام بالمقصلة لكل من يحاول أن يُزايد بأقوات الشعب ، ويُثير الفتن ، أو يتواطأ مع الأجانب .

قامت الجمعية بإنشاء محكمة فوق العادة لمحاكمة المتآمرين، تتكون من المواطنين، ولكن هل أعضاؤها لديهم القوة الكافية للدفاع عن الوطن ضد هؤلاء الأعداء جميعهم ؟

---

(١) بريسو : نائب فى المجلس التشريعى وفى الجمعية.. عدو روبيسبير .. تم اتهامه وإعدامه بالمقصلة فى الثلاثين من اكتوبر ١٧٩٣ م .

(٢) جيروم بيتيون : خطيب بليغ ، صديق روبيسبير ، وعمدة باريس سنة ١٧٩١ ، ١٧٩٢ ، تم اتهامه بالفيدرالية ، وانتحر فى يونيو ١٧٩٤م .

(٣) مانون رولاند : زوجة رولاند الشهيرة، تم إعدامها بتهمة الفيدرالية فى الثامن من نوفمبر ١٧٩٣ . وهى صاحبة العبارة الشهيرة : « أيتها الحرية ، كم مِنْ جرائم تُرْتَكَبُ باسمك » ! .

فلنعتمد على «روبيسير»، فهو رجل فاضل.. ولنعتمد خاصة على «مارات»، فهذا الرجل يحب الشعب ، ويدرك مصالحه الحقيقية ويقوم بها ، وكانَ دائمًا أَوَّلَ من يُميط اللثام عن الخَونة، ويحبط المؤامرات، وهو رجل نزيه، لا يرتشى ، ولا يخاف أحَدًا، وهو الوحيد الذى يستطيع أن ينقذ الجمهورية المعرضة للخطر .هزتّ المواطنة «جاميلان» رأسها ، وأسقطت شارة الوطنية المهملة، وقالت :

– دعك من هذا يَا «إيفاريست»! «مارات» هذا الذى تُعْجَب به رجل مثل بقية الرجال ، وليس أفضل من الآخرين. إنك مازلت صغيرًا، وما عندك إلَّا أوهام . إن ما تقوله اليوم عن «مارات»، سبق أن قلته عن «ميرابو»(١)، وعن «لافاييت»، وعن «بيتيون»، وعن «بريسو».

صاح «جاميلان» قائلًا : بصراحة ، نسى إلى الأبد !

وعندما سحب طرف المنضدة المصنوعة من الخشب الأبيض، المكدس عليها الأوراق، والكتب، وفرش الرسم، وأقلام الرصاص، قامت المواطنة بِوَضْعِ إناءٍ مصنوع من الخزف وبه حساء، وحفنتين من القصدير، وشوكتين من الحديد ، ورغيف الخبز الأسمر، وإناءٍ به عصير عنب مخلوط بالماء .

الابن والأم يتناولان الحساء فى صمت ، وانتهيا من عَشَائهما بقطعة من وَدَك الخنزير، وضعت الأم طعامها غير المتقن على خبزها لتضعه فى

---

(١) ميرابو : أعظم خطباء الثورة الفرنسية ، ولد سنة ١٧٤٩ وتوفى سنة ١٧٩١، ويذكر أن جثمانه اختفى مِنْ مدافن العظماء بعد اكتشاف مراسلاته مع لويس السادس عشر .

وقار، على طرف مديتها ،ثم إلى فمها الأَدْرَدْ[1] وتمضغها برصانة، احترامًا لهذا الطعام الذى يساوى الكثير، وكانت قد تركت لابنها فى صحنها أفضل مِمَّا أكلت، وهو لا يظل حالمًا ومشتتًا .

قالت له على فترات متساوية : كُلْ يا «إيفاريست» كُلْ . واتخذت هذه العبارة على شفتيها وقار حكمة دينية . وعاودت شكواها من غلاء المعيشة . ومرة أخرى طالب «جاميلان» بالضريبة ، كأنها العلاج الوحيد لآلامه .

ولكنها قالت :

– لا توجد نقود ، والمهاجرون حملوا معهم كل شيء ، وانعدمت الثقة.. إنَّ ذلك يدعو إلى اليأس !

صَاحَ «جاميلان» فى والدته صارخًا : أُسْكُتِى ، يا أمى ، اسكتى ! مهما تكن حالة الحرمان التى نعيشها . والآمنا فهى لحظة قصيرة ! والثورة ستعمل من أجل إسعاد النوع البشرى قرونًا طويلة .

وغَمَسَت السيدة الطيبة خبزها فى النبيذ ، وصفت نفسها ، وفكرت – وهى تبتسم – فى أيام شبابها، عندما كانت ترقص على النجيلة فى الاحتفال بعيد المَلِك، وتتذكر أيضًا يوم أن تقدم «جوزيف جاميلان» لخطبتها للزواج ، وسردت ما حدث بالتفصيل الدقيق . وقد قالت لها والدتها : «هيا ارتدى ملابسك، سوف نذهب إلى «لابلاس دى جريف»»،

---

(١) الأدرد : الأثرم ، الخالى من الأسنان .

إلى محل م. بياناسِّى الجواهرجى، ولنرى تنفيذ العقوبة فى «دميان»[1].

وقد وَاجَهتهما صعوبة بالغة ليسلكا طريقًا وسط الجمع الغفير من الفضوليين.. وفى محل بياناسِّى وجدت الفتاة «جوزيف جاميلان» يرتدى ملابسه الأنيقة الوردية، وهى قد أدركت فى الحال ماذا كان يحدث. وطوال الوقت كانت تلازم النافذة لترى قَاتِلَ الملك وهو يُعَذَّب، ويُرَّش بالرصاص المنصهر، وتسحبه أربعة جياد ليُلْقوا به فى النار.. كان السيد «جوزيف جاميلان» واقفًا خلف الفتاة لا ينقطع عن مجاملتها وإطرائها، فكان يمدح بشرتها، وتسريحتها، وقوامها .

أفرغت المواطنة «جاميلان» كوبها عن آخره، واستمرت فى إحياء ذكريات حياتها :

– ثم أَخرجْتُكَ إلى الدنيا يا «إيفاريست» مبكرًا عن الموعد الذى كنت أنتظره، بعد ما تعرضتُ للفزع وأنا حامل، عندما صدمتنى وأوقعتنى مجموعة من الفضوليين المهرولين ليشاهدوا إعدام السيد «لاللى»[2]، كان ذلك على «لوبونت – نوف » .

وعندما وُلِدْتَ ، كنت صغيرًا جدًّا، حتى أن الجراح كان يعتقد أنك لن تعيش، ولكنى كنت على يقين بأن الله سوف يُنعم علىّ ويحفظك لى . وتوليتُ تربيتك بكل كيانى، لا أدخر وسعًا فى العناية بك، ولا فى الإنفاق

---

(١) دميان : مرتكب محاولة قتل لويس الخامس عشر فى الخامس من يناير ١٧٥٧ . تم إعدامه فى الثامن والعشرين من مارس ١٧٥٧ بعد التعذيب .

(٢) لاللى : توليانداى : «أيرلندى مخيف» استمر فى الصراع ضد الإنجليز. اضطر إلى الاستسلام إبَّان حرب السنين السبع (١٧٥٦ – ١٧٦٣)، وتم اعتقاله وإدانته ، وأعدم فى التاسع من مايو ١٧٦٦ .

عليك : أصدقك القول يا صغيرى «إيفاريست»، أنك تبرهن لى على عرفانك بالجميل، ومنذ الطفولة وأنت تحاول دائمًا مكافأتى بطريقتك، كانت طبيعتك ودودة وحلوة. وأختك لم تكن قاسية القلب، ولكنها كانت أنانية وعنيفة، وأنت تشفق على البؤساء أكثر منها . عندما كان الأولاد السوقية ينزعون أعشاش الطيور من الأشجار، كنت تحاول أن تنتزعها من أيديهم لتأخذ أفراخ الطيور لتعيدها إلى أمهاتها، وما كنت تكفُّ عن ذلك إلا بعد أن يوجهون إليك إهانات ويضربونك بوحشية .

وفى سن السابعة، بدلًا من أن تتشاجر مع الأولاد المشردين فى الطريق، كنت تذهب فى هدوء إلى الشارع ، وتنشد الترانيم الدينية، وجميع المساكين الذين تقابلهم، كنت تصطحبهم إلى المنزل لتساعدهم، وكم كنتُ مضطرة لضربك حتى تقلع عن هذه العادة .

وكنتَ إذا رأيت أى أحد يتألم، لا يسعك إلا أن تشاركه فى آلامه، وتذرف الدمع من أجله. وعندما اكتمل نموُّك، أصبحتَ وسيمًا جميلًا . وما كان يدهشنى كثيرًا أنه كان يبدو عليك أنك لا تعرف ذلك، وتختلف اختلافًا كبيرًا فى هذا الصدد عن هؤلاء الصبيان الذين يشعرون بجمالهم ويتدللون بوجوههم التافهة .

الأم العجوز كانت تقول الحقيقة، فعندما كان «إيفاريست» فى العشرين من عمره، كان له وجه وقور وجميل، جَمَالُه جمالٌ خشن، وأنثوى فى آنٍ واحد.. قسماته كقسمات الإلٰهة «مينرفا»(١)، أما الآن، فنظراته القاتمة ووجهه الشاحب يدلان على حزن عميق وقاسٍ. ولكنه

---

(١) مينرفا : إلٰهة الذكاء والحكمة والفنون كما جاء فى الأساطير .

عندما يوجه نظراته نحو أمه تظل لمدة وجيزة تعبر عن عذوبة الشباب .

واستطردت حديثها قائلة :

– كان فى استطاعتكَ أن تستغل مزاياك فى معاكسة الفتيات، ولكنك كنت تفضل أن تبقى بالقرب منى، فى «البوتيك»، وفى بعض الأحيان كنت أقول لك : هَيَّا، لا تلتصق بى هكذا، اذهب لتتنشط قليلًا مع أصدقائك .

وسأظل يا «إيفاريست» – حتى وأنا على فراش الموت – أشهد لك بذلك، بأنك ابنٌ بارٌّ ، وبعد أن تُوفى والدك تحملت عبئى وكفلتنى ، بالرغم من أن حالتك لم تكن تسمح بذلك ، وجعلتنى أشعر أننى لا ينقصنى أى شىء ، وإذا كنا اليوم – نحن الاثنين – مَحْرُومَيْن وبائِسَيْن فلا ألومك أنت على ذلك ، ولكن الخطأ يرجع إلى الثورة .

وبدرت منه حركة عتاب ، ولكنها هزت كتفيها واستطردت :

– أنا لستُ أرستقراطية، ولكننى عرفتُ العظماء فى أوج سُلطتهم، وأستطيع أن أقول إنهم أساءوا استخدام امتيازاتهم . لقد رأيتُ والدَك وهو يُضْرَبُ بالعصا بأيدى خَدَم «الدوق دى كانالاى» لأنه لم يفسح الطريق بسرعة عندما مَرَّ سيدهم . إنى أمقتُ النمساوية(١)، كانت متعجرفة، وتنفق ببذخ ، أما بالنسبة إلى الملك فاعتقدت أنه طيب ، وكان لابد من اتهامه وإدانته لأُغَيِّر فكرتى. وأخيرًا، أنا غيرُ آسِفَة على النظام القديم، نظرًا إلى أنى قضيتُ فيه بعض الأوقات المناسبة، ولكن لا تَقُلْ لى

(١) تعنى ملكة فرنسا « مارى أنطوانيت » .

إن الثــورة ستحقق المســاواة، لأن الناس لن يكونوا متســاويين أبدًا، لأن ذلك مستحيل، ولكن البلد ستنقلب رأسًــا على عقب : ستجد دائما الكبــارَ والصغار ، والعِجَاف والسِّمَان .

وكــانت وهى تتحــدث تُرتب أدوات الطعــام. الرســام لم يكن يُصغى إليها ، كــان يبحث عن إحدى اللُّعب، «اللامتسرول»(١) بغطاء رأس أحمر، وترتدى «الكــرمنيــولا» والتى يجب أن تكــون فى لعب الورق، تحل محل الأعرج «البيستونى» المذموم .

طُرِقَ البــاب، وظهرت فتــاة ريفيــة بدينة أكثــر منها طويلة، صهبــاء، عرجــاء، وتختفى عينها اليسرى خلف عدســة مكبرة، ولون عينها اليُمنى أزرق باهت، حتى يبــدو كالأبيض، وشفتاها ضخمتــان، وأسنانها بارزة على شفتيها .

سألت «جاميــلان» عما إذا كان هو الرســام، وعما إذا كــان بوسعه أن يرسم لها صورة خطيبها فِيرًّان (جول)، متطوع فى جيش الأَرْدِين(٢).

فأجابها «جاميلان» أنه ســوف يرسم هذه الصورة تطوعًا منه عندما يعود هذا المحارب الشجاع .

تحدثت الفتاة فى هدوء تستــوجب التعجيل بالصورة فى الحال. ابتسم الرســـــام رغمًا عنــه ، واعترض بأنه لا يستطيع أن يفعــل أى شــىء بدون «الموديل».. المخلوقــة المسكينة لم تنبت ببِنْــتِ شَفَــة، لم تكن تتــوقع هذا

---

(١) اللامتسرول : فى عهــد الجمعيــة الوطنيــة، كــان اسم يطلق على الثــوريين الذين ينتمــون إلى أغلب الطبقات الشعبية .

(٢) الأردين : من ولايات فرنسا .

العائق. انْثَنَى رأسهـا على كتفها الأيسر، وعقـدت يديها على بطنها، وظلت صـامتـة بلا حـركـة، وبدت كأنها مُفعمـة بالحزن. تأثر الرسـام بهذه البساطة، ولكى يلهى العاشقة المسكينة قدَّم لها صورة أحد المتطوعين من الذين رسمهم بـألوان الماء، وسألها إنْ كـان يشبـه خطيبهـا المتطوع فى الأَرْدين .

نظرت إلى الصـورة بعينهـا الكئيبة، التى امتـلأت حيوية شيئًا فشيئًا ، ثم لمعت وأشرقت، وازدهر وجهها العريض ، وانفـرج ثغرها عن ابتسامة مشعة .

وأخيرًا قالت : إنه يشبهـه تمامًا ، هذا هو فِيرَّان (جـول) على الطبيعة.. إنه شديد الشبه به .

وقبل أن يفكر الرسـام فى استرداد الصـورة منهـا، طـوتها بعناية بأصـابعها الحمـراء الضخمـة على هيئة مـربـع صغـير ومـررتـه على قلبهـا ، بين الصلَّابة والقميـص ، ودفعت للرسام حـوالة بمبلغ خمسـة جنيهات ، وتمنـت له أمسية سعيـدة والصحبة الطيبة ، وانصرفـت بخفة وهى تعرج .

* * *

وفى عصر نفس اليـوم، توجـه «إيفاريست» إلى المواطـن «جان بليـن» تاجر «الصُّوَر»، والذى يبيع أيضًا العُلَب وأشغال الكارتون وجميع أنواع اللُّعَب، بشارع هونـوريه، بالقرب من مكاتب السفـريات، «الميساجيرى»، فى مـواجهـة الكنيسة الصغيرة « الأوراتور » ، ومتجـر « لامـوربانتر » : (مصور الغرام).

المتجر مفتوح فى بدروم أحد المنازل القديمة الذى أُقيم منذ ستين عامًا،

بعقد بارن، وعَلَى قبته عند المدخل قناع ساخر مُقَرَّن . وتشغل مساحة هذا العقد صورة زيتية تمثل «الصقلى»، أو «لامور بانتر»، كانت من تنفيذ «بوشيه»، وكان والد «جان بلين» قد وضعها سنة ١٧٧٠، وقد أثرت فيها الشمس والأمطار منذ ذلك الوقت مما أدَّى إلى محوها .

وعلى جانبى الباب توجد فتحة مشابهة، برأس حورية عند مدخل القبة، مزينة بألواح زجاج كبيرة تقدم إلى المشاهد صُوَرًا حسب الموضة، وآخر تجديدات للحفر بالألوان .

فى هذا اليوم ، كان يشاهد فيها لوحات غزلية اختارها «بوللى»[١] برعاية فاترة قليلًا ، و «دروس فى الحب الزوجى»، و «مقاومات حلوة»، تكدَّر منها اليعقوبيون، والتى وَشَى بها المتزمتون إلى «مجتمع الفنون»، «النزهة الشعبية» لدى بوكور[٢] مع شاب معجب بذاته بسروال تافه منشور على ثلاثة مقاعد، وجياد كارل فيرنى[٣] الصغير .

من بين المواطنين الذى كان يتدفق سيلهم أمام المحل، كان أكثرهم ثيابهم رَثَّة، وكانوا يتوقفون أمام «الفيترينتين الجميلتين» متعجلين للتسلية، متلهفين إلى الصور، ومتحمسين لأن يأخذوا نصيبهم ـ حتى وَلَوْ بعيونهم ـ من ثروات هذا العالم .. كانوا ينظرون بإعجاب فاغرى

---

(١) مصور فرنسى .
(٢) دى بوكور ، فيليبر : رسام أكاديمى ، تلميذ « فيو » .
(٣) كارل فيرنى : رسام عادات باريس ، والمناظر الطبيعية الرومانية ، وموانىء فرنسا، والد «هوراس» .

أفواههم، والأرستقراطيون يلقون نظرة ثم يقطبون حواجبهم، وينصرفون.

وإلى مسافة بعيدة يستطيع أن يُرَى «إيفاريست» يرفع عينيه نحو إحدى النوافذ التى تطل على المحل، تلك التى على اليسار حيث يوجد أَصِيصٌ من زهر القرنفل(١) الأحمر، خلف شرفة ذات الحديد المزخرف، هذه النافذة تضىء غرفة «إيلودى» ابنة «جان بليز»، تاجر الصور يقطن هو وابنته الوحيدة فى الطابق الأول من المنزل وكان «إيفاريست» قد توقف أمام محل «لامور بانتر»، وكأنه يلتقط أنفاسه، وأدار مقبض الباب. وجد المواطنة «إيلودى» وقد باعت قطعتين محفورتين «لفراجونار» الابن(٢)، ونيجون(٣)، اختارتهما بعناية من بين قطع كثيرة أخرى. قبل أن تضع الحوالات التى تسلمتها فى الخزينة تفحصتهم الواحدة تلو الأخرى بعينيها الجميلتين فى ضوء النهار، لتتأكد من دمغة الأسلاك المعدنية والعلامة المائية وآثار السلك النحاس، حيث إنه فى ذلك الوقت كانت تسرى موجة ترويج أوراق نقد مزيفة تُماثِل الأوراق الحقيقية، وذلك كان يدعو إلى القلق، ويضر بالتجارة، كما كان فيما مضى هؤلاء الذين يقلدون توقيع الملك مزيفو النقد الوطنى، كانت عقوبتهم الموت. وكانت توجد لوحات الحوالات النقدية فى جميع الكهوف، كان السويسريون يُدخلون حوالات مزيفة بالملايين، وكانت تُلقَى فى الفنادق

---

(١) رمز القوة والحب الأنثوى.

(٢) فراجونار الابن: رسام نيو كلاسيكى، واسمه الأول: إيفاريست.

(٣) نيجون: أديب فرنسى.

بالرزم، وكــان الإنجليــز يشحنون منهــا إلى شــواطئنا يــوميًّــا «بالات» صغيرة، ليجعلوا الجمهورية تفقـد سمعتها وتنعدم فيها الثقــة، ويدفعوا بالمواطنين إلى البؤس .

فكانت «إيلودى» تخشـى أن تسلم أو تسلم أوراقًــا نقدية مـزيفة، كما كانت تخشى كـذلك أن تُعامَل كأنها متــواطئة مع «بيت ويليام»(١)، ومع ذلك ، كانت فى كـل مرة تعتمد على حظهــا، وعلى ثقة أنها ستنجــو بنفسها من هذا العمل فى كل مواجهة .

شــاهدها «إيفـــاريست» بهذا المظهـر الكئيب الذى كـــان أفضل قيّــه الابتسامـات التى تعبر عن الحب. ونظرت إليه بامتعاضة ممتـزجة بقليل من السخــرية، ورفعت عيونـها السـوداء، وهذا التعبير صدر عنهــا لأنها تعرف أنـها محبوبة، وذلك لا يُغضبها، وأن هذا الوجه يضـايق أَىَّ عاشق، ويحضــه على الشكوى، ويحثه على أن يصرح بذلــك إذا لم يكن قد حــدث بعد ، تلك هـى حالة «إيفاريست» .

وبعــد أن وضعت الأوراق النقــدية فى الخزينة، أخـــرجــت من سلة حــاجاتها إيشــاربًا أبيضَ كــانت قـد بدأت فى تطريزه، وشرعت فى الشغل فيه. كانت مــدَلَّلَةً ومتكلفة بالفطرة، وتستعمل الإبرة لتنال الإعجاب، و فى نفس الوقت لتصنع لنفسهــا حليــة، كــانت تطرز بطريقــة مختلفة، تبعًــا

---

(١) بيت ويليــام : رئيس الوزراء الإنجليــزى من ١٧٨٤ إلى ١٨٠١ . بعد احتــلال بلجيكا أصبح عــدوًّا لفرنســا ، وحارب الجمعية الوطنية وأطلقت عليــه «عدو النوع الإنسانى»، رمز للحــزب المفضوح الذى سانده «الذهب الإنجليزى» فى حقيقة الأمر .

لهؤلاء الذين كانوا ينظرون إليها : كـانت تطرز بلا مبالاة من أجل هؤلاء الذين تريد أن تُبين لهم كآبةً حالمة، وكانت تطرز لتُبَيِّنَ لهؤلاء بأنها يائسة تتسلى قليلًا . وشرعت تطرز بعناية من أجل « إيفاريست » الذى كانت تتعشم أن تجد فيه عاطفة حقيقية .

لم تكن «إيلودى» تتمتع بقدر كبير من الجمال، وكذلك لم تكن صغيرة فى السن، وقد تُلاحظ من أول وهلة أنها دميمة، فهى سمراء، زيتونية البشرة، وتحت المنديل الأبيض الكبير المعقود فى إهمال حول رأسها تنفلتُ بعض خصلات شعرها اللازوردى اللون، وقد سودت جفون عينيها الناريتين .

وفى وجهها المستدير ذى الوجنتين البارزتين، الباسم، المفلطح، الريفى المظهر، والشهوانى، وجد فيه الرسام رأس إلٰه الريف عند الرومان «بورغين»، الذى يُعجبه ـ على أحد القوالب ـ فَرَاهتُه المقدسة. ويُبرز ملامح شفتيها الملتهبتين سَبَلاتٌ من الشعر الخفيف النابت فوقها. وصدرُها الذى يبدو كأنه منتفخ من التدليل يرفعُ الخمارَ المعقود حسب موضة العام. لينة القامة، خفيفة حركة الساقين. تتحرك بكامل جسدها القوى فى سهولة بدائية ورقيقة .

نظرتها، ونَفَسها، ورعشات جسدها، كل ما فيها ينادى القلب، ويعد بالحب . وخلف مكتب صرافة التاجر، تعطى فكرة عن إحدى حوريات الرقص، أو كاهنة باكوس(١) للأوبرا، متجردة من جلد القطة المتوحشة،

---

(١) باكوس : إلٰه الخمر .

ومن صولجان باكـوس، ومن أكاليله من اللبــلاب، ومن كبتها، ومستترة بسـهولة فى غلاف متواضـع لمديرة منزل للرسام «شادران».

قالت للرسام : أبى ليس هنا، انتظره لحظة، لن يتأخر طويلًا.

كـانت يداها الصغيرتان السمـراوان تحركـان الإبرة خـلال القماش الذى تطرزه .

ـ هل يعجبك هذا الرسم يا سيد «جاميلان» ؟

«جاميلان» لم تكن لديه القـدرة على التظاهر ، ولما كان الحب قد ألهب شجاعته فبالتالى حَمَّسَ صراحته .

قـال : أيتهـا المواطنة، إنكِ تطرزين بمهـارة، ولكن إذا أردْتِ أن أجيبك على ذلك، فإن الـرسم الذى رَسَمْتِـــهِ ليـس سهـــلًا، ولا مُجردًا، ويعطى إحساسًا بالذوق المتأثر الذى استمر زمنًا طويلًا فى فـرنسا فى فن زخرفة الأقمشـــة، والأثاث والتلبيســات، وهذه العقد، وهذه الشرائـط المزخرفـة تذكـرنا بالأسلوب التـافه المسكين الذى كـان مفضـلًا فى عهد الطاغيـة . الذوق يُبْعث . يا للأسف ! لقـد رجعنــا إلى بعيـد ، إلى عهـد الدنىء لويس الخامس عشر، كانت الزخرفة بها شىء غريب غير مفهوم (شينوا) (١).

كانت خزانات الملابس تُصنع بجـوفٍ كبير، ومقابض ملتوية مظهرها يثير الضحك، لم تكن تصلح إلَّا لتُحْـــرَق ويستـدفىء بها المواطنون. فــلا يوجـد أجمل من البساطة. يجب أن نعـود إلى القديم . فها هــو ذا «دافيد»

---

(١) أى : ينطوى على شىء من الزخرفة الصينية .

يرسم أَسِرَّةً ومقاعدَ بمسندين، بعد أن كان يرسم المزهريات الإترورية، وصور مدينة هيرقلانوم (١).

– قالت إيلودى : لقد رأيتُ هذه المقاعد، إنها جميلة ! وقريبًا لن تكون هناك حاجة إليها ، فأنا مثلك ، مولعة بالقدم .

– أجاب «إيفاريست» : حسنًا أيتها المواطنة ! إذا زَخْرَفْتِ هذا «الإيشارب» بإحدى اليونانيات، أو أوراق اللبلاب، أو بالثعابين، أو بالأسهم المتقاطعة، لكانت جديرة بإحدى الإسبرطيات... وبكِ أنتِ. عندئذ سيكون فى وسعك أن تحتفظى بهذا «النموذج» بعد تبسيطه وتوجيهه إلى الطريق المستقيم .

سألته عَمَّا يجب أن تحذفه .

فانحنى على الإيشارب ، عندئذ لامست خدوده خصلات شعر «إيلودى»، وتلاقت أيديهما على القماش، واختلطت أنفاسهما، وفى هذه اللحظة، أحس «جاميلان» ببهجة لا حدود لها، ولكن ، عندما شعر بأن شفتيه اقتربتا من شفتى «إيلودى» خَشِىَ أن يسىء إلى الفتاة، فارتدَّ عنها فى الحال .

كانت المواطنة «بلين» تحب «إيفاريست جاميلان»، فهى تأثرت بطلعته البهية، وبعينيه الواسعتين البراقتين، وبوجهه البيضاوى الجميل الشاحب، وشعره الأسود الغزير المنسدل على جبهته، والذى يتدلى

---

(١) إتروية وهيرقلانوم : مدينتان قديمتان بإيطاليا .

متموجًا على كتفيه، وبمظهـره الوقور الفاتر، ومع أنه أنيس وبسيطٌ فهو جاد الحديث، لا يُداهن أبدًا .

ولما كـانت تُكِنُّ لـه حُبًّـا كبيرًا فهى ترى فيـه عبقـرية فنان، سـوف تتمخض يومًـا عن عمل فنى، يجعل اسمـه ذائعَ الصيت، وسـوف يزداد حبهـا له. إن المواطنة زبلين» ليست لديها أى فكرة عن حيـاء الرجل. ولم ينجـرح كبرياؤها إذا ما اتبع رجل أهواءه وميـوله ورغباته. كـانت تحب «إيفاريست» لحيـائه، فهى لا تحبه لأنه كان خجـولًا، ولكن لأنها وجدت فيه الميزة التى لا تَعِى غيرة ولا شكوكًا، ولا تخشى مطلقًا أية متنافسات .

ومع ذلك فهى فى هذه اللحظة حكمت عليـه بأنه شديد التحفظ إلى حَـدٍّ مـا . وإذا كـانت «آريسى»، (إحـدى بطلات الكاتب راسين)، كـانت تحب «هيبـوليت»، مُعجبـة بالفضيلة للبطل الشـاب، ذلك كـان بأمل أن تتغلب عليه، وأنها سرعان ما تألمت من قسوة التقاليد، والتى لم يتهاون فيها من أجلها. وبمجرد أن سنحت لها الفرصـة، اعترفت اعترافًا شبه كامل، حتى تدفعه هو نفسه إلى الاعتراف.

اقتداء «بآريسى» الرقيقة لم تكن المواطنة «بلين» بعيدة عن اعتقاد بأن المرأة مُلْزَمَـة بأن تتخـذ بعض المبادرات فى حـالة الحب، فكانت تقـول فى نفسها : «إن أكثـر المحبين هم الأكثر حيـاءً، يحتاجون دائمًا إلى المسـاعدة والتشجيع. تلك هى ـ باختصار ـ طهارتهم، وأن المرأة تستطيع أن تقطع نصف الطريق – دون أن يرونها ، وأن تُدبر لهم مظاهـرَ هجومٍ بمهـارة، وتُهَيِّىءَ لهم مجد الغزو». وما كان يُسَكِّن روعها فى نهاية الأمر أنها كانت

على يقين (وأيضًا لم يكن هناك أى شك فى هذا الموضوع) أن «إيفاريست» ـ قبل أن تجعل الثورة منه بطلا ـ كان يُحب امرأً بكل إخلاص، مخلوقة ـ متواضعة، أَحَبَّ بوابة الأكاديمية «إيلودى»، التى لم تكن ساذجة قط، فقد أدركت أنواعًا مختلفة من الحب. أما «إيفاريست»، فقد ألهمها بشعور عميق جدًّا، حتى أنها فكرت فى أن تهبه حياتها. نعم، كانت على أتم استعداد لأن تتزوجه، ولكنها كانت تتوقع أن والدها لا يوافق على زواج ابنته الوحيدة من فنان مغمور وفقير.

إن «جاميلان» كان على فيض الكريم، لا يمتلك شيئًا، وتاجر الصور المطبوعة كان يحقق أرباحًا هائلة. وكان متجره «لامور بانتر» يُدِرُّ عليه الكثير، وكذلك فوارق سعر العملة، وكان مشتركًا مع أحد المولين الذى كان يسلم إلى سلاح الفرسان فى الجمهورية أحزمة من «الأَسْل»، وكذلك يسلم «الشوفان»(1) المطحون.

وأخيرًا، ابن سكاكينى شارع سان دومنيك ـ أى جاميلان ـ كان شخصًا رقيق الحال، بالنسبة إلى ناشر الصُّوَر المعروف فى جميع أنحاء أوروبا، ويمت بصلة إلى كل من عائلة «بليزُو»، وعائلة «بازان»، وعائلة «دِيدو»، وكان يتردد على المواطنين «سان ـ بيير» وفلوريان (2).

لم تكن «إيلودى» إلَّا ابنة مطيعة، تريد أن تحصل على موافقة والدها كضرورة لاستقرارها. تَـرَمَّلَ الأب فى وقت مبكر، وكان ذا مزاج طموح

---

(1) الأسل والشوفان: نوعان من النبات.
(2) فلوريان: قصَّاص فرنسى.

وطائش، وزيرَ نساءٍ، وصاحبَ أعمالٍ كثيرة، لم يهتم بها يومًا ما، كبرت وترعرعت دون أى عناية أو رقابة منه، بدون نصائحه، أو صداقته، لم يكن مهتمًّا برعايتها، بل كان يجهل سلوكها، سلوك فتاة كان يُقدِّره بوصفه خبيرًا أو عارفًا بالمزاج الحاد ووسائل الإغراء التى تعتبر بوجه آخر أقوى من أى وجه جميل. فلديها الشجاعة بحيث تصون نفسها، ومن الذكاء بحيث لا تضل، عاقلة فى تصرفاتها مهما كانت، فنزعة الحب لم تُنْسِهَا قط تقاليد المجتمع، وكان والدها مُمْتَنًّا لها غاية الامتنان لما تتمتع به من حَذَر، ولما كانت ترث عنه حاسة التجارة والميل إلى العمليات التجارية فهو لم يساوره أى قلق بصدد الأسباب التى تُثنى فتاة صالحة للزواج، واحتفظ بها فى المنزل، حيث إنها تُعادل أربعة موظفين تجاريين، وحاكمة .

كانت فى السابعة والعشرين من عمرها، فهى تشعر بأنها فى سن الخبرة، لتهتم بتنظيم حياتها بنفسها، ولا تحتاج إلى أية نصائح أو إرشادات، أو لتخضع لإرادة أب لا يزال محتفظًا بشبابه، فهو متهاون وطائش. ولكن لكى تتزوج من «جاميلان» كان ينبُغى على السيد «بليز» أن يعلن عن هذا الصهر الفقير، وأن يعمل على توفير وتأمين السكن والعمل له بطريقة أو بأخرى، وأن يوجد له مصادر، كما فعل مع العديد من الفنانين، وهى ترى أن ذلك مستحيل، فلابد أن يعرضه أحد ليقبله الآخر، طالما أنه يوجد بين الرجلين نوع من المودَّة .

هذه العراقيل تضايق «إيلودى» العاقلة الرقيقة. لقد واتتها فكرة

الاقتران بصديقها فى السِّرِّ وبدون أى خوف، وتُشْهِدُ الخالقَ على ثقتهم المتبادلة. إن فلسفتها لا تجد فى مثل هذا الزواج ما يدينها، حيث إن حالة الاستقلال التى تعيشها جعلت ذلك فى وسعها، بالإضافة إلى أن «إيفاريست» يتمتع بطابع الفضيلة والشرف، مما أضفى على هذه الفكرة قوة مُطَمْئِنة، ولكن «جاميلان» يجد معاناة كبيرة فى بقاء مساندته لأُمِّه العجوز لكى تعيش ولا يبدو أن هناك وجود مكانٍ ولو فى حدود ضيقة - لحب يرجع إلى بساطة الطبيعة. وبالإضافة إلى ذلك فإن «إيفاريست» - يعلن بعد عن عواطفه، ولم يُقَدِّرْ أهدافه بعد. والمواطنة «بلين» كانت تتعشم أن تدفعه إلى ذلك .

توقفت فجأة عن تأملاتها، وعن إِبْرَتها، وقالت مخاطبة «إيفاريست»:

- أيها المواطن « إيفاريست »، هذا الإيشارب لا يعجبنى طالما أنه لا يعجبك أنت. أرجوك، ارسم لى «نموذجًا» وسوف أفعل مثلما فَعَلَتْ «بينيلوب»(١)، سأفك الشغل الذى تم أثناء فترة غيابك .

أجاب بحماس مبهم :

- أيتها المواطنة ، أتعهد بذلك، سوف أرسم لك سيفَ «هارموديوس» سيف فى إكليل من الزهور. ثم أخرج قلمه الرصاص ورسم سيوفًا وزهورًا بهذا الأسلوب الفريد والعادى الذى يحبه، وفى نفس الوقت يَعْرِض مَذهبه ويقول :

(١) بينيلوب : فى الميثولوجيا الإغريقية، زوجة «أوليس» البطل الأسطورى، وأُم «تيليماك» رمز الوفاء الزوجى .

- ينبغى على الفرنسيين المتجددين أن يلفظوا كل ميراث العبودية : كل ما هو ردىء ذوقًا ، وشكلًا ، ورسمًا .. إنَّ « فاتو » ، و « بوشيه » ، و«فراجونار»، كانوا يعملون من أجل طغاة وعبيد. ولا نجد فى أعمالهم الفنية أى إحساس بالأسلوب الجيد، ولا بالخطوط السليمة، ولا حَظَّ عندهم للطبيعة أو الحقيقة. بل نجد أقنعة، ودُمًى، وأشياءَ صغيرةً، ومحاكاة خرقاء. الأجيال القادمة سوف تزدرى أعمالهم العابثة. وفى غضون مائة عام جميع لوحات «فاتو» سوف تُحَطَّم وتُحْتَقَر فى كل مكان، وفى سنة ١٨٩٣ سوف يقوم الطلبة الذين يدرسون التصوير بتغطية لوحات «بوشيه» برسوماتهم .

وقد فتح «دافيد»(١) الباب وَتقرَّب إلى القديم، ولكن لم يكن بعد أكثر سهولة أو عظمة، أو أكثر تجريدًا. ولا تزال هناك أسرار على فنانينا أن يتعلموها عن إفريزات مدينة هيرقيلانوم(٢) والنحوتات الرومانية البارزة، والأوانى الأترورية.

ثم تحدث طويلًا عن جمال الزمن القديم، ثم عاد إلى «فراجونارد» ثانية، وتحدَّثَ عنه بحقدٍ لا تنطفىء جذوته قائلًا :

- هل تعرفينه أيتها المواطنة ؟

---

(١) دافيد ، جاك لويس : رسام متألق، حصل على جائزة روما - أكاديمية الفنون الجميلة باعتباره من المخلصين لروبيسبير، قضى مدة فى السجن، بعد الثيرميدور التاسع. وفيما بعد رسام «بونابرت» والإمبراطورية .

(٢) مدينة هيرقيلانوم : مدينة قديمة فى إيطاليا، دُفنت تحت رماد بركان فيزوف عام ٧٩. وفى عام ١٧٠٩ تم اكتشاف الموقع، وفى عام ١٩٢٧ بدأت دراستها علميًّا .

أشارت « إيلودى » بالإيجاب ..

– هل تعرفين كذلك الرجل الطيب «جروز»، الذى يرتدى ملابس أرجوانية اللون ويتمنطق بسيف؟ بكل تأكيد شكله يثير الضحك، ولكنْ له مظهر أحد حكماء اليونان، بالقرب من «فراجونارد». لقد قابلته منذ زمن قصير، هذا العجوز البائس كان يجرى كأنه يتدحرج فى أروقة لوياليه – إيجاليتيه (قصر المساواة)، مُعَفَّرًا ، رقيق الحاشية، مختلجًا، شديدَ المرح، قبيحًا، ولهذا المنظر تمنيت لو لم تكن «أبولُّو»(١) موجودة، وأن يقوم أحد أصدقاء الفنون – ويكون قاسيًا – بشنقه على شجرة، وأن يسلخه مثل «مارسياس»، ليكون عبرةً أزلية للرسامين السيئين .

ثَبَّتَتْ « إيلودى » عليه نظراتها المبتهجة ، الشهوانية قائلة :

– هل تعرف الكراهية يا سيد «جاميلان» ؟ وهل المفروض أن أُصدق أنك تعرف أيضًا ... فقاطعها صوتٌ :

– أهذا أنت يا «جاميلان» ؟.. هكذا صاح المواطن «بليز» بصوتٍ رنَّان ودخل فى خَانِه يدق الأرض بحذائه، وبرنين الحلية التى يعلقها على صدره بسلسلة، وتتطاير أذيال سترته، مرتديًا على رأسه قُبعة ضخمة، سوداء اللون، تتدلى قرونها على كتفيه.

وتحمل « إيلودى » سلتها وتصعد إلى غرفتها .

ويسأل المواطنُ «بليزُ » :

---

(١) من آلهة اليونان .

– حسنًا « جاميلان »! هل أحضرت لى أى شىء جديد ؟

ـ ربما (قالها الرسام) .

وعرض فكرته قائلاً :

– إن أوراق اللعب الخاصة بنا تمثل تناقضًا مُكَدِّرًا مع التقاليد، أسماء الخادم والملك فيها إهانة لأُذُن المواطن، لذلك أدركتُ ونفذتُ لعبة ورق ثورية جديدة، ووفقًا لهذه اللعبة نستبدل الملوك والدامات (السيدات)، والخدم، بالحريات، والمساواة، والإخاء، والآسات(١)، محاطة برُزَم، تسمى القوانين ... فتعلنوا حرية السِّبَاتى، ومساواة البِسْتونى، وأخاء الكاريهات، شروط اللون .... وأعتقد أن هذا الورق رُسِم بكل فخر ، وعزمت على أن أطلب من « ديماهيس » أن يحفره بمقاس مناسب، وأن يحصل على إجازة. وأخرج من حقيْبته بعض الصور المرسومة بألوان الماء، وعرضها الفنان على تاجر «الرشم»(٢) .

رفضها المواطن «بليز» وأشاح بوجهه ، وقال لإيفاريست :

– يا صغيرى ، اذهبْ بورقك هذا إلى الجمعية الوطنية، وهى سوف تمنحك شرف الجلسة، ولكن لا تتعشم فى أن تحصل على مليم واحد عن اختراعك هذا الذى لم يكن جديدًا . لقد استيقظت متأخرًا جدًّا ، فأنت ثالثُ مَنْ أحضر لى هذه اللعبة . صديقك «ديجور» فى الأسبوع الماضى قَدَّمَ لى

---

(١) الآسات : من ورق اللعب .

(٢) الرشم : الصور المطبوعة .

لعبة ورق «بيكية» بأربعة مـن الجن، وأربعة حُرِّيات، وأربعة مُسَاويات. وعُرضت عَلَيَّ لعبة أخرى، حيث كان يوجد حكماء وشجعان، مثل كاتون، وروسو، وهانيبال، وغيرهم أيضًا !....

وهذه الأوراق يا صـــديقى لها الأفضليـــة على أوراقك، لأنها رُسمت بوضوح، وحُفرت على خشب بالمحفار. كَمَا أن معرفتك بالناس محدودة، إذْ تعتقـد أن لاعبى الورق سيستعملون ورقًـا مـرسـومًـا وفقًـا لذوق «دافيد»، ومحفورًا وفقـا لطريقة «بارتولوتزى»[1]، ومن الوهم الغريب أيضًا تصـديقُ أنه يجب توفيق الكثير من الطرق لتطابق الألعاب القـديمة بالأفكار الحاليـة. نجـد قـدامـى الجنود الطيبين يُصححـون اللاوطنيـة بإشـــارتهم إلى «الطاغيــة!» أو ببســاطة : إلى «الخنـزير الضخم »، وهم يستخـدمون ورقهم القـديم ولم يشتروا قط بدلاً منه. إن أكبر استهـلاك للعب كـــان يحدث فى دار قمار قصر - المســاواة (باليـــه - إيجاليتيـه)، أنصحك بأن تذهب إليه، وأن تقدم حُـرِّيَّاتك هذه ومساواتك، إلى مديرى القمار والمقـامـرين ، و....، مــاذا قلـت؟ و.... وشروطك... للألوان.... ثم تعود إلىّ وتخبرنى كيف استقبلوك !

كان المواطن «بليـز» جالسًا على مكتبـه ينفض عن سرواله ذرات التبغ بنقرات من أصابعه ، وينظر إلى «جاميلان» بشفقة ويقول :

- واسمحْ لى أن أنصحـك أيها المواطن الرســـــام : إذا كنت تـريد أن تكسب عيشك اتـركْ هنا ورقك الوطنى، اترك هنـا رمـــزياتك الثـــورية،

(١) نحات إيطالى .

والهرقليات، والهيدرات، وجِنِّياتك الباحثة عن الجريمة، وجِنِّياتك، جنيات الحرية، والأفضل أن ترسم لى صورَ فتياتٍ جميلات . حَميَّة المواطنين فى أن يتجددوا بالدفء مع الزمن، وسيظل الرجال يحبون النساء. ارسم لى نساءً حِسانًا فى عمر الورد، أقدامهن وأيديهن دقيقة، وَضَعْ دائمًا نُصب عينيك أنه لن يوجد أى فرد سيولى الثورة أى اهتمام، ولن يتطرق أحد فى الحديث عنها .

وفجأة ، استشاط « إيفاريست جاميلان » غضبًا وقال :

– مـاذا ؟! لن يتكلم أحد عن الثورة، ولكن تأسيس الحرية، وانتصارات جيوشنا، ومعاقبة الطغاة.. كل ذلك أحداث سوف تُبهر الأجيال القادمة ! كيف لا يمكن أن يشيد بها أحد ؟!....

مـاذا ! طائفة الثورى اللامتسرول «عيسى» دامت ثمانية عشر قرنًا تقريبًا، وإجلال الحرية سوف يُلْغَى بعد أربعة سنوات بالكاد من الوجود!

ولكن جان بليز يبدو بمظهر المتسامى :

– أنت تعيش فى الخيال ، أمَّا أنا فأعيش فى الواقع. صدقنى يا صديقى، إنَّ الثورة هَمٌّ ، فهى تستمر أكثر من اللازم، خمس سنوات من الحماس ، وخمس سنوات من الأحضان ، ومذابح ، وخُطَب ، وسلام وطنى، ونواقيس الخطر ، وأرستقراطيون على حبل المشنقة، ورءوس محمولة على الأَسِنَّةِ، ونساء راكبات على مدافع، وأشجار الحرية تضع غطاء رأس أحمر، وفتيات وعجائز تجرهن عربات الزهور بأثوابهن البيضاء،

وسجون، ومِقْصَلة، وإعلانات، وشارات وطنية، وقبعات مزينة بالريش، وسيوف ، وسُترات قصيرة، كل ذلك لا آخر له ! ثم تكون البداية لعدم فهم أى شىء فى ذلك . نحن قريبون جدًّا منهم، مِنْ هؤلاء المواطنين الكبار الذين لا يُساقون إلى «الكابيتول» إلا ليُرحّلوا إلى «لاروش تاربيين» (مكان فى أقصى جنوب غرب الكابيتول حيث يُرَحَّل إليه جميعُ المحكوم عليهم بالإعدام)، مثل نيكير(١)، وميرابو، ولافاييت، وبايى(٢)، وبيتيون، ومانويل(٣)، وآخرين كثيرين. ومَنْ يعلم أنك لا تخصص نفس المصير لأبطالك الجدد؟..... لا ندرى .

– قال جاميلان : أُذْكُرْ لى أسماءهم، أيها الوطنى «بليز»، أُذْكُرْ هؤلاء الأبطال الذين تستعد للتضحية بهم ! قال ذلك بلهجة جعلت تاجر الرشم يتذكر أن يكون حذرًا .

أجاب «بليز» واضعًا يده على قلبه :

أنا جمهورى مثلك، ووطنى مثلك أيها المواطن «إيفاريست جاميلان»، وأنا لا أشك فى وطنيتك، ولا أتهمك مطلقًا بالتقلُّب. ولكن أعلم أن وطنيتى

---

(١) نيكير ، جاك : من رجال البنوك من جنييف . فى ١٧٧٧ استدعاه لويس السادس عشر إلى الإدارة المالية. وفى ١٧٨٨ يقنع الملك بدعوة المجالس العامة لإعادة الثقة. ومن هنا كان عزله فى الحادى عشر من يوليو ١٧٨٩، والذى كان سببًا مباشرًا فى ثورة الرابع عشر . تم استدعاؤه ثانيًا ، ولم يستطع أن يقمع الأحداث ، فاستقال فى سبتمبر ١٧٩٠. أصبحت ابنته مدام دى ستيل .

(٢) بايى ، جان : فَلَكى شهير ، عميد الطبقة الشعبية فى المجالس العامة، وأول رئيس للجمعية التأسيسية، وأول عمدة لباريس فى ١٧٨٩ . أعلن الأحكام العرفية التى تبيح إطلاق النار فى السابع عشر من يوليو ١٧٩١ . تم إعدامه فى نوفمبر ١٧٩٣ .

(٣) مانويل ، لويس بيير : نائب البلدية، لعب دورًا مهمًّا فى العاشر من أغسطس ١٧٩٢ . وكان يعادى حُكم الإعدام ، ولم يُصَوِّتْ على حكم إعدام الملك. اتهموه بالخيانة ، تم إعدامه بالمقصلة فى نوفمبر ١٧٩٣ .

وإخلاصى للقضية العامة، تشهد عليهما أعمالٌ عديدة. ها هى ذى مبادئى : أمنحُ ثقتى لكل فرد قادر على أن يخدم الأُمَّة. وَأَنْحَنِى أمام الرجال الذين يشير صوتهم إلى الشرف المحفوف بالمخاطر للسلطة التشريعية، مثل «مارات»، ومثل «روبيسبير»، وأنا على استعداد أن أقدم لهم العون فى حدود إمكانياتى المتواضعة، وأن أحمل إليهم المؤازرة المتواضعة من مواطن صالح.. وفى وسع اللجان أن تشهد على حماسى وعلى إخلاصى. ومن الناحية الاجتماعية كنتُ عضوًا مع مواطنين حقيقيين، زودتُ فرساننا البواسل بالشعير والعَلَف، وجهزتُ جنودنا بالأحذية، وحتى فى هذا اليوم أَوْصَيْتُ بإرسال ستين عجلًا من «فيرنون»(١) إلى جيش الجنوب، من خلال بلد أغارت عليه اللصوص، وهزمه رسل «بيت» و «كونديه»(٢) أنا لا أتكلم، بل أفعل .

وفى هدوء أعاد «جاميلان» لوحاته المائية إلى كارتونته وعقد ربطتها، وحملها تحت إبطه، وقال وهو يصرُّ على أسنانه :

- يا لها من مفارقات ! أن نساعد جنودنا على أن يحملوا - فى أنحاء العالم - هذه الحرية التى يخونونها فى أوطانها، بأن يبذروا بذور القلاقل والقلق فى نفوس المدافعين عنها... سلامًا أيها الوطنى « بليز ».

وقبل أن يدلف إلى الحارة التى تحاذى «الأورتوار» (أى: الكنيسة

---

(١) فيرنون : مدينة فرنسية .

(٢) كونديه : مهاجر من ١٧٨٩ ، نظم جيشًا من الفرنسيين استخدمه المتحالفون استخدامًا سيئًا . لم ينتشر إلَّا فى عام ١٨٠١ بمعاهدة السلام فى اميانس .

الصغيرة) كان «جاميلان» قلبه مفعمًا بالحب وبالغضب، التفت ليلقى نظرة على زهرات القرنفل الحمراء المزدهرة على حافة إحدى النوافذ .

«جاميلان» لا ييأس مطلقًا من سلامة الوطن . وفى مقابل الكلمات غير الوطنية التى تفوَّه بها «جان بلين» قاوم عقيدته الثورية. وكان لابد له أيضًا أن يعترف بأن هذا التاجر لم يكن يزعم – بدون مظهر من مظاهر العقل – أنه من الآن فصاعدًا لن يهتم شعب باريس بالأحداث.. وأأسفاه! كان من المؤكد جدًّا أنه بعد الحماس الذى كان يسود الساعات الأولى جاءت اللامبالاة العامة، ولن نرى الجموع الغفيرة المجتمعة على أمْرٍ واحدٍ فى سنة ١٧٨٩، وأننا لن نرى كذلك ملايين الأنفس المنسجمة التى كانت تتسابق فى سنة ١٧٩ حول كنيسة الفيدراليين .

آه ! المواطنون الصالحون يخضاعفون حماس ومهارة الشعب، ويوقظونه من سباته، ويخيرونه بين الحرية أو الموت. هكذا كان «جاميلان» يفكر، وكان فكر «إيلودى» يساند شجاعته . وعندما وصل «جاميلان» إلى الطريق العمومى رأى الشمس تغرب فى الأفق تحت سُحب ثقيلة، تشبه جبالاً من الحِمَم المتوهجة، وكانت أسقف المدينة تسبح فى ضوء ذهبى، وزجاج النوافذ يقذف سهامًا مضيئة .

وكان «جاميلان» يتخيل أَنَّ جبابرةً يقيمون مع الأطلال المتقدة للأزمنة الغابرة مدينة «ديسية» النحاسية. ولما لم يكن عنده كسرة خبز من أجل أمه ولا من أجله هو نفسه ، كان يحلم بأن يجلس إلى مائدة لا نهاية لها، والتى كان سَيُدْعَى إليها الكونُ بأسره، وحيث الإنسانية التى

بُعثت ستجد لها مكانًا بالانتظار. كان يُقنع نفسه بأن الوطن بمثابة أُمٍّ صالحة ستغذى طفلها الأمين .

«جاميلان» كان يبدو متماسكًا فى مواجهة استخفافات تاجر «الرشم»، لكنه احتدم على اعتبار أن فكرته عن أوراق اللعب الثورية كانت جديدة وجيدة، وأنه برسوماته بالألوان المائية الناجحة بحق سوف يضع يده على ثروة .

« ديماهيس سوف يحفرها ، كان يعتقد ذلك . سوف ننشر نحن بأنفسنا اللعبة الوطنية الجديدة ، ونحن على يقين أننا سوف نبيع منها عشرة آلاف ، كل لعبة بعشرين سول ، فى شهر واحد » .

وفى غمرة يأسه من تحقيق هذا المشروع حَثَّ خُطاه وتوجه إلى ساحة لافيراى، حيث يقيم «ديماهيس»، فوق أحد بائعى الزجاج، وعندما دخل «البوتيك» أخبرته البائعة أن المواطن «ديماهيس» ليس موجودًا. لم يندهش الرسام، لأنه يعرف أن صديقه مُشَتَّتٌ وتائه المزاج، والذى كان يندهش من أننا نستطيع أن نحفر مثله أو أفضل ما يفعله هو مع قليل من المهارة والمثابرة .

قرر «جاميلان» أن ينتظره، فقدمت له زوجة بائع الزجاج مقعدًا . كانت نكدة المزاج ، وتشكو من سوء الحال ، وإن قيل : إن الثورة بتحطيمها للنوافذ قد أَثْرَتْ بائعى الزجاج .

أسدل الليل ستائره، ويَعْدِلُ «جاميلان» عن مواصلة انتظار صديقه، فاستأذنَ من زوجته فى الانصراف . وحينما كان يعبر « البونت – نوف »

رأى أفرادًا من الحرس الوطنى يظهرون من شارع موروفوندى على صهوات جيادهم يدفعون المارة، وكانوا يحملون المشاعل، مع صوت صلصلة السيوف ، يحرسون عربة تَسْحَبُ ببطء إلى المقصلة رجلًا لا يَعرف اسمه أحدٌ من قبل، وهو أول مَنْ حكمت عليهم محكمة الثورة(١) الجديدة . كان يظهر من خلف قبعات الحرس جالسًا، وكانت يداه مقيدتين خلف ظهره، ورأسه عاريًا، مُتَرَجِّحَ الهامة، مُحَوَّلًا إلى مؤخرة العربة . والجلاد يقف إلى جانبه متكئًا على حافة العربة .

المارَّة متوقفون، يتبادلون الحديث فيما بينهم عن هذا الشخص، ويقولون إنه ربما يكون أحد مُجَوِّعِى الشعب ، وينظرون بلا مبالاة .

وعندما اقترب «جاميلان» تعرف على «ديماهيس» من بين المتفرجين، يجتهد فى اختراق الجَمْع الغفير والوصول للموكب، فناده، ووضع يده على كتفه.. التفت إليه «ديماهيس». كان شابًّا جميلًا وقويًّا. كان يُقال عنه دائمًا فى الأكاديمية : إن له رأسًا كرأس «باكوس»، وجسدًا كجسد «هرقل»، وأصدقاؤه يسمونه «باربارو»(٢) بسبب التشابه بينه وبين ممثل هذا الشعب .

---

(١) محكمة الثورة : أسستها الجمعية الوطنية فى العاشر من مارس سنة ١٧٩٣. مقرها محكمة العدل ، وتضم أربع قضاة، واثنى عشر محلفًا، يتقاضون ١٨ فرنكًا يوميًّا. تصدر أحكامًا بدون استئناف، وتنفيذية مباشرة. صدر أول حكم بالإعدام فى السادس من أبريل ١٧٩٣ ، علاوة على خمسة آلاف حُكم، نصفهم كان أحكامًا بالإعدام . تم إلغاء نشاطها فى الحادى والثلاثين من مايو ١٧٩٥ .

(٢) باربارو محامٍ من مرسيليا ، كان يقود كتيبة من مواطنيه فى العاشر من أغسطس سنة ١٧٩٢ . مخلص للسيدة رولان . هرب إلى نورمانديا وتعرف على شارلوت كورادى . أُسِر فى بوردو. حاول الانتحار . أُعْدِم بالمقصلة فى الخامس والعشرين من يونيو ١٧٩٤ .

ـ قال له « جاميلان »: هَلُمَّ ، أريد أن أتحدث معك فى أمر مهم .

ـ أجاب « ديماهيس » بحدَّة : دَعْنى !

وتلفظ بعدَّة كلمات غير مفهومة، منتظرًا اللحظة التى ينطلق فيها :

– كنت أتعقَّب سيدة جميلة بقبعة من القش، صانعة قبعات، وشعرها الأشقر يتدلى على ظهرها.. هذه العربة الملعونة قد حالت بينى وبينها ... لقد مرت فى المقدمة، وهى الآن فى نهاية الكوبرى !

حاول « جاميلان » أن يمسك به من ملابسه ، ويقسم له أن الأمر فى غاية الأهمية ، ولكن «ديماهيس» كان قد تسرب بين الخيول والحرس والسيوف والمشاعل، وظل يطارد الفتاة صانعة القبعات .


2

2

كانت الساعة العاشرة صباحًا، وكانت شمس شهر أبريل تُنْعِش بضوئها أوراقَ الأشجار الرقيقة. وكان النسيم عليلًا بعد أن خَفَّتْ عاصفة المساء. وعلى فترات متقطعة كان يمر أحد الفرسان، على «لاليه دى فوف» (ممر الأرامل)، يكسر هدوء وصمت الوحدة. وعلى حافة الممر الوارف الظلال عند كوخ «لابيل ليلوان»، وعلى مقعد من الخشب، كان «إيفاريست» ينتظر «إيلودى»..

ومنذ أن التقت أصابعهما على قماش الإيشارب حيث اختلطت أنفاسهما، لم يأتِ إلى متجر «لامور بانتر» (مصوِّر الغرام) طوال مدة أسبوع، كبرياؤه ورباطة جأشه، وحياؤه الذى يجعله دائمًا أكثر رصانة، قد أبعدوه عن «إيلودى». وكان قد كتب إليها رسالة هامة ومبهمة وحادة، يعرض فيها شكواه وهمومه التى حَمَّلَها له المواطن «بلين»، وأخرس حبه، وأخفى آلامه، وأعلن قراره بعدم العودة إلى المحل ، وأوضح بأنه سيتبع هذا القرار بإصرار شديد ، لا تستطيع محبوبتهُ أن تؤيده فى ذلك .

وبفطرة عكسية كانت «إيلودى» مجبولة على أن تدافع عن مالها فى أى

مناسبة، فكرت فى الحال أن تستعيد صديقها. بداية ذى بدء، فكرت فى أن تذهب إليه فى مرسم ميدان «ثيونفيل»، ولكنها عرفت أن مزاجه متكدر، وحكمت عليه من خلال رسالته بأنه متفجر نفسيًّا، وخوفًا من أن يضع الابنة والأب فى غلاف واحد من الضغينة، وألا يجتهد فى رؤيتها ثانية فكرت فى شىء أفضل ، وهو أن تُحدد له موعدَ لقاءٍ عاطفيًّا ورومانسيًّا ، لا يسعه أن يرفضه أو يتملص منه، حيث سيكون لديها الوقت الكافى لكى تُقْنِعَ وتنالَ الإعجاب، وحيث الوحدة ستتواطأ معها لتفتنه وتتغلب عليه.

كان يوجد فى ذلك الوقت فى جميع الحدائق الإنجليزية، وفى جميع المتنزهات العصرية أكواخٌ بناها معماريون علماء، والتى تجتذب الميول الريفية للحضريين .

وكان كوخ «لابيل ليلواز» (ليلواز الجميلة) يشغله أحد بائعى صير الليمون يسند فقره المصطنع على أطلال مقلدة بفن لأحد البروج القديمة، حتى يجمع بين سحر القُرَى وكآبة الأطلال .. ولما لم يكتف بالتأثير على ذوى النفوس الحساسة بكوخ وبرج مهدم، أقام بائع الليمونادة مقبرةً تحت شجرة صفصاف، وعمودًا فى أعلاه جَرَّة جنائزية (مرمدة) وعليها هذا النقش : «من قليونيس إلى المخلص آزور».. أكواخ، وأطلال، ومقابر وفى اليوم السابق لهلاكها أقامت الأرستقراطية فى الحدائق الموروثة، هذه الرموز التى تعبر عن الفقر، والإلغاء، والموت .

والآن يميل الحضريون الوطنيون إلى الشرب، والرقص، فى أكواخ صناعية، وفى ظلال أطلال أروقة مزيفة، وبين مقابر مزيفة، لأن بعضهم

كان مثل البعض الآخر ، عاشقًا للطبيعة، وكتلاميذ جان جاك . وكذلك كانت لهم قلوب حساسة ومملوءة بالفلسفة .

وصل «إيفاريست» إلى مكان اللقاء قبل الساعة المحددة، وجلس ينتظر، وكان مثل بندول الساعة، يحسب الوقت بخفقات قلبه .

ومرت دورية تقود بعض المساجين، وبعد عشر دقائق ، وصلت امرأة كل ما ترتديه يتميز باللون الوردى ، وتحمل فى يدها صحبة من الزهور، يصحبها فارس يرتدى قبعة مثلثة القرون، وزيًّا أحمر اللون، وسترةً وسِرْوالًا مخططًا . دلفوا إلى الكوخ، والاثنان كانا فى أناقة أهل الحكم القديم، حيث يجب أن تصدق مع اعتقاد المواطن « بلين»، بأن للناس طباعًا لا تغيرها الثورات مطلقًا .

وبعد بضع دقائق جاءت من «رويل» أو من «سان كلود»(١) امرأة عجوز، تحمل علبة أسطوانية، ألوانها صارخة، جلست على المقعد الذى يجلس عليه «جاميلان» ينتظر . وضعت علبتها أمامها، وغطاؤها به إبرة (مؤشر) للعبة الحظ. هذه المرأة المسكينة تقدم الحظ للأطفال فى الحدائق. كانت بائعة حلوى تسمى (اللذيذة) تبيع حلوى باسم جديد، لأنه مهما كانت التسمية عريقة فى القِدَم للحلوى التى كانت تسمى المُقَمَّعة (حلوى على شكل قُمَع)، أوحت بالفكرة الملحقة عن الضحية والضريبة، والتى سببت التضجر من التقلبات، فتبدل اسمها من «المُقَمَّعة» إلى «اللذيذة» .

---

(١) « رويل » و « سان كلود » : ضاحيتان من ضواحى باريس .

بعد أن جلست البائعة العجـوز على المقعد جففت عرقها بطرف المريلة التى ترتديها، وبثت إلى السماء تذمرهـا، وقد شكت إلى الله بأنه من الظلم أن تعيش مخلوقـاته فى هذه الحيـاة القـاسية . كـان زوجهـا يجلس على شــاطىء النهر فى «ســان كلود» ممسكًا بصنَّارته، وهى تذهب يوميًّـا إلى «الشـــانزيليـــزيــه»، تنادى على الحلوى : « ها هى ذى حلـوى اللذيذة ، سيداتى!»، ومن كل هذا العمل لا تجنى شيئًا يُساند شيخوختهم .

ولَمَّا أدركت أن جليسهـا الشـــاب مستعـدٌّ لسماع شكواها عـــرضت بإسـهــاب سبب آلامهــا : إنها «الجمهـوية» التى سلبت أمـوالَ الأغنيـاء، وانتـزعت لقمة الخبـز من فم الفقـراء، وليس هناك بادرة أمل فى تحسين الأحـوال. فهى تعلم – وفقًـا لدلائـل كثيرة – أن الأمـور تتفـاقم وتزداد سوءًا، ففى «نانتر» وضعت امـرأة طفلًا برأس أفعى، وفى «رويل» سقطت صاعقة على برج الكنيسة، فشقت صليب برج الأجراس، وفى غابة «شافى» ظهـر غول ذئبـى، وهناك رجال مقنعـون يسَمِّمـون المنابع، ويذرون فى الهواء مساحيق تسبب الأمراض...

ويَرَى «إيفاريست» «إيلودى» تقفز من العـربة، فيجرى نحوها. كانت عيون الشابة تتألق فى ظل قبعتها الشفافـة، وشفتاها الحمراوان كانتا فى لون القـرنفل الذى تحمله معهـا، كـــانا يبتسمان. كـانت تضع إيشـاربًا حريريًّـا أسودَ اللون على صدرهـا وتعقده على ظَهرها. وثـوبها الأصفر كان يكشف عن حـركة ركبتيها السريعتين، وكانت تغطى قـدميها بحذاء مسطح بدون كعب، وكانت الثورة القامة بالنسبة إلى المواطنات،

لذلك كـانت التنورة (الجيب) منتفخـة عند الخاصرة، تخفى الأشكال مع المبالغة فيها، وتحجب الحقيقة تحت صورتها المكبرة .

وحين أراد أن يتكلم هربت منـه الكلمات، ووجَّـه اللَّوْمَ بهذا الحرج إلى أن «إيلودى» تفضل استقبـالا أحلى من هذا. وهى لاحظت أيضًـا أنه يعبر عن ذلك برباط عنق، يعقد ربطته بطريقة فنية غير عادية .

مدت يدها إليه ، وقالت :

– كنـت أريـد رؤيتـك لأتجاذب مـع أطـراف الحديـث . لم أردَّ على رسالتك، لأنها لم تعجبنى ، لم أعثـر عليكَ بين سطورها . كان من الممكن أن تكون أكثـر توددًا لو أنها كـانت أكثـر واقعيـة ، وليس من شِيمَتك أو طَبعك أن تعتقد أنك لن تعـود إلى المتجر (لامـور بانتر) لمجرد أنك خُضت مُشادَّة حادَّة قليلًا فى السياسة مع رجل يكبرك سنًّا . كُنْ على يقين أنك لن تَلْقَى من والدى إلّا الترحيب بك عندما تعـود إلينا ، فأنت لا تعرفه ، وهـو لا يتـذكـر مـاذا قـال لك، ولا بماذا أنت أجبتـه . أنا لا أؤكـد أنه يوجـد استلطاف كبير بينكما، ولكنكما بدون ضغـائن . أقول لك ذلك بصراحـة، فهـو لا يهتم كثيرًا ، لا بك ، ولا بى أنـا أيضًـا ، ولا يفكر إلَّا فى أعماله وفى ملذَّاته .

اتجهت نحـو أَيْكَة الكوخ، واتبعهـا وعلى مَضَضٍ، لأنه كان يعـرف أن هذا اللقـاء، هـو لقـاء الحب المأجـور ، وعبـارات الهَوَى العـابر . ووقع اختيارها على إحدى الطاولات البعيدة عن الأنظار .

– كم من أشياء أريد أن أقولها لك يا «إيفاريست»! إنَّ للصداقة حقوقًا

علينا. هل تسمح لى بأن استخدم هذه الحقوق ؟ سأحدثك عن نفسك كثيرًا .... وقليلًا عنى، إذا وافقتَ على ذلك .

جاء بائع عصير الليمون يحمل دروقًا وأكوابًا، أفرغت بنفسها لتشرب، كربَّة بيت جيدة، ثم قصت عليه عن طفولتها، حدثته عن أمها وجمالها، والتى كانت تفخر به، وبالبِرِّ البَنَوِىِّ، ذلك أنه أصل جمالها، كانت تمدح جدها وجدتها لقوتهما، وكانت تفخر بدمائها البورجوازية .

وقصت عليه كيف أنها فقدت هذه الأُمَّ الحنون وهى فى السادسة عشرة من عمرها، وأمضت حياتها بعد وفاتها بدون حنانٍ أو سَنَد، ووصفت نفسها كما هى : نشيطة، حساسة، شجاعة ، وأضافت :

– أى «إيفاريست»، لقد أمضيتُ شبابًا كئيبًا، وفى وحشة، من أجل ألَّا أعرف قيمة قلب مثل قلبك، ولَمْ أنكر نفسى – وبدون جهد – صارحتك، بطريقة ودية والتى أستطيع أن أعتمد عليها ، وهى عزيزة لَدَىَّ .

كان « إيفاريست » ينظر إليها بحنان ، وقال :

– هل يمكن يا «إيلودى» ألَّا أُبالى بِكِ ؟ أيمكننى أن أَصْدُقَ ؟.... توقف عن الكلام خوفًا من أن يتحدث كثيرًا، ويفسد بذلك صداقة حميمة .

مدتْ إليه يدًا صغيرة وشريفة، تخرج حتى منتصفها من أكمامٍ طويلة وضيقة مزينه بالدانتيل، ويرتفع صدرها فى تنهيدات طويلة .

– امنحنى يا «إيفاريست»، جميع الإحساسات التى تريد أن أحسها نحوك، ولن تنخدع أبدًا فيما يشعر به قلبى نحوك.

– إيلودى ، إيلودى، كل ما قُلْتِهِ الآن سوف تكررينه أيضًا عندما تعرفين... ثم تَرَدَّدَ .

وتخفض هى عينيها مُطْرِقَةً .

أما هو فقال بصوت خافت :

– « ... إنى أحبك ! » .

وعندما سمعت هذه الكلمات الأخيرة احمرَّ وجهها سرورًا.. وبينما كانت عيناها تعبران عن شعور بلذة رقيقة رغما عنها، ارتسمت ابتسامة هزلية على جانب شفتيها ، وقالت فى نفسها : « ويعتقد أنه هو الذى صَرَّحَ أولا ! وربما يخشى أن يكون قد ضايقنى !.....».

وقالت له برفق :

ـ ألم تفهم إذَنْ أننى كنتُ أحبك يا صديقى ؟

لم يكونا يشعران بأحد ممن حولهما وكانا يظنان أنهما بمفردهما فى العالم . «إيفاريست» فى أوج نشوته يرفع عينيه نحو السماء المتلألئة بالزرقة اللازوردية ويقول :

– انظرى ! السماء تشاهدنا ! إنها فاتنة وعطوفة مثلك ، مثلك أنتِ يا حبيبتى الغالية، إن لها إشراقتك، ورقَّتك، وابتسامتك .

كان يشعر بأنه هو والطبيعة شخص واحد، وأشركها فى بهجته، وفى مجده. ويرى بعينيه – للاحتفال بهذه الخطوبة – زهورَ أشجار القسطل تضىء كأنها شمعدانات ، وشعلات الصفصاف الضخمة تشتعل .

كان متمتعًا بقوته وبعظمته . وهى أكثر حنانًا، وأكثر رقة، وأكثر مرونة، وليِّنة العريكة. كانت تتظاهر بالضعف، وفى الحال بعد أن انتصرت عليه، خضعت له، والآن، وقد وضعته تحت هيمنتها، فعرفت فيه السيد، والبطل، والرَّبّ ، تُغدِق فى الطاعة، والإعجاب ، وعَرْض نفسها.

وفى ظلال الخميلة قَبَّلَهَا قبلة ملتهبة طويلة ، أدارت برأسها، وفى أحضان «إيفاريست» شعرت بأن جسدها يذوب كالشمع.. تناولا حديثًا طويلاً عن نَفْسَيْهِما، ونَسِيَا الكون من حولهما. «إيفاريست» عبَّر عن أفكار صافية وفضفاضة ألقت بإيلودى فى أعماق النشوة . و«إيلودى» تحدثت عن أشياء حلوة نافعة، وخصوصية. وبعد ذلك عندما لاحظت أنها لا تستطيع أن تتأخر أكثر من ذلك، نهضت وقد قررت الانصراف، وأعطت إلى صاحبها القرنفلات الثلاث الحمراء المتفتحة على نافذتها، وقفزت بخفة ورشاقة فى العربة التى كانت قد اصطحبتها. كانت عبارة عن عربة بمقعد واحد، صفراء اللون، عالية العجلتين، ولا يوجد بها شىء غير عادى سوى الحوذى . ولكن «جاميلان» لم يستقل عربة، ولم يفكر مطلقًا فى أن يقترب منها. وعندما يراها بعجلتيها المرتفعتين والسريعتين يشعر بانقباض قلبه، ويشعر بأن إحساسًا أليمًا سوف يصيبه. نوع من الوهم الذهنى، كان يبدو له أن جوادَ الكرَّاء يحمل «إيلودى» إلى ما وراء الأحداث الحالية والزمن الحاضر، إلى مدينة ثرية ومبتهجة، إلى مقرات الرفاهية والملذات حيث لن يطأها أبدًا .

اختفت العربة، وتبددت مخاوف «إيفاريست»، ولكنْ بقى له قلق

غامض، وكان يشعـر بأن أوقات الحنان والنسيان التى عـاشها لِتَوِّه لن يعيشها ثانية أبدًا .

وفى عودته ، مرَّ على «الشانزيليزيه»، حيث كانت توجد نساء بملابس فاتحة اللون، جالســات على مقاعد من الخشب، يُحِكْنَ أو يُطرزن، فى حين يلعب أطفالهن تحت الأشجار. وبائعـة حلوى «اللذيذة» تحمل صندوقها على شكل طبلة، ذَكَّرَتْهُ ببائعة الحلـوى نفسها عند «لاليه دى فوف»، وبدا له كَأَنَّ عمـرًا قـد انصرم مـن حيـاته بين هـذين اللقـاءين. عبَر ميـدان «لاريفوليسيون»، وفى حديقة «التويليرى» سمع من بعيد ضوضاءَ هائلةً لأيام الأعياد، هذه الأصوات المجمعـة التى يزعم أعداء الثورة أنها صمتت للأبد. حثَّ «إيفاريست» خُطاه نحو الجلبـة التى تتزايد، وصل إلى شارع «هونورية»، وجـده مُغَطًّى بجمع غفيرٍ من الناس، من الرجـال والنسـاء، يهتفون : « تحيا الجمهورية ! تحيا الحرية !».

كانت أسـوار الحدائق والنوافذ والشرفـات والأسطح مملؤة جميعها بالمتفـرجين، يلوحون بالقبعـات والمناديل، وكان المركب مسبـوقًا بأحـد النقَّـابين، والذى كان يفسح الطريـق للموكب، ومحاطًا بضبـاط المجلس البلدى ، والحرس الوطنى، والمدفعيِّين، وشُرطة الـدَّرَك، وحَمَلَة الأعـلام . وكـان يتقدم ببطء – على رأس المواطنين – رَجُـلٌ شاحب البشرة، يُتَـوِّج جبهته تاجٌ من البلّوط، وجسده ملفـوف فى ثوب لاويَّة قديم أخضر اللون، وياقته من فَـرْوِ حيوان «القَـاقم». كانت النســاء تقذفه بـالزهور، وكان يجول بنظره فى كل ما حوله ، بنظرات ثاقبة من عينيه الصفراوين، كما لو

كان يبحث فى هذا الجمع الغفير عن المزيد من أعداء الشعب ليُبلغ عنهم، أو عن خونة ليُعاقبهم .

وفى طريقه كان «جاميلان» عَارِىَ الرأس، واختلطَ صوته مع ألف صوت هاتفًا :

ـ يعيش « مارات » !

دخل المنتصر إلى قاعة الجمعية الوطنية كالقدر ، فى حين الجَمْعُ الغفير يزحف ببطء . جَلَسَ «جاميلان» على حافة الطريق (طريق هونورية) واضعًا يده على قلبه ليحسب دقاته . إنَّ ما رآه الآن قد أثلج صدره وملأه بشعور عظيم، وحماس مُتَّقِد .

«إيفاريست» يحترم «مارات»، ويُكِنُّ له شعورًا بالمَعَزَّة، و «مارات» مريض، النار تسرى فى وَتِينِه، والتقرحات تنهشه، استنفذ مِمَّا تبقَّى من قواه فى خدمة الجمهورية، وفى منزله الفقير - المفتوح للجميع - يستقبل من يقصده وهو مفتوح الذراعين مُرَحِّبًا به، وأحيانًا يسأله عن مخططات الفاسقين الأشرار .

إنه معجب بأن أعداء الحق - وهم يتآمرون على هلاكه - قد أعدوا انتصاره، وكان يبارك محكمة الثورة التى برَّأَتْ صديق الشعب، وقدمت إلى الجمعية الوطنية أكثر المشرعين حماسًا ونقاءً .

كانت عيناه تشاهدان هذا الرأس الذى تُلهبه الْحُمَّى مُكَلَّلًا بتاج الوطنية، وهذا الوجه الذى تعلوه سماتُ الكبرياءِ وحُبٌّ لا يرحم، وهذا

الوجه المشوه الذى يفتك به المرض كان يراه قويًّا .. وهذا الفم المتقلص، وهذا الصدر العريض ، وهذا المحتضر العيد الذى يلوح من فوق العربة بانتصاره، كأنه يقول إلى مواطنيه : «كونوا مثلى ، واحذوا حذوى أيها الوطنيون حتى الموت » .

أصبح الطريق موحشًا ، وغشيه الليل بظلامه ، وجاء مُشْعِلُ الشموع بفانوسه و « جاميلان » يتمتم :

– حتى الموت ! .....

* * *

فى الساعة التاسعة صباحًا وجد «إيفاريست» «إيلودى» فى انتظاره على أحد المقاعد فى حديقة لوكسمبورج. مضى على تبادلهما اعترافات حبهما شَهْرٌ، كانا يتقابلان يوميًّا فى متجر «لامور بانتر» أو فى مرسم ميدان «تيونفيل» بكل وُدٍّ، وبتحفظ تُضفيه على علاقتهما الوثيقة أخلاقُ حبيبٍ جاد وفاضل، مُوَحِّد بالله، ومواطن صالح، وهو على أتم استعداد أن يتزوج عشيقته أمام القانون أو أمام الله وحده، حسب الظروف، ولا يريد أن يفعل ذلك إلَّا فى وضح النهار ، وأمام الجميع .

وتعترف «إيلودى» بأن ذلك هو الحل الأشرف، ولكن يأسًا من زواج يجعل كل شىء مستحيلًا، وترفض مخالفة التقاليد الاجتماعية، فهى تواجه بداخلها، فى نفسها، ارتباطًا يجعله الكتمان آثمًا، إلى أن تجعله الاستمرارية محترمًا . كانت تعتقد أنها فى يوم من الأيام ستتغلب على

وســاوس عاشق مجبــول على الاحترام، ولم تكن تريد أن تؤجل توضيح بعض الأمــور الهامة، لذلــك طلبت منه ساعــة لتتحــدث معه فى الحديقــة الخالية من الزوار ، بالقرب من دير «الشارترو».

نظرت إليــه بحنان وإخلاص، وأخــذت يده بين يديها، ثم أجلستــه إلى جانبها ، وحدثته بخشوع :

- «إيفـــاريست»، لا أريد أن أخفى عنك شيئًا، لأنــى أُقـدِّرك تقـــديرًا عظيمًا، وأعتقد أننى جديرة بك، ولن أكــون كذلك إنْ لم أقل لك كل شىء. اسمعْنى واحكُمْ علىَّ، فأنا لا أوجه اللوم إلى نفس لعملٍ حقيرٍ أو دنىء، أو حتى مهم فقط ... لا تصرف النظر يا صــديقى عن الظروف الصعبة التى نشأت فيها، أنت تعرف ذلك، لا أُمَّ لى، وأبى لا يزال صغيرًا ولا يفكر إلَّا فى مسرَّاتِه، ولا يهتم بى. كنت حساسة، وهبتنى الطبيعة قلبًا حنونًا ونفسًا كــريمة، ومع أنها لم ترفض لى حكمًا حــاسمًا وصحيحًــا، فإن العاطفــة غلَّبته عندى على العقل .

واأسفـــاه ! فلــسوف تُغلِّبه اليـــوم أيضًــا ، إذا لــم يتفـــق الاثنــان ، يا «إيفاريست» على أن يُزَوِّجانى لك ، وللأبد !

هكذا عبَّــرتْ بما يجيش فى نفسها بحزم وفطنــة . كانت كلماتها مرَتَّبة ومُعَـدَّةً، ومنذ وقت طويل قررت أن تعترف، لأنها كــانت صريحة، ولأنـها كانت تحب أن تقلد «جان جاك»، ولأنـها كانت تقول فى نفسها بتعقل :

«إيفاريست سيعرف يومًا ما أسرارًا، لست أنا الوحيدة المؤتمنة عليها،

فمن الأفضل أن أُقَدِّمَ اعترافًا تكون صراحته مديحًا لى، وإخباره بما لو عَرَفه ذات يوم يكون عرفانه لى خزيًا ».

كانت حنونة ووديعة بالطبيعة، لذا لم تكن تشعر بأنها ارتكبت ذنبًا كبيرًا، وأن اعترافها كان أقل مشقة، بالإضافة إلى أنها اهتمت بألَّا تقول إلا الضرورى.

– آه!.. (قالتها وهى تتنهد) : لِمَ لَمْ تأتِ إلىَّ يا «إيفاريست» العزيز وأنا وحيدة ومُهْمَلَةٌ ؟..

«جاميلان» اعتبر طلبها بأن يكون قاضيًا لها طلبًا صريحًا، ولَمَّا كان تكوينه الطبيعى وتعليمه الأدبى فى ممارسته للعدالة الاجتماعية يُهيئانه لذلك فقد استعد لسماع اعترافات «إيلودى». ولَمَّا رآها مترددة ، أومأ إليها أن تتكلم .

فقالت بلا تَصَنُّع :

– كان هناك شاب ، كانت له من بين صفاته السيئة صفات حميدة، ولم يكن يبدى إلَّاها. لاَحَظَ عندى بعض الجاذبية، وأبدى نحوى اهتمامًا ملحوظًا يثير الدهشة بالنسبة إليه .. كان فى ريعان شبابه، وتبدو عليه مظاهر النعمة، وعلى علاقة بسيدات ساحرات، لا يُنكرن أبدًا أنهن يعبدنه.

ولم يكن اهتمامى به لجماله أو لروحه ... لقد استطاع أن يُؤَثِّرَ فِىَّ عندما أبدى لى حبه، وصدقتُ أنه كان يحبنى فعلًا .. كان حنونًا، مُلاطفًا. لم أطلب منه أى ارتباطات إلَّا بقلبه، وكان قلبه متقلبًا ... ولا ألوم إلَّا

نفسى.. هذا هو اعترافى وليس اعترافه، أنا لا أشكو منه ما دام قد أصبح غريبًا عنى. آه ! أقسم لك يا «إيفاريست» إنه الآن بالنسبة لى كأنه لم يكن!

وصمتتْ.. أَمَّا «جاميلان» فإنه لم يُحر جوابًا، وعقد ذراعيه، وكانت نظراته ثابتة وغامضة. وكان يفكر فى آنٍ واحد فى معشوقته وفى شقيقته «جولى».. و«جولى» هى أيضًا كانت قد صدقت عاشقًا، ولكنه يعتقد أن شقيقته كانت تختلف عن البائسة «إيلودى»، كانت قد انتبذت بنفسها، ليس لخطإٍ فى قلب حساسٍ، ولكن لكى تجد - بعيدًا عن ذويها - الرفاهية والمتعة .

ومن قسوته أدان شقيقته ، وينزع إلى إدانة معشوقته . وَاسْتطردت «إيلودى» بصوت كله حلاوة :

- «كنت متشربة بالفلسفة، وكنت أعتقد أن الرجال أشراف بالطبيعة، وكان من سوء حظى أن أقابل حبيبًا لم يكن قد تلقى تكوينه فى مدرسة الطبيعة والأخلاق، وأن المعتقدات الاجتماعية والطموح والكبرياء ونخوة مزيفة صنعتْ أنانيًّا ونذلاً ».

وقد أسفرت هذه الكلمات المحسوبة عن النتيجة المطلوبة .

هدأت نظرات «جاميلان» وسأل :

- من كان خادعك هذا ؟ هل أعرفه ؟

- أنت لا تعرفه .

- اذكرى لى اسمه .

كانت «إيلودى» تتوقع هذا السؤال ، وكـانت قد عقدت العزم على عدم الاستجابة لرغبته ، فقالت :

ـ اعفنى أرجوك، فإننى بالنسبة إليك وبالنسبة لى قد قلت عنه الكثير.

ولما كان « إيفاريست » يصر على طلبه قالت :

– من أجل صالح حبنا المقدس لن أخبرَك بشىء يطبع فى خاطرك هذا... الغريب، لا أريد أن أُلقى بشبحٍ إلى غَيْرَتِك، ولا أريد أن ألقى بظلال مزعجة بينى وبينك، لقد نسيتُ هذا الرجل ولا أريد أن أُعرِّفك عليه .

ضغط عليها «جاميلان» بأن تذكر له اسم هذا المخادع، وكان يستعمل هذا المصطلح بإصرار ، لأنه لا يشك فى أن «إيلودى» أُغْويَتْ وخُدِعَتْ وغُرِّرَ بها ، .. لم يكن يدرك أن يكون الأمر بوجه آخر، وأنها قد تكون لبَّت الرغبة، الرغبة التى لا تُقاوَم، واستمعت إلى النصائح الحميمة الجميلة، قد قَدَّمت نفسها، كان مقتنعًا أن إنسانة فى ذكائها وعبقريتها تُؤخذ عُنوة أو بالحيلة ، أى تُغتصب، وتهوى فى شراكٍ منصوبة تحت قدميها .. وقد وجه إليها أسئلة بحساب فى العلاقات، ولكنها موجزة ومقتضبة، ومُكدِّرة .. سألها كيف تكونت هذه العلاقة، وعَمَّا إذا كانت مدتها طويلة أو قصيرة، هادئة أو مضطربة، وبأى طريقة انفصمت.. وكان يعود دائمًا إلى الوسائل التى استخدمها هذا الرجل ليُغرِّر بها، وعما إذا كان استخدم منها ما هو غريب أو خارق للعادة.. كل هذه الأسئلة جعلها هباءً .

وبإصرار رقيق التزمت الصَّمْتَ، وأطبقتْ فمَها، وعيناها مغرورقتان

بالدموع.. ومع ذلك، فعندمـــا سَـألَها «إيفاريست» : أين الآن هذا الرجل ؟ أجابت :

ـ لقد غادر المملكة .

واستطردت بحماس :

ـ ... فرنسا .

صاح « جاميلان » :

ـ مهاجر !

فتنظر إليه صامتةً وآسفة فى آن واحد، كانت مطمئنة وحزينة لأن تراه هو نفسه يختلق حقيقــة مطابقة لعواطفه السيــاسية، ويضفى على غَيْرَته لونًا يعقوبيًّا بدون داعٍ .

فى الواقع كان عاشق «إيلودى» كاتبًا صغيرًا للنائب العام، وكان غلامًا وسيمًا جدًّا، وكـانت «إيلودى» تعبده ، حتى أن ذكـراه بعد ثلاث سنوات قد ألهبت الحرارة فى صدرها، كان يبحث عن السيدات الثريَّات والمُسِنَّات، فترك «إيلودى» من أجل امـرأة متمـرسة تكافئه حســب قدراته، بعـد أن أُلغيت الإدارات، ودخـل بـلديــــة بــاريس، والآن أصبـح جنـدىٌّ خيالٍ لا متسرول، وعاشقًا لامرأة من صواحب الألقاب فى العهد السابق.

ويقول « جاميلان » مُكَرِّرًا :

– أحد النبلاء! وقد هَجَركِ بكلِّ نذالة !... فلتحترس جيدًا، إنها لا تتمنى أبدًا أن يعرف كل الحقيقة .

وتحنى رأسَها .. ويَضُمُّها إلى صدره ويقول :

- عزيزتى ضحية الفساد الملكى ، إنَّ حبى سينتقم لك من هذا الوقِح، والسماء قادرة على أن تُلاقينى به ! وسوف أتمكن من معرفته !

أدارت رأسها مغتمة ومبتسمة ومخدوعة، كل ذلك معًا . كانت تريده أكثر ذكاءً فى أمور الحب، وأكثر طبيعة، وأكثر قسوة .

شعرت أنه لم يسامح سريعًا إلا لأن خياله فاتر، وأن الثقة التى أولته إياها الآن لم توقظ فيه أى صورة من هذه الصور التى تُعَذِّبُ محبى اللَّذَّات، وأنه أخيرًا لم يجد فى هذا التغرير إِلَّا حَدَثًا أخلاقيًّا واجتماعيًّا.

نهضا من جلستهما وسَارَا فى الممرات الخضراء فى الحديقة. وقال لها إنه يُقَدِّر تألم المرء. و«إيلودى» لم تسأله أكثر، ولكن أحبته كما هو، وأُعجبت بعبقريته الفنية التى رأتها تتألق فيه. وعند خروجهما من «لوكسمبورج» قابَلَا جمهرة صاخبة فى شارع «الإيجاليتية» (المساواة) وحول مسرح الأمة، ولم يكن ذلك ليُثِير دهشتهما، فمنذ بضعة أيام سادت موجة من الهياج فى أكثر القطاعات وطنية، تندد بحزب «أورليانز» وشركاء «بريسو»، الذين - كما يقال عنهم - يُدبِّرون لتخريب باريس، وذبح الجمهوريين. وكان «جاميلان» قد صَدَّقَ من قبل على عريضة مجلس العموم التى كانت تطالب باستبعاد الواحد والعشرين .

وبالقرب من المرور تحت البواكى التى تربط المسرح بالمنزل المجاور كان عليهما أن يَمُرَّا بمجموعة من المواطنين يرتدون «الكارمنيولات»،

وكان أحد الجنود يخطب ويعظ فيهم من أعلى الممر، جندى جميل وسيم، مثل «حبَ براكسيتيل»(١) بخوذته المصنوعة من جلد الفهد .

هذا الجندى الوسيم يتهم صديق الشعب باللامبالاة، وكان يقول :

– أنت نائم يا «مارات» والفيدراليون يُكبلوننا بالحديد ! ولم تكد «إيلودى» تتجه بنظرها إليه حتى قالت بِجِدَّةٍ :

– هلُمَّ إلىَّ يا «إيفاريست» !

إنَّ الجَمْعَ الغفير هذا يخيفها، وتخشى أن تسقط فاقدة الوعى وسط الزحام . وافترقا فى ميدان «لاناسيون»، وقد تعهدا بحب أزلى .

وفى ساعة مبكرة من هذا الصباح، قدَّم المواطن «بروتو» إلى المواطنة «جاميلان» هدية جميلة، عبارة عن طائر مُسَمَّن، ولم يكن من ناحيته حذرًا، بأن صرح لها كيف حصل عليه، لأنه أخذها من سيدة من سيدات السوق الكبير ، أحيانًا كان يعمل سكرتيرًا لها، والمعروف أن سيدات السوق الكبير كُنَّ ذوات مشاعر ملكية، ويُراسلن المهاجرين. وتأخذ المواطنة «جاميلان» الطائر المُسمَّن بقلب راضٍ. ومن الصعب الحصول على مثله فى ذلك الوقت، فقد كان غلاء المواد الغذائية فى زيادة مستمرة، وكان الشعب يخشى المجاعة، ويُقال إن الأراستقراطيين كانوا يتمنونها، والمُحتكرون يُجهّزون لها .

كان المواطن «بروتو» مدعوًّا على تناول نصيبه من الطائر المُسمَّن على

---

(١) براكسيتيل : نحَّات يونانى مشهور . ولد حوالى سنة ٣٦٠ ق . م .

وجبة الظهر، وتوجَّه مُلبيًا هذه الدعوة، وهنأ مضيفته على رائحة الطعام المنبعثة شهية من مطبخها. وفى الحقيقة شَمَّ الرسام رائحة الحساء الشهية. فأجَابته السيدة الطيبة قائلة :

– إنكَ كريم بالفعل يا سيدى، وقد أردتُ إعداد معدتنا لاستقبال لحم طائرك الذى أهديته لنا، فقد صنعتُ حساءً بالأعشاب، مع شريحة دهن الخنزير، مع عظمة عجلٍ ضخمة. فما من شىء له طعم ونكهة جميلة للحساء مثل قطعة عظم بالنخاع .

أجاب « بروتو » :

– هذه الحكمة تستحق المديح أيتها المواطنة ، ويكون من الأفضل أن تضيفى غدًا – وبعد غد ، وبقية الأسبوع كله – قطعة العظم الثمينة هذه فى إناء الطهى، فهى لن تتوقف أبدًا عن إضافة الرائحة الجميلة للطعام . وقديمًا كانت عرَّافة «بانزوست» لها طريقة هكذا : كانت تعد حساء الكرنب الأخضر مع شريحة من شحم الخنزير الأصفر، وعظمه نخاعية تسمى «سافورا دوس » وكانت لذيذة الطعم، طيبة المذاق والرائحة، وذات عُصارة كثيرة .

قالت المواطنة «جاميلان» :

– هذه السيدة التى تتحدث عنها يا سيدى ألم تكن حريصة أو شحيحة قليلًا حتى تستخدم لفترة طويلة نفس العظمة ؟

أجاب بروتو :

– كانت تحيا حياة صعبة ، وكانت فقيرة، مع أنها رسولية .

فى هذه اللحظة، عـاد «إيفاريست جـاميلان» متأثرًا بالاعترافات التى سمعها لتـوِّه، وقطع على نفسه عهـدًا بأن يعـرف الذى غَـرَّرَ بإيلودى، لينتقم فى نفس الوقت للجمهورية ولحبه .. وبعد المقدمات اللطيفة العادية، بدأ المواطن «بروتو» الحديث :

– من النادر أن هؤلاء الذين يحترفـون الكهانة بأنهم سـوف يغتنون مستقبـلا ، فسرعـان مـا يظهـر غشهم، وهذا الغش يجعل الجميع يُبغضـونهم. ولكن لابد من مقتهم أكثر إذا تَنَبَّئُوا حقيقـة بالمستقبل، لأن حياة المرء سوف تصبح غير محتملة إذا كـان يعرف ما سوف يحدث له، سوف يكتشف آلامًا مستقبلية يتألم منها مقدمًا، ولن يتمتع – علاوة على ذلك – بالمنافع القـائمـة ، والتى قـد يرى نهايتهـا . والجهل هو الشرط الأساسى لسعـادة الناس، ويجب الاعتراف بأنهم يضطلعون به فى معظم الأحيان، فنحن نجهل كل شىء تقريبًا عن أنفسنا ، وعن الغير ، كل شىء. الجهل يصنع هدوءنا ، والكذب لنا به هناء وسعادة .

وضعت المواطنة «جـاميـلان» الحساءَ على المائـدة وهى تتلو صـلاة المائدة، وأجلست ابنها وضيفها ، وبدأت تـأكل وهى واقفة، رافضة المقعد الذى قـدمه لها « بروتو » بالقـرب منه ، لأنها تعرف – كما تقـول – ماذا تتطلَّبُ منها اللياقة والإكرام .

* * *

الساعة العـاشرة صباحًا ، الجو ثقيل ولا توجد به نسمـة هواء . كان شـهر يوليـو من أشد الشـهور التى عرفناها حـرارة، وفى شارع أورشليم الضيق، حـوالى مـائـة مـواطن من القطاع يقفـون طابورًا أمـام المخبـز، ويُراقبهم أربعـة من الحرس الوطنى الذين يدخنون «الغليون»، راكـزين سلاحهم فى الأرض .

وكانت الجمعية الوطنية أصدرت مرسومًا ببالحد الأقصى للأسعار، وفى الحال اختفت الحبوب واختفى الدقيق . فصار الفـرنسيون ينهضون مبكرين قبل بزوغ النهـار إذا أرادوا الحصـول على طعام، وكما كـان بنو إسرائيل يصنعـون فى التيـه. وكـان كل هؤلاء الناس، يتـزاحمون ويدفع بعضـهم البعض الآخـر من رجال ونسـاء وأطفال فى جو شـديد الحرارة مثل الرصـاص المنصهـر، يجفف بعض الجداول، ويُثير روائح العـرق والقـذارة. الناس يتدافعـون بشـدة ويتنادون، وينظر بعضـهم إلى بعض بجميع الإحساسات التى يستطيع بنو الإنسان أن يُعبروا بها عن أنفسـهم للآخرين، مثل النفور والاشمئزاز، والرغبة، وعدم الاكتراث واللامبالاة . وكـان معروفًـا أنه لا يوجد خبـز لكل الناس، وذلك بالخبرة المؤلمة، حتى الذين يصلون متأخـرين يحاولون أن يتسربوا فى المقدمـة، وهؤلاء الذين يفقدون أماكنهم فى الصف يتشاكـون ويغتاظون، ويطالبون بحقهم الذى لا يحترمه الآخرون ، ولكن بدون جـدوى. والنسـاء يحاولن بكل وسيلة، بمـرافقهن وظهـورهن ليُحـافظـن على أمـاكنهن، أو ليحصلن على مكان أفضل. وإذا زاد التـزاحـم إلى درجـة الاختناق تتصـاعـد الصيحـات : «لاتتدافعوا ! » وكل شخص يُعْتَرَضُ يَحْتَجُّ بأنه دُفِعَ :

ومن أجل تجنيب هذه الفوضى اليومية رَأَى المفتشون الذين أوفدهم القطاع، أن يربطوا حبلًا على باب المخبز، ليقف كل شخص فى مكانه فى الصف بأن يمسك به، ولكن الأيادى القريبة جدًّا من بعضها تتلاقى على الحبل وتدخل فى صراع، ومن يترك الحبل لا يستطيع أن يمسكه مرة أخرى ، والرافضون والساخرون كانوا يقطعونه ، فكان لابد أن يَعْدِلوا عن هذه الفكرة .

فى هذا «الطابور» يعتقد المرء أنه سيختنق وسيموت، وتُطلق النكات، وتُطلق كلمات فاحشة، وشتائم قذائف من السباب موجهة للأرستقراطيين وإلى الفيدراليين الذين صنعوا كل هذا الشر . وإذا مر كلب، يطلق عليه بعض الساخرين اسم «بيت»، وأحيانًا تسمع فرقعة صفعة قوية من يد مواطنة على وجه أحد الأنذال، فى حين تتنهَّد خادمة شابة يدفعها جارها، وعيناها شبه مقفولتين، وثغرها شبه منفرج، وتتنفس بليونة واسترخاء. كانت كل كلمة وكل حركة لكل موقف خاص كفيلة بإيقاظ المزاج الفاجر عند المحبين الفرنسيين. وبدأت مجموعة من الشباب الفاسق ينشدون: «لا ضَيْرَ، ستتحسن الأحوال»، بالرغم من اعتراضات أحد اليعقوبيين المُسِنِّين، كان ناقمًا على مايشين من مراوغات قذرة .. كان هذا النشيد عبارة تتردد تُعبِّر عن العقيدة الجمهورية فى مستقبلٍ يتسم بالعدل والسعادة .

وجاء أحد عمال لصق الإعلانات يحمل سُلَّمه تحت إبطه ليلصق إعلانًا على الحائط فى مواجهة المخبز، من مجلس العموم يُقَنِّن لحوم

الجزارة. توقف بعض المارة لقراءة الإعلان الذى لا يزال مبللًا بالصمغ. إحدى بائعات الكرنب تحمل سلتها على ظهرها، وأخذت تقول بصوتها الخشن المرتعش :

– لقد ذهبت العجول السمينة ! فعلينا بالمصارين. وفجأة تصاعدت رائحة كريهة من إحدى مواسير المجارى، حيث تأثر الكثيرون من الرائحة التى تسد الأنوف. إحدى السيدات ساءت حالتها وأُغمى عليها، وحملها اثنان من الحرس الوطنى بضع خطوات بعيدًا تحت إحدى المضخات .

كان الجميع يسدون أنوفهم، وانطلقت الإشاعات، وتبادلَ الجميع الأحاديث التى يملؤها القلق والخوف .. كانوا يتساءلون فيما بينهم عَمَّا إذا كان حيوان مدفون هناك، أو وُضِعَ سُمٌّ فيها بسوء نية، أو أن أحد قَتْلَى سبتمبر – نبيلًا كان أو كاهنًا – قد نُسِىَ فى كهف أو سرداب مجاور .

- إذَنْ وُضِعَ شىء من ذلك هناك ؟

● لقد وضعوا شيئًا من ذلك فى كل مكان !

– لابد أن يكون أحد هؤلاء من شاتيليه(١) . وقد رأيتُ فى الثانى من سبتمبر ثلاثمائة منهم مُكَدَّسين على « الكوبرى » عند التغيير .

كان الفرنسيون يخشون انتقام هؤلاء الأعداء أنصار العهد السابق من أن يكونوا قد سمَّموهم.

---

(١) مدينة فرنسية .

وصل «إيفاريست جاميلان» واتخذ مكانه من الصف، كان يريد أن يُجنِّب والدته آلام الوقفة الطويلة . وكان يرافقه جاره المواطن «بروتو» هادئًا مبتسمًا، ويحمل معه كتاب «لوكريس» فى جيب معطفه الأسود اللون والمائل إلى الحمرة . وقد مدح العجوز الطيب هذا المشهد، كأنه لوحة مضحكة للرسام الإيطالى «بامبوكيو» أو بريشة تينييه[1] العصرى . قال «بروتو» :

– هؤلاء العتالون، وهؤلاء الثرثارات، ألطف من اليونانيين والرومان الذين يعتز بهم رسامونا فى هذه الأيام. أما عن نفسى ، فقد تذوقت الطريقة الفلمنكية .

والذى لا يذكره أبدًا بحكمة وذوق سليم، أنه كان لديه معرض للوحات هولندية، لا يعد له غيرُ ديوان السيد «شوازيل» بالنسبة إلى عدَد واختيار الصور.

يجيب الرسام :

– لا يوجد أجمل من القديم وما يُستلهم منه. ولكنى أتفق معك على أن اللوحات المضحكة لكل من «تينييه»، و«ستيين»[2]، أو «أوستاد»[3] أفضل من الزخارف النسائية لفاتو، و «بوشيه»، و «فان لو»[4]، لقد

---

(١) تينييه : رسام فلمنكى ت ١٦٤٩ .
(٢) رسام هولندى ت ١٦٧٩ .
(٣) رسام هولندى ت ١٦٨٥ .
(٤) رسام فرنسى ت ١٧٦٥ .

تشوهت فيها الإنسانية، ولكنها لم تُحقَّر ، على سبيل المثال عند «بودوان» أو «فراجونارد» .

ويمرُّ أحد المُنادين ، يصيح :

– نشرة محكمة الثورة !..... قائمة المذنبين !

قال « جاميلان» : إن محكمة ثورية واحدة لا تكفى ، لابد أن توجد واحدة فى كل مدينة ... ماذا أقول ؟ بل فى كل دائرة، وفى كل ناحية.. لابد من أن يلجأ كل رب أسرة، وكل المواطنين عليهم أن يلجئوا إلى القضاء .

عندما تجد الأمة نفسها مهددة بمدافع الأعداء، أو خناجر الخونة، يُغتال الغفران. ماذا ؟! ليون، ومرسيليا، وبرودو، متمردون، وكورسيكا ثائرة، ولافانديه تضطرم، ومايانس وفالانسيان هَوَتَا تحت سلطة الحزب، الخيانة فى الأرياف وفى المدن ، وفى المعسكرات ، الخيانة جالسة على مقاعد الجمعية الوطنية ، الخيانة جالسة وبطاقة فى يدها فى مجالس حرب قادتنا... فَلْتُنقِذِ المِقْصَلَةَ وطننا !

أجاب «بروتو» العجوز : ليس عندى اعتراض جوهرى على المقصلة. الطبيعة هى مُعَلِّمَتى الوحيدة وخليلتى الوحيدة، فى الحقيقة لم تعلمنى بأى طريقة أن حياة أى إنسان لها بعض القيمة ، بل على العكس، فهى تعلم بشتى الطرق أنها ليس لها أى قيمة. يبدو أن الغاية الوحيدة من المخلوقات، هى أن يُصبحوا غذاءً لمخلوقات أخرى، مُكَرَّسين للغاية ذاتها. والقتل من القانون الطبيعى، وبناء عليه فالحُكم بالإعدام شرعى، بشرط أَلَّا تمارسه عن فضيلة، أو عن عدلٍ، ولكن عن ضرورة أو من أجل

الحصـــول مــن ورائـــه على انتفــاع أو كسب، لــذلك يجب أن تكون عندى غــرائز شــديدة، لأنى أكره أن أرى الدمــاء تسيل، وذلك يُعَدُّ انحــلالا، لم تتوصل فلسفتى بَعْدُ إلى إصلاحه .

واستطرد «إيفاريست» : الجمهوريون رُحَمَاء وحساسون، ولا يوجد سوى الطغــاة الذين يؤكدون أن عقوبة الإعــدام شعار ضرورى للسلطة. والشعب ذو السيــادة ســوف يلغيها ذات يوم، و «روبسبير» كــافحهــا، ومعــه جميع الوطنيين، والقانــون الذى يُلغيها لم يسعــه أن يُنشر مبكرًا ، ولكن لا يجب أن يُطبق مستقبــلًا إلا عندمــا يهلك آخِر أعــداء الجمهــورية بموجب قوة القانون .

والآن يوجد خَلْفَ «جاميــلان» و «بروتو» مَنْ وصلوا متأخرين، ومن بين هؤلاء كثيرات من نســاء الدائــرة، ومن بين أُخــريات حــائكة جميلة، واضعة على رأسـهــا منديلًا ، ولابسة خُفًّــا ، ومتقلدة بسيف، ومن هؤلاء فتاة جميلــة شقراء، شعثة الشعــر، خمارها مُجَعَّد، وَأُمٌّ، شــابة صغيرة، نحيفــة وشــــاحبة ، تعطى ثديها إلى طفلها الهزيل النحيل . والطفل الذى لا يجد لبنًا فى ثديها يصيح، ولكنَّ صيحاته كــانت ضعيفة، ويكاد يختنق من نحيبه. صغيرٌ يُثير الشفقــة، فهو ممتقع البشرة، ووجهــه أصفر يميل إلى السواد ، عيناه مُتَّقِدَتان، وأمه تنظر إليه نظرة تُثير الألم .

قال «جــاميلان» وهو يلتفت إلى الرضيع البــائس ، والذى يتألم خلفه ويئن تحت ضغط الذين يصلون متأخرين : إنه صغير جدًّا !!

– عمره ستة أشهر ، حبى المسكين!.... والده فى الجيش : وهو من بين هؤلاء الذين صَدُّوا النمساويين فى كوندية .

اسمه ديمونتاى (ميشيل)، موظف تجارى، يحترف صناعة الجوخ، وقد تطوع فى المسرح الذى أقيم أمام مبنى دار البلدية. رفيقى المسكين كان يريد أن يدافع عن وطنه، وسافر.... وكتب إلَىَّ، وطلب منى أن أتذرع بالصبر. ولكن كيف تريدنى أن أُطعم «بول» – (هذا هو اسمه) – وأنا لاأستطيع أن أُطْعِمَ نفسى ؟

صاحت الفتاة الشقراء الجميلة : آه ! أمامنا ساعة أخرى من الانتظار حتى نحصل عليه، ولابد فى هذا المساء من تكرار نفس الانتظار أمام باب البقالة، ونتعرض لمخاطر قاتلة من أجل الحصول على ثلاث بيضات، وربع رطل زبدة.

فتنهدت المواطنة «ديمونتاى» قائلة : زبدة، لم أَرَها منذ ثلاثة أشهر !

وجميع النسوة اشْتَكَيْنَ من نُدْرَة وغلاء المواد الغذائية، ويقذفن باللعنات على المهاجرين، وينذرْن المقصلة لمنتشى الدوائر الذين يعطون نساء ماجنات دجاجاتٍ مُسمَّنةً وخبزًا بسعر تمنيه محاباة مشينة .

وتنتشر القصص التى تنذر بالخطر عن غرق عُجولٍ ففى نهر السين، وجوالات من الدقيق تُفرّغ فى المجارى، وخبز يُلْقَى فى المراحيض... ويُقال إن المُجَوِّعين الملكيين ، والرولانديين، والبريسوتانيين هم الذين يتابعون القضاء على شعب باريس .

وفجأة تصرخ الفتاة الشقراء الجميلة ، ذات الوشاح المجعد ، وكأن النيران اشتعلت فى تنورتها، وتهتز بعنف، وقد قلبت جيوبها وقالت إن كيس نقودها قد سُرِق .

وإثْر عملية النشل هذه سَرَتْ موجة من السخط من هذا الشعب الرقيق الذى سبق أن نهب الفنادق فى ضاحية «سان جيرمان»، و غزا «التويلورى» بدون أن يستولى على أى شىء. هؤلاء حرفيون وأهالى ، وهم الذين أحرقوا – عن حسن نية – قصر «فيرساى»، ولكنهم كانوا يعتقدون أنهم يكونون غير أشراف إذا سرقوا دبوسًا واحدًا منه .

والشباب الفاسق جازف على مغامرة الطفلة الجميلة ببعض الدعابات سيئة القصد ، وسرعان ما اختنقت بما شاع من رأى الجمهور . وكان الكلام يدور عن تعليق اللص على حبل المشنقة. وجرى تحقيق صاخب ومتحيز، وأشارت المرأة الحائكة الكبيرة بأصبعها إلى شخص متقدم فى السن، ويبدو أنه كان راهبًا سابقًا، تُقسم على أنه الراهب «الكابوتش» الذى ضرب ضربته.

وفى الحال اقتنع الحشد ، وأطلق صيحات الويل والثبور . أما العجوز فقد وقع تحت طائلة عقاب المجرم باسم الجماعة، وَمَثُلَ أمام المواطن بروتو فى منتهى التواضع، ويبدو عليه مظهر حقيقى لرجل دين سابق، ويوحى مظهره بالاحترام، فى حين تسبب اضطرابُ هذا الحشد فى إظهار هذا الرجل المسكين بمظهر فاسد ، وأيضًا بسبب أيام سبتمبر القاسية . كما أن الخوف الذى ارتسم على وجهه جعله مشبوهًا عند هذا الجمهور

الذى يعتقـد – عن طيب خاطر – أن المذنبين فقط هم الذين يخشـون هذه الأحكام، كأن هذا التهـور وعـــدم التروى فى حكمهم لابد أن يخيف حتى الأبرياء، وليس المذنبين فقط .

«بروتو» كان يميل إلى القـانون بألَّا يُعارض الشعـور الشعبى مطلقًا، خاصة إذا كان يبدو لا معقولًا وقاسيًا، « كان يقول آنئذ : «صوت الشعب هو صـــوت الرب ». ولكن «بروتو» كـان غير منطقى ، فقـد صرح بأن هذا الرجل – سـواءً كان راهبًـا كبوشيًّـا أَوْ لم يكن – فإنه لا يمكن أن يسرق هذه المواطنة التى لم يقترب منها فى أى لحظة .

استنتج الجمهور أن الذى يدافع عن اللص يكون متـواطئًا معه، والآن تناقل الحديث بينهم عن معـاقبة المُذْنِبَيْنِ، وعندمـا تعهد «جـاميلان» بأن يضمن «بروتو» تحدث الأكثر حكمة فى الجمهور بأن يرسلوه مع الاثنين الآخرين إلى الدائرة .

ولكن الفتـاة الجميلة صـاحت فجأة وبفـرحـة أنها عثـرت على كيس نقـــودها . وفى الحال انطلقت عليهـا صيحـــات الاستنكار والسخـــرية، وهُدِّدَتْ بأن تُضرب على أردافها على الملأ كراهبة .

قـال رجل الدين لـ «بروتو» : أشكرك على أنكَ دافعتْ عنى ياسيـدى، واسمى لايهم ، ولكن لابد أن أذكـره لـك : (اسمى لويس دى لونجمار)، وفى الواقع أنا راهب قـانونى ولست راهبًـا كـابوشيًّـا، كما قـال هؤلاء النسوة، والأمر يحتـاج إلى أكثر من ذلك، فأنا أكليركى قانونى من النظام

البارنابيتى الذى خَرَّجَ للكنيسة أفـواجًا من الأطباء والقديسين، ولا يكفى مطلقًـا أن نُـرجِع أصله إلى القـديس «شـــارل بوررومى»(١)، بل لابد من اعتبار أن مُؤسِّسه الأصلى هو القديس بول (بولس) المُبَشِّر، والذى يحمل المُشَبَّكة فى شعـار النبالة. كـان لابد أن أُغادر الدير الذى كنت فيـه، حيث أصبح مقر دائرة لوبون – نوف ، وأن أرتدى زى راهب علمانى .

قال «بروتو» وهو يتفحص عباءة السيد «لونجمار» : أبى، إن ملابسك تدل بما فيـه الكفاية على أنك لم تنكر طريقتك، ومَنْ ينظر إليك يعتقـد أنك أصلحت نظامك بـدلا من أن تتركـه، وعـرَّضْتَ نفسك فى هـذه الظواهر القاسية لشتائم شعبية وقحة بهذا المظهر الزاهد .

أجـــاب الراهــب : ومع ذلك، فلم أستطــع أن أرتدى الزّىَّ الأزرق كما يرتدى الرَاقص .

قــال «بروتو» : يا أبى، إن ما قُلْتُــه عن ملابسك، قلتُــه لكى أُحَيِّى فيك أخلاقك، وأُحذرك من الأخطار المُحدقة بك .

قــال الـراهب : سيـدى ، من اللائق ، أو على العكـس تمامًــا، يجب أن تُشجعنى على إشهــار عقيدتى ، ذلك لأننى لستُ إلَّا مجبـولًا على الخوف من الهلاك. لقـد تركتُ الزىَّ الرهبـانىَّ يا سيـدى، ومــا ذلك إلا نوع من الارتداد، إن أقل شىء ألَّا أغادر البيـت الذى أنعم علىَّ الله فيه طوال سنين عدة بحياة هادئـة ومنعزلة، وحصلتُ على الموافقة بالإقامــة فيه ، ولزمتُ

---

(١) أصبح أسقف ميلانو فى القـرن السادس عشر. قائـد أتباع برنابيت ، ولد سنة ١٥٣٨ ، وتوفى سنة ١٥٨٤ .

فيه صومعتى، فى حين تحولت الكنيسة والدير إلى نوعٍ من دار البلدية الصغيرة، والذين سموها «الدائرة». وقد رأيتُ يا سيدى شعارات الحقيقة المقدسة تُدَقُّ بالمطرقة، ورأيت اسم المبشر (بول) يُستبدل بِقَلَنْسُوَة أحد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة. أحيانًا كنت أحضر اجتماعات الدائرة غير القانونية، وسمعتُ فيها تعبيرات خاطئة تثير الدهشة. وأخيرًا غادرت هذا المقر المُمْتَهَن، وذهبتُ لأعيش فى إحدى الحظائر التى صُودرت خيولها لخدمة الجيوش، بمعاشٍ حددته لى الجمعية، وهناك أقمتُ القُدَّاس أمام بعض المؤمنين الذين جاءوا ليشاهدوا خلود كنيسة المسيح.

قال «بروتو»: أَمَّا أنا يا أبى فإذا كُنْتَ راغبًا معرفة اسمى فإننى أُدْعَى «بروتو»، وقد كنت قديمًا جَابِى ضرائب.

أجاب الأب «لونجمار»: كنتُ أعرف من موعظة للقديس «مَتَّى» أنه فى الإمكان الاستماع إلى حديثٍ طيبٍ من أحد جُباة الضرائب.

قال «بروتو»: أبى إنكَ مهذب أكثر من اللازم.

قال «جاميلان» للمواطن «بروتو»: قَدِّرُوا هذا الشعب الجائع للحرية أكثر من الخبز.. كل واحد هنا كان مستعدًّا أن يترك مكانه ليعاقب اللص. هؤلاء الرجال وهؤلاء النسوة فى فقر مدقع، وبرغم أنهم مطحونون بالحرمان، فإنهم يتمتعون بنزاهة شديدة، ولا يسعهم أن يتسامحوا بصدد أى عمل مشين.

أجاب «بروتو»: يجب أن نعترف أن هؤلاء القوم قد اتخذوا موقفا

سيئًا تجاه هذا الـراهب الطيب حينما رغبـــوا فى شنق النشـــال ، وتجاه المُدافِع عنه، وتجاه الذى يدافع عــن المُدافع عنه . إن حــرصهم – وكـذلك حبهم الأنانى الشـديد الذيـن يُكِنُّونه لمالهم – دفعهم إلى ذلك ، فـالنشــال عندما يهاجم أحـدًا منهم فالجيع يُصبحون مهـددين، ومن ثم يحرصون على أن يُعـاقبوه... ومــع ذلك ، فمن المحتمل أن يكون معظم هؤلاء العمال اليـدويين وهؤلاء الشغالات فى البيـوت، مستقيمين ومن ذوى الصــلاح، ويحترمـون مـال الغير ، وقد أُلْقِيَتْ عليهـم هذه الإحساســات وثَبَّتَهَـا فى نفـوسهم تربيةُ آبائهـم وأُمهاتهم، الذين عـاقبـوهم بما فيه الكفـاية على أردافهم، وزرعوا فيهم الفضيلة منذ طفولتهم .

لم يُخْفِ «جـاميلان» عن «بروتو» العجـوز رأيه بأن هذه اللغــة التى يتحـدث بها جـديرة بأحـد الفـلاسفــة . فقــال : إن الفضيلة طبيعــة عند الإنسان وقد وضـع الله بذرتها فى قلوب البشر .

كان العجوز «بروتو» مُلْحِدًا، ونزح من إلحَادِه نبعًا غزيرًا من الملذات .

– إننى أرى – أيها المواطن «جاميــلان» – أن كلمة ثورى هى من أجل مــا هو على الأرض، وأنت بالنسبــــة إلى السماء تعَـدُّ محافظًا، ولا يختلف «روبيسبير» و «مارات» عنك فى ذلــك مطلقًا . ومن الغريــب أن الفرنسيين الذين لم يتألموا لِمَلِـكٍ من البشر يُصرون على أن يحتفظوا به كملك خـــالٍ، أكثــر طغيانًا ووحشيــة، وإلَّا فما هو البــاستيل(١) والغرفـة المحرقــة(٢)

---

(١) الباستيل : سجن بباريس هُدِم سنة ١٧٨٩ .

(٢) يعنى بها : المحكمة التى كانت تبتّ فى القضايا الاستثنائية .

بالنسبـة إلى جهنم ؟ إنَّ البشرية تنسـخ آلهتهـا مِنَ الطغـاة ، وأنتم الذين ترفضون الأصل وتحتفظون بالنسخة !

صاح «جاميلان» : أوه أيها المواطن ! ألا تخجل من أن تتناول مثل هذا الحديث ؟ كيف تخلـط بين المعبـودات الكئيبـة التـى هى وليـدةالجهل والخوف وبين الخالق ؟ إن الإيمان بإله واحـد أمرٌ وضرورى للأخـلاق . إن الله هو منبع الفضائـل جميعها، ولن يكون المرء جمهوريًّا مـا لم يؤمن بالله .

«روبسبير» كـان يعى ذلك جيدًا ، فـانتزع من قـاعة اليعقـوبيين ذلك التمثـال النصفى للفيلسوف «هيلفيتيـوس» الآثم وأعان الفـرنسيين على الاستعبـاد بتعليمهم الإلحاد ... وإنـى أتعشم - على الأقل - أيها المواطن «بروتو» عندمـا تؤسس الجمهـويـة ألا ترفض انضمامك إلى دين حكيم يقبله العقل .

أجـاب «بروتو» : إننى أحب العقل، ولست متعصبًـا ضـده ، فـالعقل يرشـدنا ويُنيرنـا، وعندمـا تجعل منه معبـودًا فسـوف يُضلِّك ويُقنعك باقتراف الجرائم .

واستمر « بروتو » فى استدلاله، وقـدماه فى الجدول ، كذلك كان يفعل منذ عهـد قريـب فى أحد مقـاعـد البارون «هولبـاك »(١) الوثيرة المُذَّهبة، والذى - وفقًـا لتعبيره - كان يستخـدمها كأسـاس للفلسفة الطبيعيـة ، ويقول :

---

(١) أولباك - أو هولباك -: فيلسوف فرنسى ملحد ، ولد سنة ١٧٢٣ ، وتوفى سنة ١٧٨٩ .

إن «جان جاك روسو» الذى أبدى بعض المواهب، خاصة فى الموسيقى كان عبارة عن «جان - فيس» الذى ادعى أنه استقى الأخلاق من الطبيعة، مع أنه فى الحقيقة أخذها عن مبادئ «كالفان»(١). إن الطبيعة تُعلمنا أن ينهش بعضنا بعضًا ، وتعطى لنا جميع نماذج الجرائم، وجميع الرذائل التى تصححها الحالة الاجتماعية أو تخفيها .

يجب أن نحب الفضيلة، ولكن من الصالح أن نعرف أن ذلك مجرد وسيلة تَخَيَّلَهَا الناسُ ليعيشوا معًا فى وئام. وما نسميه الأخلاق ما هو إلَّا عملية يائسة قام بها نظراؤنا ضد النظام العالمى، الذى هو نزاع، وقتال، وصراع بين مختلف القوى العمياء المتضاربة، فهى تدمر نفسها تدميرًا ذاتيًّا، وكلما أفكر فيها أكثر أقنع نفسى بأن الكون ساخط .

إن اللاهوتيين والفلاسفة الذين يجعلون الله خالق الطبيعة، وخالق الكون، يجعلونه يظهر بمظهر لا معقول شرير، وهم يقولون طيب لأنهم يخشونه ، ولكنهم مُجبرون على أن يوافقوا على أنه يتصرف بطريقة وحشية، وينسبون إليه دهاءً نادرًا عند الإنسان، ومن ثم يجعلونه معبودًا على الأرض، لأن جنسنا البائس يزهد فى عبادة آلهة عادلة وخَيِّرة، حيث لا يوجد ما يخشاه منهم، ومن ثم لا يحفظ شعبنا لهم جميلًا أو معروفًا غير ذى جدوى .

ولولا الأعراف(٢) والجحيم لأصبح الإله الطيب مجرد سيد مسكين .

---

(١) زعيم الإصلاح الدينى فى فرنسا وسويسرا، ولد سنة ١٥٠٩ ، وتوفى سنة ١٥٦٤ .

(٢) الأعراف : الحاجز بين الجنة والنار .

قال الأب لونجمار : لا تتحدث أبدًا عن الطبيعة، أنت لا تعرف ما هى .

– بكل تأكيد يا أبى ، أعرف ذلك جيدًا مثلك !

– لا تستطيع أن تعرف ذلك، لأنك لا تعتنق أى دين، وأن الدين فقط هو الذى يعلمنا ما هى الطبيعة، وفى أى شىء هى صالحة، وكيف أنها قد حُرِّفت. وفضلًا عن ذلك لا تنتظر ما سوف أجيبك به قائلًا : إن الله لم يمنحْنِى حرارة اللسانِ لكى أدحض أخطاءَك ولا حرارة اللغة، ولا قوة الفكر وكنت أخشى ألَّا أُزودك لعدم كفايتى، إلَّا بغرض التجديف(١) ، وبأسباب التصلب، وعندما أشعر برغبة جامحة لخدمتك، فلن أتلقى مِنْ أَجْلِ ثمرة كرمى الخفية إلا .....

وتوقفت هذه الكلمات بانبعاث ضوضاء صاخبة بدأت من أول الطابور ، وتنذر الطابور الجوعان بأن المخبز قد فَتَحَ أبوابه. وبدءوا يتقدمون ، ولكن ببطء شديد ، ويقف أحد أفراد الحرس الوطنى يُنظم الطابور ويُدخلهم ليشتروا الخبز فردًا فردًا . كان الخباز وزوجته وابنه حاضرين عملية بيع الخبز، وكذلك مفتشان مدنيان، يُعلق كل منهما شريطًا ثلاثىَّ الألوان على ذراعه الأيسر ، ليتأكد من أن المستهلكين ينتمون إلى الدائرة ، وأن يسلم إليه النصيب المحدد للأفواه المحتاجة للغذاء .

كان المواطن «بروتو» يجعل من البحث عن المتعة هى الغاية الوحيدة للحياة، ويرى أن العقل والحواس هما فقط القضاة فى حالة عدم وجود الآلهة، ولا يمكن إدراك حياة أخرى .

---

(١) التجديف : كفران النعم .

وعندمـــا وجـد فى كلمات «الرســـام» الكثير من التعصب، وفى كلمات «الراهب» الكثير من البســاطة، ليحصل منها على متعـة كبيرة، هذا الرجل الحكيم لكى يُوفِّق بين سلوكه ومـذهبه فى الظروف الحالية، وليُخفف من طول الانتظار، أخرج من جيب سترته حمراء اللون ، والتى تميل للسواد، أخرج كتابه عن «لوكريس»(١) الذى ظل أعز ما لديه من ملذات، وموضـع سروره الحقيقى. وكـان جلد هذا الكتــاب الأحمر مجعـدًا من الاستعمال، وكان المواطن «بروتو» قـد كشط بحذر شعارات النبالة الذهبيـة الثلاث، التى اشتراها أبوه الجابى بمبلغ كبير من المال .

فتح «بروتو» كتــابه على الموضـع المذكـور حيث الشــاعر الفيلســوف، الذى يريد أن يشفــى الناس باضطرابات الحب ، بلا جـــدوى، فيُفَـــاجأ بامرأة بين ذراعى واحدٍ من الخدم فى حالة تسئ إلى كل حواس الحبيب .

ويقرأ المواطن «بروتو» أبياتَ الشـعــر هذه ، ولكن مع ذلك لا يفوته أن يُلقى نظرةً على عُنق جــارتــه الجميلة، وأن يستنشقَ بشـهـوة تلك البَشَرة الرطبة لهذه الفتاة الصغيرة .

الشــاعر «لوكـريس» لم يكن لديه ســوى الحكمة، وتلميـذه «بروتو» عنده منها الكثير .

كان يقــرأ ، ويخطو خطوتين كل ربع ساعة. وأُذنه تتمتع بالإيقــاعات الوقورة والمتعددة للشـعــر اللاتينى. وتطرق أُذُنه صرخاتُ الثرثارات عن

---

(١) لوكريس : شاعر لاتينى ، توفى سنة ٥٣ ق . م .

غلاء الخبز، والسكر، والبُنِّ، والشمع، والصابون . وهكذا وَصَلَ فى هدوء إلى عتبة المخبز، ومن خلفه «إيفاريست جاميلان» يرى فوق رأسه الحزمة الذهبية على الشبكة الحديدية التى تغلق جبهة الباب .

وجاء دوره، كانت سلال وأرفف الخبز خاوية، وسَلَّمَهُ الخباز آخر رغيف تَبَقَّى، والذى لا يزن رطلين. دفع «إيفاريست» المطلوب ، وأُغلق «الشِّبَّاكُ» على إثْرِهِ خوفًا من أن تهجم الجماهير الصاخبة على المخبز، ولكن لم يكن هناك ما يخشى عليه فهؤلاء الناس المساكين، جُبِلُوا على الطاعة بواسطة قامعيهم (ظالميهم) القدامى، وبواسطة محرريهم الجدد، ومن ثم ظلوا على حالهم، مُطأطئى الرءوس يُجرْجرون أرجلهم زاحفين .

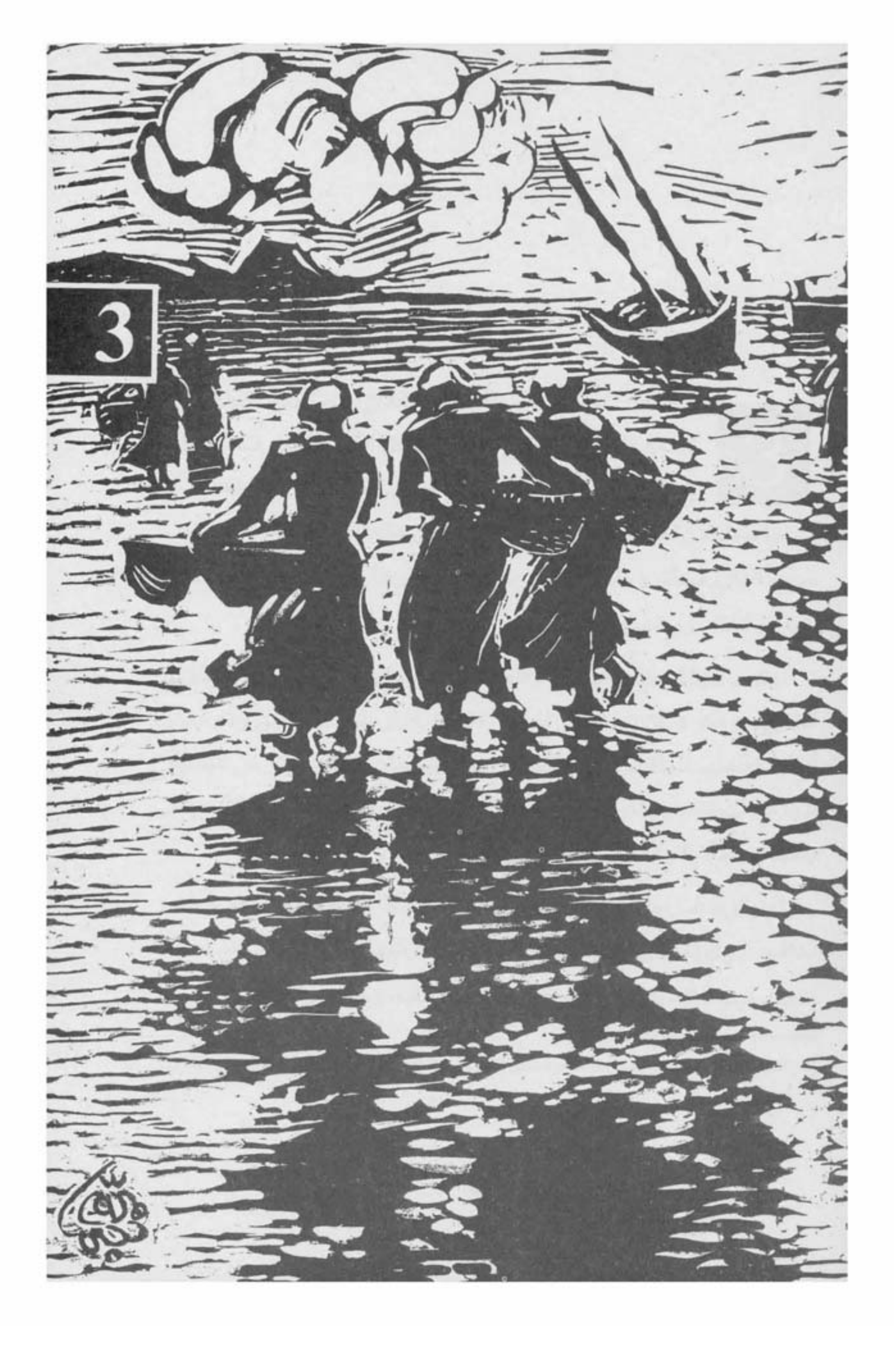
عندما وصل «جاميلان» إلى منعطف الطريق رأى المواطنة «ديمونتاى» جالسة على قارعة الطريق وطفلها بين ذراعيها ، كانت جالسة جامدة شاحبة جافة الدمع، شاخصة البصر ، وطفلها يرضع إصبعها بنهم . وقف «جاميلان» أمامها لحظةً خجلانَ مترددًا ، وكان يبدو عليها أنها لا تراه .

تمتم ببعض الكلمات، ثم أخرج مُدْيته من جيبه، سكينة بِقَرْنٍ ، وقطع خبزه واقتسمه مع المواطنة «ديمونتاى»، واضعًا نصيبها على ركبتى الأم الصغيرة، التى نظرت إليه فى دهشة، ولكنه كان وقتئذ قد تجاوز منعطف الطريق .

وعندما وصل إلى مسكنه وجد والدته جـالسة إلى النافذة ، كانت تُرتِّق بعض الجوارب، ووضع بين يديها ما تبقى معه من الخبز وهو سعيد بذلك ، وقال :

– سامحينى يا أمى الطيبة، فإننى كنتُ متعبًا ، حيث وقفتُ طويلاً ، وأرهقنى الحرُّ الشديد فى الطريق، وعند عودتى إلى المنزل أكلت نصف الخبز لقمةً لقمةً ، وتبقَّى بالكاد نصيبك .

وتظاهر بأنه ينظف « جاكتته » من أَثَرِ الفُتات المتناثر عليها .


3

3

قـالت المواطنة الأرملة «جـاميـلان» مستخدمـة طريقـة قديمة فى التعبير : «مِنْ فَرْط ما نـأكل القَسْطَل سوف نتحول إلى قسطل». فى هذا اليـوم الموافق ١٣ يوليـو، كـانت هى وابنها يتناولان حساء القسطل، ولما انتهيا من هذه الوجبة القاسية دَفَعَتْ سَيِّدَةٌ الباب فجأة، وملأت المكان بتألقها وبعطرها. ويعرف «إيفاريست» أنها المواطنة «روشيمور» (١).

اعتقـد أنها أخطأت البـاب، وأنها تقصـد المواطن «بروتو» صـديقهـا القـديم. وفكر فى أن يدلها على المخزن المواجـه، أو يستـدعى «بروتو» من أجلها ويُجنِّب المرأة الأنيقة أن تتسلق سلم الطحان، ولكن يبدو من البداية أنها كـانت تقصـد المواطن «إيفاريست جـاميـلان» فى عمل، لأنها أخبرته بأنها سعيدة بأنها قابلته وتُدعى إلى مائدته .

لم يكونا غـريبين عن بعضهما : لقـد تقـابلا عـدة مـرات فى مـرسم «دافيد»، وفى إحـدى منصات الجمعيـة، وعند اليعقوبيين، وعند صـاحب المطعم فينوا، لقد لفت انتباهها بجماله، وبشبابه، ومظهره الجاد .

---

(١) الكونتيسة دى روشيمـور : شخصية تمثل اللاوعى واللاصـلابة لسيدات المجتمع فى فـرنسا فى العهد القديم .

كان يرتدى قبعة مُـزينة بشريط مثل زمارة القصب، ومزينة بالريش مثل أحد النواب فى مهمة، وكـانت المواطنة «روشيمور» تضع على رأسها «باروكة» مستعارة، مُخضَّبة، ومُـرَقَّشة، مُمَسَّكة،بعطر المِسْك ، والجسد أيضًا كـان بَضًّا، يغطيه الكثير من التكلف والتصنـع.. هذه الأشيـاء الصناعية الصارخة من أجل الموضة كانت تُشـوه النمط السريع للحياة، وحُمَّى هذه الأيام الرهيبة التى لا نضمن فيها بزوغ يوم جديد .

وكانت ترتدى ثوبًا عريضَ الرفـارف ، طويل الذيل ، يضوى لكثرة ما فيه من أزرار كبيرة مصنوعـةٍ من الفولاذ الأحمر القـانى فى آنٍ واحد ، إذ كانت تتزين بثوب يتميز بألوان الضحايا وبألوان الجلاد .

وكان يرافقها أحد الشبان العسكريين، جندى فارسٌ، وكانت مُمسكة العصا الصدف الطـويلة فى يدها، وهى طويلة وجميلة وممتلئة، وصدرها عـريض.. وقـامت بجولة فى المرسم، كـانت تقـرِّب نظارتها الذهبيـة من عينيهـا الرماديتين، تتفحـص لوحات الرسـام وهى تبتسم، وتتصـايح إعجابًا بجمال الفنان، وتُطريه ليمدَحَها . وتسأل المواطنة :

– مـا هذه اللوحـة النبيلة والمؤثـرة فى القلب.. امـرأة رقيقـة وجميلة بالقرب من شاب مريض ؟

أجاب جـاميلان بأنها يجب أن ترى فيـه «أوريست»، ترعـاه شقيقته «إليكترا»، وأنه إذا استطاع إتمامها فربما كانت أقل أعماله رداءة .

وأضـاف : إن الموضوع مأخـوذ عن «أوريست» للكاتب «يوريبيـد».

وكنتُ قـرأتُ، فى ترجمة قـديمـة لهذه المأسـاة مشـهـدًا قـد أثر فىّ، وأثار إعجابى، وهو يصور «إليكترا» الشابة وهى ترفع شقيقها على فراشه من الألم الذى يُحسـه، وتجفف الرغـاوى التى تلطخ فمه، وتُبعـد عن عينيـه الشعر الذى يخفيهما، وترجو أخاها العزيز أن يُصغى إلى ما سوف تقوله له فى صمت آلهة العذاب .... وعندما قـرأتُ هذه الترجمة، وأعدتُ قراءتها، شعرت كأن غشاوة حجبت عنى الأشكال أو الصُّـوَر اليونانية، وأننى لم أستطع أن أبددها .

لقد تصورتُ النص الأصلى أكثـر عصبية، وله نمط آخر . وتأجَّجت فى نفسى رغبـة أن صنع منها فكرة صحيحـة، وطلبت من الأستـاذ «جيل» الذى كان يُدَرِّس اللغـة اليونانية فى ذلك الـوقت فى «الكوليج دى فرانس» (وكان ذلك فى عام ١٧٩١)، أن يشرح لى هذا المشـهـد كلمة كلمة ويوضحه لى كما طلبت منه. رأيت أن القدمـاء كانوا أكثر بساطة وأكثـر أُلفة مما كنا نتصور .

وإليكِ ما قـالته «إليكترا» إلى «أوريست» : «أخى العـزيز، كم أن نومك يسعـدنى ! هل تريد أن أسـاعـدك لتنهض ؟». وأجـاب أوريست : «نعم، ساعـدينى، خذينى، جففى هذه البقـايا من الرغاوى حـول فمى وعَيْنَىَّ. وضعى صـدرك على صدرى، وأزيحى عن وجهـى شعرى المعقـد ، لأنه يحجب عينى ....».

وبناء على هـذا الشِّعْـر الجميل القـوى والمؤثـر، وهذه التعبيرات الساذجة، رسمتُ خطوط هذه اللوحة التى ترينها أيتها المواطنة .

هذا الرسام الذى عادة ما نتحدث عن أعماله باختصار لم ينضب حديثه عن هذه اللوحة، وقد شجعه على ذلك إشارة صدرت من المواطنة «روشيمور» عندما خلعت نظارتها ، فاستطرد قائلًا :

– اختار «هانيكان» أساسًا مخاوف «أوريست»، ولكن «أوريست» أثَّر فينا بأحزانه أكثر مما أثَّرَ فينا بمخاوفه. ويالمصيره ! كان ذلك عن حب الوالدين، وعن طاعةٍ للقوانين المقدسة ارتكب هذه الجريمة، التى لابد أن الآلهة تسامحه فى ارتكابها، ولكن الناس لن يسامحوه أبدًا . وقد أنكر الطبيعة لينتقم من أجل العدالة المُهانة، وجعل من نفسه وحشًا، وانتزع أحشاءه بنفسه، وظل فخورًا تحت وطأة الجُرْم الشنيع والفاضل الذى ارتكبه... هذا ما كنت أريد أن أوضحه بالنسبة لهذه اللوحة للأخ والأخت.

ثم اقترب من اللوحة ونظر إليها بإعجاب ، وقال :

– لقد فرغْتُ من بعض الأجزاء تقريبا، كرأس «أوريست» وذراعيه، على سبيل المثال .

● إنها قطعة تُثير الإعجاب ... و «أوريست» يُشبهك، أيها المواطن «جاميلان».

– هل لاَحَظْتِ ذلك ؟ قالها بابتسامة وقورة .

وتناولت المقعد الذى قدَّمه إليها «جاميلان» وظل الجندى الفارس واقفًا إلى جانبها، ويده على مسند المقعد حيث كانت جالسة، ومن ثم يمكن للمرء أن يعرف أن الثورة كانت قائمة ، ففى العهد القديم لم يكن فى

استطاعة أى رجل فى معية امرأة أن يلمس – ولو بأصبعه – أى مقعد تجلس عليه ، ذلك ما تفرضه التربية الصارمة لمتطلبات الأدب ...

كانت «لويز ماشيه دى روشيمور» ابنة أحد ضباط الصيد عند الملك، وأرملة أحد النواب، وصديقة حميمة لمدة عشرين عام لجابى الضرائب «بروتو ديزيليت»، وقد اندمجت مع المبادئ الجدديدة. وشوهدت فى عام ١٧٩٠ – فى شهر يوليو – تحرث أرض حقل «شامب دى مارس» .

ومع أن نزوعها الحازم من أجل السلطات قد نَقَلَهَا بسهولة من «الرهبان» إلى «الجيروندان» وإلى الجباليين (المنشقين)، فإن روح المصالحة، وحرارة المعانقة، وقدرة الكيد يجعلونها تنتمى أيضًا إلى الأرستقراطيين، وإلى المناهضين للثورة .

كانت شخصية لها صيت كبير جدًّا، حيث كانت تتردَّدُ على الحانات، والمسارح، والمطاعم، والبيوت المشبوهة، والصالونات، ومكاتب الصحف، وغرف انتظار اللِّجان . وقد كانت الثورة تأتيها بالطرائف واللهو، والابتسام والسرور، والمعاملات المثمرة .. وكانت لها مغامرات سياسية وغرامية، وتلعب على القيثارة، وترسم مناظر طبيعية، وتتغنى بالأغانى العاطفية، وترقص الرقصات اليونانية، وتقيم ولائم للعشاء، وتستقبل سيدات جميلات، مثل «الكونيسة دى بوفور »، والممثلة «ديكوان»، وتقضى طوال الليل جالسة إلى الطاولة وهى فى أبهى ثيابها، ومنضبطة، تحيا حياة كلها مغامرات، وكذلك يتوافر لها الوقت لكى تكون شفوفة نحو أصدقائها .

وكانت فضولية، تُحب التحرك، مربكة، عابثة، عارفة بالرجال، جاهلة بالعامة .. والآراء التى تتقاسمها مثل الآراء التى يجب أن ترفضها، ولاتفهم شيئًا مطلقًا عَمَّا يجرى فى فرنسا، وتبدو جريئة ، صعبة المراس، وتتمتع بمهارة فائقة فى تجاهل الأخطار، وبثقة لا حَدَّ لها فى تأثير مفاتنها.

كان الجندى الذى يصطحبها فى زهرة شبابه. وكانت خوذته من النحاس، مزينة ومبطنة بجلد الفهد ، وينسدل على ظهره شعر غزير مثل عرف الخيل . والجاكت الذى يرتديه كان أحمر اللون، على شكل صديرية، يحرص على أن يكون واصلا حتى الحقو، حتى لا تخفى أناقته الانحناءة . وكان يتمنطق بسيف طويل، تشبه قبضته منقار الصقر، وكانت تبدو متألقة. ويرتدى سروالًا بشريط أزرق خفيف ، يضم العضلات الأنيقة لساقيه، وشرائطَ مضفرة لونها أزرق قاتم، مرسوم عليه زخارف عربية على فخذيه . كان يبدو عليه مظهر راقص يرتدى زيًّا خاصًّا يصلح لتمثيل دور عسكرى أنيق، فى قصة «أشيل بسيروس»(١)، أو «أفراح الإسكندر»، لأحد تلاميذ «دافيد»، الحريص على تضييق الشكل.

اختلط الشَّبَهُ على «جاميلان»، وتَذَكَّرَ أنه رأى هذا الجندى من قبل منذ خمسة عشر يومًا، كان يخطب فى الناس عند منصات مسرح الأمة .

قدمته المواطنة «روشيمور» بِاسْمِهِ قائلة :

---

(١) أشيل : أحد أبطال الإلياذة . وسيروس : من جزائر بحر إيجة .

– «المواطن «هنرى» عضـو اللجنة الثـورية لقطاع حقوق الإنسـان».
كانت متعلقة به دائمًا، كمرآة للحب، وشهادة حُبٍّ للوطنية .

أشادت المواطنة بجـاميلان ومواهبه، وسألتـه عَمَّا إذا كان يوافق على أن يرسم لوحة لإحـدى بائعات القبعـات يهمها أمرها. كـان سيختار لها موضوعًـا خاصًّا : امرأة تقيس إيشاربًا أمـام مرآة، على سبيل المثال ، أو عاملة صغيرة تحمل تحت إبطها علبة بها قبعات .

ولما كـانوا قـادرين على تنفيـذ مثل هذا العمـل الفنى البسيط من هذا النوع، حـدثوها عن «ابن فـراجـونارد»، وعن الصغير «دوسى» وكـذلك المدعـو «برودوم»، ولكنهـا فضَّلتْ مخاطبـة المواطن «إيفـاريست جـاميلان».. ومع ذلك فهـى لم تنته إلى شىء فيما يتعلق بهذا الموضـوع، ويبـدو أنها قـد طلبت هذا الطلب فقط لتخـوض فى المناقشـة، ولكنهـا فى الواقع جـاءت من أجل أَمْرٍ آخـر تمامًا، فقـد طالبت المواطن «جاميـلان» بخدمة هامة لأنها كانت تعـرف أنه على علاقة بالمواطن «مارات»، وكانت تريد أن يُدخلها عند « صديق الشعب »، حيث تريد أن تتحدث معه .

أجـابها «جـاميلان» بأنـه شخصية صغيرة لا يستطيع تقـديمهـا إلى «مـارات»، وأن «مارات»، بالرغم من أنـه يرزح تحت عبء المشاغل، فهـو ليس الرجل الذى يرفض مقابلة أحد .

وأضـاف «جاميلان» :

– سوف يستقبلك أيتها المواطنة لو كنت بائسة، لأن قلبه الكبير يجعله

حفيًّا بعاثر الحظ، ورحيمًا بكل من يتألم، سوف يستقبلك لو كان لديك ما يتعلق بأمان الشعب.. لقد كرس حياته لإماطة اللثام عن الخونة .

أجابت المواطنة «روشيمور» بأنها ستسعد بأن تُحَيِّى فى «مارات» وطنيًّا شريفًا قدم للبلد خدمات جليلة، وهو جدير بأن يقدم أكثر من هذا أيضًا، وأنها تتمنى أن تقدم هذا المُشَرِّعَ إلى بعض الرجال المرموقين، محُبِّى الإنسانية، والخيِّرين الذين لديهم الثروة، وهم جديرون بأن يمولوه بإمكانيات جديدة ليُشفى غُلَّة حبه الملتهب للبشرية.

وأضافت : إنه من المرغوب فيه أن يساعد الأثرياء فى تحقيق رفاهية الشعب .

حقًّا ، لقد وعدن المواطنة الممول البنكى «مورهاردت» أن تجعله يتناول العشاء مع «مارات».

وكان «مورهاردت» سويسريًّا مثل صديق الشعب، وكان مرتبطًا بالعمل مع كثير من النواب فى الجمعية الوطنية، «جوليان»[1] (من تولوز) و «ديلوناى» من (أبجير) والكابوش السابق «كابو»[2] ليتنافسوا على أسهم شركة الهند .

فالعملية غاية فى البساطة، تقوم على أساس أن يرسو سعر هذه الأسهم على ٦٥٠ جنيهًا بالتلاعب حتى يمكن شراء عدد كبير منها بهذا

---

(١) جوليان : راعٍ من تولوز. متهم فى قضية شركة الهند. نجح فى الاختفاء حتى الثيرميدور .

(٢) كابو ، فرانسوا : كابوش سابق، انضم إلى المؤسسة الدينية للأكليروس. تم انتخابه فى الجمعية التشريعية. وطالب بسقوط الملك. لم يقاوم مذبحة سبتمبر. مشتبه فيه هو والبارون باتز، تم إعدامه بالمقصلة فى الرابع من أبريل ١٧٩٤ مع دانتون وأصدقائه.

السعر، على أن يـرفـع السعر بعد ذلـك إلى ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ جنيه بحوافز مُطَمْئِنة .

ولكن «كـابو» و «جـوليان» و «ديلوناى» اكتشف أمـرهم . وحـامت الشبهات حول «لاكِرْوَا»[1] و «فابر ديجلانتين»، وحتى «دانتون». وكان الممول البنكى «البـارون دى باتز»[2] يبحث عن شركاء جُـدُد فى الجمعية الوطنية، فنصح الممول البنكى «مورهاردت» بأن يقابل «مارات».

لم تكن فكرة المضـاربين بالأسـهـم الماليـة للمناهضـين اللاثوريين، لم تكن غريبة كما كانت تبدو فى البداية، فدائمًا هؤلاء الناس يجتهدون فى أن يجتمعوا بالسلطات الجديدة، و «مـارات» بشعبيته، وبقلمه، وبأخـلاقه، كان سلطة تثير الإعجاب .

وكان الجيروندان يضمحلون، وأنصار «دانتـون» هزمتهم العاصفة، ولن يحكمـوا أبـدًا. وكـان «روبسبير» معبـودَ الشعب، تقيًّـــا ، وغيـورًا وشكَّاكًـــا ، وغيرَ مندفع . وكـــانت الضرورة تقضى بأن يُحَاط بمارات، والتأكد من رفقه بالنسبة إلى اليوم الذى قد يصبح فيه ديكتاتورًا ، والكل يتكهن بأنــه سيكون جبـــارًا وطاغيـــة فى يوم من الأيــام ، يدل على ذلك

---

(١) دى لاكـروا، جان فـرانسو: محام منتخب فى الجمعيـة التشريعية وفى الجمعيـة الوطنية، صـديق دانتـــون . معــارض لروبيسبير بشـــدة. عضـــو فى لجنة أمن الشعب، هاجـم الجيروندان. متهم بالإخـــلال «بأمانة الوظيفة»، وبإصدار نقود مزيفة، إلخ... مات مع دانتون فى الخامس من أبريل ١٧٩٤ .

(٢) البارون دى باتز : نائب عن الولايات ، ومنافس مجازف ، كان يحاول إنقاذ الملك وأن يُهرب الملكة، ويبدو أنه دفع كابو وديلوناى وجوليان دى تولوز إلى المزايدات على الأسهم التابعة لشركة الهند . نجح فى الإفلات من المقصلة .

شعبيته، وطموحه، والمسارعة للتحكم فى أقوى الموارد. وربما بعد كل ذلك يؤسس «مارات» النظام ويصلح المالية، وينشر الرفاهية . وقد ثار «مارات» عدة مرات ضد الحمقى الذين يزايدون عليه بالوطنية، ولم ينفك منذ زمنٍ أن حَذَّر المشاغبين بنفس الدرجة تقريبًا التى حذر بها المعتدلين. وبعد أن أثار الشعب لشنق الذين يحتكرون أقوات الشعب فى حوانيتهم المنهوبة، وحض المواطنين على الهدوء والحذر، أصبح رجل حكومة .

وبالرغم من بعض الشائعات التى تدور حوله، كما كانت تدور حول جميع رجال الثورة فإن هؤلاء المتطفلين لا يعتقدون أنه مُرْتَشٍ، ولكنهم يعرفون أنه مُتَبَاهٍ، وسريع التصديق، ويتعشمون أن يكسبوه بالإطراء والمديح، وخاصة بأُلفة متسامحة، والتى يعتقدون من ناحيتهم أنها من أفضل الإطراء الخادع، ويحسبون أنهم بفضل ذلك سوف يلعبون على الوجهين، ساعة معه، وساعة عليه، وينالون ما يرمون إليه من بيع وشراء كُلَّ ما يريدون، ويدفعونه إلى خدمة مصالحهم، ظنًّا منه أنهم لا يعملون إلَّا لصالح الشعب .

المواطنة «روشيمور» ماهرة فى تهيئة الأجواء، خاصة وهى لا تزال فى سن الحب والغراميات، فاضطلعت بمهمة الجمع بين الصحفى والعضو فى الهيئة التشريعية، وبين الممول البنكى، وتصورها الجنونى قَدَّمَ لها رجلَ أموال المقامرة الذى لا تزال يداه مخضبتين بدماء شهر سبتمبر، مشتركًا فى حزب الماليين، حيث تعتبر هى وكيلة لهم . وألقت بحساسيتها وبراءتها فى خضم هذه الأعمال المالية المربحة فى هذا العالم الذى تحبه :

عالم المحتكرين، والممولين، والمبعوثين من الخارج، والمشاركين فى المشروع، وذوات الدَّلال المتحذلقات .

أصرت على أن يصطحبها المواطن «جاميلان» عند صديق الشعب ، الذى يقيم غير بعيد فى شارع كورديلييه، بالقرب من الكنيسة.

وبعد أن أبدى بعض المقاومة أذعن الرسام لرغبة المواطنة .

أمَّا «هنرى» الجندى الفارس فقد دُعِىَ للانضمام إليهما، ولكنه يرفض راغبًا فى المحافظة على حريته، حتى حيال المواطن «مارات» الذى - بلا مراء - قَدَّمَ خدمات إلى الجمهورية، ولكنه الآن قد وهنت عزيمته، أفلم يُشِرْ على شعب باريس بالانقياد ؟

ويرثى الشاب «هنرى» - بصوت منغم وبتنهيدات طويلة - الجمهورية التى خانها مَنْ عَلَّقت عليهم آمالها ، «دانتون» رفض فكرة الضريبة على الأغنياء ، و «روبيسبير» يعارض الدوائر ، و «مارات» ، نصائحه الجبانة كانت تحطم حماس المواطنين .

- صاح «هنرى» : أوه ! يالضعف هؤلاء الرجال حيال «لوكليرك»(١)، و«جاك رو»(٢)! إنهما - «لوكليرك» و «جاك رو» - صديقا الشعب

---

(١) لوكليرك : استبعده اليعقوبيون لتطرفه، وانتقل إلى الرهبان الفرنسيسكان، ونادى بنفسه خليفة لمارات .

(٢) جاك رو : كاهن صدر ضده حكم يُحرِّم عليه ممارسة وظيفته . وهو أحد أعضاء مجلس العموم الأشد عنفًا، فقد رفض طلبهم بأن يقوم بإعدام لويس السادس عشر وقال : «إننى هنا فقط لكى أصطحبكم إلى المشنقة » . وعندما أُرسِل إلى محكمة الثورة فى سبتمبر ١٧٩٣ ، طعن نفسه .

الحقيقيان ! «جاميلان» لم يسمع هذا الحديث، الذى قد يجعله ناقمًا، كان قد ذهب إلى الغرفة المجاورة لكى يرتدى زيه الأزرق .

قالت المواطنة «روشيمور» للمواطنة جاميلان : «لَكِ أن تتفاخرى بولدك، إنه عظيم بموهبته وبأخلاقه ».

وتجيب المواطنة الأرملة جاميلان بشهادة طيبة عن ابنها دون كبرياء أمام سيدة كريمة المحتد، لأنها تعلمت منذ طفولتها أن أول واجبٍ للصغار هو التواضع نحو الكبار . وقد كانت ميالة إلى الشكوى، وكانت تجعل من شكواها موضوعها الرئيسى، لأنها تجد فى شكواها مواساة لآلامها . وتكثر من شكواها أمام هؤلاء الذين تعتقد أنهم قادرون على مواساتها، ومدام «دى روشيمور»، تظن أنها من ضمن هؤلاء . لقد استثمرت اللحظة المواتية؛ قصت فى نَفَسٍ واحد بؤس الأم والابن، والاثنان يتضوران جوعًا، حيث لا تُباع أى لوحات، فالثورة قضت على التجارة، كأنها ذبحتها بسكين. والمواد الغذائية أصبحت نادرة، والأسعار ليست فى متناول الأفراد ...

وتتمادى السيدة الطيبة فى شكواها بكل زلاقة اللسان من شفتيها اللينَتَيْنِ، حتى تستطيع أن تقول كل ما لديها بسرعة قبل أن يظهر ابنها الذى يمنعه دائمًا كبرياؤه عن أى شكوى .

وكانت تحاول جاهدة فى أقصر وقت ممكن أن تؤثر فى سيدة ترى أنها ثرية ومرموقة، وتجعلها تهتم بمصير ابنها. وكانت تشعر بأن جمال «إيفاريست» يلعب دورًا كبيرًا ليجذب حنان امرأة كريمة الأصل .

وفى الواقع أبدت المواطنة «روشيمور» تأثرها ، فقد تأثرت بفكرة آلام «إيفـــاريست» ووالدته، وبحثت عن الـوسـائل التـى تخفف هذه الآلام، وعملت على شراء أعمال الرسام عن طريق بعض أصدقائها الأثرياء .

وقالت وهى تبتسم : إنه توجد فى فرنسا أموال لا تزال مخبوءة .

وأفضل من ذلك أيضًـا (نظرًا لأن سوق الفن قـد كَسَد)، فهى ستجـد عملاً من أجل «إيفاريست» عنـد «مورهاردت» أو عند الإخوة بيريجو، أو وظيفة حكوميـة عند أحد ممولى الأسلحـة. ثم فكرت فى أن ذلك لا يناسب رجـلاً يتمتع بهذه الأخلاق، وبعـد لحظة إمعـان فى الفكر، صدرت منهـا حركة بأنها وجدت الحل :

– بَقِى تعيين الكثير من المحلفين فى محكمـة الثـورة. يُعَيَّن مُحلَّفًـا أو قَـاضيًـا، هذا هو الذى ينـاسب وَلَدكِ. إننى على صلة مع أعضـاء لجنة الخلاص الشعبى، وأعرف روبسبير البكرى، فأخوه يتناول العشاء دائمًا عندى. سـوف أُكلمهم فى الأمـر ، وسأتكلم مع كـل مـونتـانيـه(١)، وديماس(٢)، وفوكييه(٣) .

وهنا بَدَت المواطنة جـاميـلان متـأثرة ومعترفـة بالجميل، ووضعت

---

(١) مونتانيه : قاضٍ من تولوز ، وأول رئيس لمحكمة الثورة، طُرِدَ بسبب « اعتداله » .

(٢) ديماس، رينيه فـرانسو: كـاهن سابق ، ومحام فى حماية روبسبير، ونائب رئيس محكمـة الثورة التى رأسها اعتبارًا من الثامن من أبريل ١٧٩٤، يتمثـل فيه التعصب الذى وصفه أناتول فرانس. تم إعدامه بالمقصلة هو وروبسبير فى الثامن والعشرين من يوليو ١٧٩٤ .

(٣) فـوكييه – تانفيل : عُين مـدعيًا عـامًـا فى محكمة الثـورة فى مارس ١٧٩٣، وصحبـه روبسبير إلى المقصلة .

أُصبعها على فمها كإشارة للتوقف عن الكلام، فقد عَادَ «إيفاريست» إلى المرسم .

نزل «إيفاريست» والمواطنة «روشيمور» على السلم المظلم ، كانت درجاته الخشبية والكاروهات، مغطاة بقذارة قديمة .

وعلى «البون –نوف» – وكانت الشمس غائمة – كانت تمتد الظلال على قاعدة تمثال لحصانٍ برونزى، وتُزينه الآن أعلام الأمة، وكان هناك جمع غفير من الناس رجال ونساء يستمعون، كانت كل مجموعة صغيرة على حدة، كانوا يستمعون إلى مواطنين يتحدثون بصوت منخفض .

وكان الجَمْعُ واجمًا ، يلتزم الصمت، الذى يتخلله على فترات أَنَّات وصيحات غضب، وكثير منهم كان يسرع الخُطَى نحو الطريق، شارع ثيونفيل، (شارع دوفين سابقاً)، وينساب «جاميلان» بين إحدى هذه الجماعات، فقد سمع أن «مارات» قد اُغتيل منذ قليل .

وريدًا رويدًا كان النبأ يتأكد ويتحدد، فقد اُغتيل فى مقصورته، على يد سيدة جاءت متعمدةً قتله من «كان»(١). البعض يعتقد أنها هربت، ولكن الأغلبية تقول إنها اعتُقِلَتْ .

كانوا هناك جميعًا، كأنهم قطيع لا رَاعِىَ له. وكان الجَمْعُ يقولون :

«إن «مارات» إنسان حَنُونٌ، وخَيِّرٌ.. «مارات» لن يقودنا بعد ، وهو الذى لم يخطىء قط ، وكان يتوقع كل شىء، وكان يجرؤ على أن يُظهر

---

(١) « كان » : إحدى المدن الفرنسية .

كل شيء !.... ما العمل ؟ وما الحيلة ؟ لقد فقدنا مستشارنا، والمُدافِعُ عنا، وصديقنا ». إنهم يعرفون من أين جاءت الضربة، ومن الذى صَوَّبَ ذراع المرأة. إنهم يتألمون.. ويقول الجمهور:

– إن الأيدى الآثمة التى ضربت «مارات» هى نفسها التى تريد أن تقضى علينا . إن موته علامة لذبح جميع الوطنيين .

اختلفت التقارير حول ظروف هذا الموت المأساوى، وآخِر كلمات الضحية، وجرت التساؤلات حول القاتلة، التى لا يُعرف عنها سوى أنها سيدة شابة أرسلها الخونة الفيدراليون.

أَمَّا المواطنات فقد كَشَّرن عن أنيابهن، وأبرزن مخالبهن من مكامنها، وتَوَّعَدْنَ المجرمة بالتعذيب، ووجدن أن المقصلة بالنسبة لها رقيقة ليِّنة، فطالبن بِجَلْد هذه الغولة الآثمة، ورَبْطها فى عجلة التعذيب والتمزيق، وتخيلن شتى ألوان التعذيب .

وكان بعض أفراد الحرس الوطنى المسلحون يسحبون إلى القطاع رجلاً يبدو عليه مظهر الواثق. كانت ملابسه مُمَزَّقة، وتسيل الدماء خطوطًا على وجهه الشاحب، فقد فَاجَئُوهُ وهو يقول إن «مارات» يستحق المصير الذى آل أليه بتحريضه دائمًا على السلب والنهب والقتل. وبصعوبة بالغة تمكن جنود الحرس الوطنى من انتشاله من بين براثن الشعب الغاضب.. وكانت تشير إليه أصابع الاتهام بأنه متواطئ مع القاتلة. وارتفعت صيحات التنديد والتهديد بالموت عند مروره .

ظل «جـــاميـلان» يتملكه الغيظ والألم، وجفت دمـوعـــه فى مقلتيـه المتقـــدتين، وامتـزجت آلامـــه البنوية مع الحماس الوطنى والإصـــلاح الشعبى ليمزقوه داخليًّا، وكان يفكر :

«.. «مـارات» بعـد «لوبيلتيـيـه»، وبعـد «بوردون»[1]!... كنت أعـرف مصير الوطنيين الذين ذُبِحوا ففى «شـاى دى مارس»، وفى «نانسى» وفى «باريس».. لقد هلكوا جميعا !».

وكان يفكر فى الخائن «ويمبفين»[2] الذى كـان منذ عهد قريـب أيضًـا على رأس حشد فوضوى يبلغ ستين ألفًا من الملكيين ساروا نحو باريس، والذى لولا أن أُلقى القبض عليه فى «فيرنـون» بأيدى الوطنيين الشجعان، لكان أشعل الفتنة فى المدينة الباسلة والمنيعة .

وكم من الأخطار أيضًـا كَشَفَها «مارات»، وكم من مشروعات إجرامية وخيانات، لا يمكن إلا لِحِكْمَـة ويقظة «مارات» معـرفتها وإحبـاطها ! من يستطيع من بعده أن يتعرض إلى «كـوستين»، العاطل فى معسكر سيزار، والذى يرفض فك الحصـــار عن «فـانسيان»، أو «بيرون» الكســول[3] فى فـانـديه - السفلى، تركـه يستــولى على «ســومـــور» ويحاصر «نانت»، و«ديلون»[4] الخائن للوطن فى «آرجون»؟...

(١) بوردون ، ليونارد : محامٍ وخطيب، ومنتخب فى الجمعية الوطنية عن لواريه . ساهم فى الثيرميدور التاسع .

(٢) ويمبفين : قائد فرنسى ، ولد سنة ١٧٤٤ ، ومات سنة ١٨١٤ .

(٣) « بيرون » : قائد فرنسى ، قُطع رأسه سنة ١٧٩٣ .

(٤) « ديلون » : قائد ولد فى دبلن سنة ١٧٤٥ ، وخدم فى فرنسا .

وعندئذ يزداد الصراخ من حوله، من لحظة إلى أخرى، ويتعالى الهتاف المشئوم :

– مات «مارات»، قتله الأرستقراطيون !

وبينما كان القلب مفعمًا بالألم والبغض والصبابة ذَهَبَ لتأبين شهيد الحرية، واقتربت منه فلاحة عجوز ترتدى غطاء رأس لِيمُوزِنِيٍّ(١)، وسألته عَمَّا إذا كان السيد «مارات» الذى أُغتيل، أليس هو السيد «مارات» القس، من «سان بيير – دى – كاى روا»؟...

* * *

فى اليوم السابق للعيد ، ذات مساء هادئ ومضئ، كانت «إيلودى» متأبطة ذراع «إيفاريست» يتنزهان فى ميدان الفيديراسيون، (أى ميدان الاتحاد الفيدرالى).

وكان عمال ينجزون على عَجَلَةٍ منهم إقامة أعمدة، وتماثيل، ومعابد، وجبل، وكنيسة. وتُنْصب رموزٌ عملاقة، هيرقل شعبى يلوح بهراوته، والطبيعة ترضع الكون من ضرعها الذى لا ينضب.. كانت هذه الرمزيات منتصبة فى العاصمة التى صارت فجأة فريسة للمجاعة وللإرهاب، وكأن أهلها يُنصتون لسماع المدافع النمساوية فى طريق «الْمو»(٢).

وعوَّضت «الفاندية» فشلها أمام «نانت» بانتصارات باسلة، دائرة من السيوف والنيران ومن الغضب تحيط بالمدينة العظيمة الثائرة، وعلاوة

---

(١) نسبة إلى «ليموزن» بلد فى فرنسا .

(٢) الْـمُو : مدينة فرنسية صغيرة .

على ذلك كانت تستقبل بعظمة نواب الجمعيات الأولية الذين تقبلوا الدستور ، وكان الاتحاد الفيدرالى قد هزم ، وستهزم الجمهورية الواحدة التى لاتتجزأ جميع أعدائها .

ويقول «إيفاريست» باسطًا ذراعيه على السهل المزدحم :

– «هنالك، فى ١٧ يوليو ١٧٩١ أطلق «بايى» الخائن النار على الشعب عند سفح كنيسة الوطن . وكان المدعو «باسافان» – رامى القنابل اليدوية – شاهدًا على المذبحة، وعندما عاد إلى منزله مَزَّقَ ملابسه وصاح: «لقد أقسمتُ أن أموت مع الحرية، ولكنها ليست حرية أبدًا ، لابد أن أموت»، وأطلق الرصاص على رأسه .

وبعد ذلك، قام الفنانون والبورجوازيون، فى هدوء، بفحص استعدادات العيد، يُقْرَأ على وجوههم حب الحياة النكدة كحياتهم أنفسهم: إن أعظم الأحداث عندما تدخل فى فكرهم، تنتقص من حجمها، وتصبح تافهة مثلهم. وكان كل زوجين يسيران يحملان بين ذراعيهما، أو يجران خلفهما، أو يجرى أمامهما أطفال لم يكونوا على درجة كبيرة من الجمال مثل والديهم، ولا يُـؤْمَل بأن يكونوا أكثر سعادة، والذين سيهبون الحياة لأطفال آخرين على درجة متوسطة مثلهم من البهجة والجمال . وأحيانًا نَرَى فتاةً طويلة وجميلة والتى توحى فى مرورها أمام الشباب برغبة عظيمة، وللعواجيز بأسفٍ على الحياة الجميلة ».

وبالقرب من المدرسة العسكرية، أشار «إيفاريست» لإيلودى إلى

تماثيل مصرية رسمها «دافيد» تبعًا لنماذج رومانية من عهد «أغسطس».. وهنالك يسمعان عجوزًا باريسيًّا مُعَفَّرًا يصيح :

- إن المرء ليظن نفسه على ضِفَاف النيل !

«إيلودى» لم تر صديقها منذ ثلاثة أيام، فقد تعرض متجر «لامور بانتر» إلى أحداث هامة. استُدعى المواطن «بلين» إلى لجنة الأمن العام من أجل غش الواردات.. ولحُسن الحظ، أن تاجر «الرشم»[1] كان معروفًا فى قطاعه، فأُطلِق سراحه بضمان لجنة مراقبة القطاع .

وبعد أن سردت هذا الحدث وهى متأثرة، أضافت «إيلودى» :

- والآن نعيش فى هدوء، ولكن الإنذار كان شديدًا، كان لابد من حدوث ذلك ، حتى لا يُودَع أبى فى السجن. ولو كان الخطر تأخر قليلاً، لكنت جئتُ إليك أطلب منك التدخل بنفوذ بعض أصدقائك لصالحه .

ولم يُجِبْ «إيفاريست» عن ذلك، وقد كانت «إيلودى» بعيدة عن أن تدرك معنى هذا الصمت. كانا يسيران - يده فى يدها - بحذاء جرف نهر السين . كانا يتبادلان حديثًا حنونًا بلغة جُولى وسان برو[2]، وقد منحهم جان جاك الطيب وسائل التعبير عن حبهم وتزيينه .

وقد قامت دار البلدية بتكملة هذه المعجزة، حتى يعم الخير فى يوم من الأيام تلك المدينة الجائعة، فأقامت سوقًا فى ميدان الأنفاليد، وعلى ضفة

---

(١) المراد بالرشم : الصور المطبوعة .
(٢) اسم رواية لجان جاك رسو ، أَغْوَى فيها سان برو الفتاة جولى .

النهـر ، فأقـامت أكشـاكًـا بها تجار يبيعـون خبـزًا أسطوانيًّ الشكل ، ومقـانقَ، وسـجقًا، ولحمَ خنـزير مغطىً بورق اللورى، وحلويات نانتير، وفطائـرَ حلوة، وكعكَ الأبازير، وخبـزًا بوزن أربعة أرطال ، وليمـونادة، ونبيذًا .

وكانت توجـد أيضًـا بوتيكات، حيث تُباع الأغانى الوطنيـة ، وشارات وطنية، وشرائط ثـلاثية الألوان، ومحافظ، وسلاسل مـن النحاس، وكل أنواع اللهو .

وتوقف «إيفاريست» أمام معروضات صائغ متواضـع، واختار خاتمًا من الفضة نُقِشَ عليـه نقشٌ بارزٌ يمثل رأس «مارات» ملفـوف فى وشاح. وألبسه فى أصبع «إيلودى» .

وتوجَّه «جاميلان» فى هذا المسـاء إلى شارع «لاربر – سيك» (الشـجرة الجافـة)، عند المواطنة «روشيمـور» التى كانـت قد طلبتـه من أجل أمـر عـاجل . وجدها فى غـرفـة نومها متمـددة على «الشيـزلونج» بلا تكلف . وبينما كـان وضع المواطنة يعبر عن ارتخاء مثير، كـان كل شىء حَـوْلَها ينطق بمفاتنها وألاعيبهـا ومواهبها : قيثارة بالقـرب من مِعْزَف قيثارى منفرج قليلاً، وجيتارٍ على المقعد ، وأداة تطريز كانت مركبة على قماش من الستان، وعلى الطاولة منمنمة مرسـومة، وأوراق، وكتب ، ومكتبة تعمها الفـوضى، أتلفتهـا يد جميلة، بقـدر ما هـى متعطشة إلى المعـرفـة، فهى متعطشة إلى الإحساس . مدت إليه يدها ليقبلها ، وقالت له :

– تحيــاتى أيها المواطن المُحلِّف !.... اليــوم فقط سَلَّمنى «روبسبير البكرى» رسالة لصــالحك للرئيس «هيرمان»(١)، رسالة حُــرِّرت جيدا ، وتقول تقــريبًا : «أرسل إليك المواطن «جــاميلان»، موصــى عليــه لمواهبه ووطنيته. ورأيت من واجبى أن أُعرِّفك بمواطن له مبادئ، وسلوك حازم فى الخط الثـــورى، وأنت لن تترك فـــرصـــة لكى تكون نافعًــا لأحــد الجمهــوريين...» حملت هذه الرســالة دون تردد إلى الرئيس «هيرمــان»، الذى استقبلنى بأدب جَمٍّ، ووقع على تعيينك فى الحال . هذا ما تم .

قال « جاميلان » بعد لحظة من الصمت :

– أيتهــا المواطنــة، بالرغم من أنى لا أجــد لقمــة عيــش لى ولولدتى، فأُقسم بشرف أننى لا أقبل وظيفــة مُحَلِّف إلَّا لأخدم الجمهــورية، وأنتقم لها من كل أعدائها .

لاحظت المواطنة الشكر البــارد، والمجــاملــة الجافــة ، وعللت ذلك بأن «جاميــلان» تنقصه الرقة . ولكنها تحب الشبــاب كثيرًا ، فلم تؤاخذه على بعض الجفــاء . «جاميلان» كــان وسيما ، ووجدتْ أنه يستحق التقــدير. واعتقــدت أنه «سوف يُهذَّب» . ووجهت إليــه الدعوة إلى العشــاء عندها ، لأنها كانت تستقبل زُوَّارًا كل مساء ، بعد المسرح ، وقالت له :

– ســــــــوف تلتقى عنــدى بأنــاس من المفكــرين وذوى المواهــب :

---

(١) هيرمان : صديق روبسبير ، خلف مــونتانيه كرئيس لمحكمــة الثورة من أكتوبر ١٧٩٣ –إلى أبريل ١٧٩٤ . طُرِدَ وأُعدِمِ بالمقصلة مع فوكييه – تانفيل فى السابع من مايو ١٧٩٥ .

«إيلليفيو»(١)، و «تالما»(٢)، والمواطن «فيجى»(٣) الذى كان بـارعا فى نَظْم القوافى المُسْبَقَة لنظم الشعر بحسبها .

والمواطن «فرانسوا»(٤) قرأ لنا «باميلًّا» التى كتبها ، والتى كان يتكرر عـرضها على مسرح الأمـة. أسلوبها متأنق وخـالٍ من الشـوائب، ولبق ، وهى صفة لكل ما يكتبه المواطن «فرانسوا». المسرحية كانت مؤثرة، حتى أننا جميعًـا ذرفنا الـدمع . كـانت الشـابة «لانج» هـى التى تقـوم بدور «باميلّا».

أجاب « جاميلان » :

– سأستند إلى رأيك أيتها المواطنة ، ولكن مسرح الأمـة قليل الوطنية، ومن المؤسف بالنسبة إلى المواطن «فرانسوا» أن تكون أعماله مُنْصَبَّة على هذه المسرحيـات المُحقَّـرة بالأشعار البـائسـة التى يكتبهـا «لايا»(٥)، إن فضيحة « صديق القوانين »(٦) لم تُنْسَ ....

فقـالت : أيها المواطن « جاميـلان » ، أَتْرُكُ لك « لايا » ، فهـو ليس من أصدقائى .

---

(١) مطرب فرنسى ، ولد سنة ١٧٦٩ ، ومات سنة ١٨٤٢ .
(٢) ممثل فرنسى ، ولد سنة ١٧٦٣ ، ومات سنة ١٨٢٦ .
(٣) شاعر فرنسى ، ولد سنة ١٧٦٨ ، ومات سنة ١٨٢٠ .
(٤) فرانسـو دى نوف شاتو : شـاعر متمكن وأديب، وسيـاسى، كتب مسرحيته «باميلا». سُجِنَ فى الثالث من سبتمبر ١٧٩٣ ، وأُطلِقَ سراحه بعد الثيرميدور التاسع . عضو بالجمعية الوطنية . عُيِّنَ وزيرًا للداخلية فى ١٧٨٩ – ١٧٩٩ ، وأصبح فيما بعد سيناتورًا وكونتا للإمبراطورية .
(٥) « لايا » : شاعر فرنسى، ولد سنة ١٧٦١ ، ومات سنة ١٨٣٣ .
(٦) صديق القـوانين : مسرحية قُدمت على مسرح الأمة فى الثـانى من يناير سنة ١٧٩٣ فى وقت قضية الملك .

لم يكن مطلقًا بدافع الطيبة أن المواطنة قد استعملت نفوذها لتعيين «جاميلان» فى وظيفة مرموقة بعد ما صنعته من أجله، إنما كانت تهدف إلى رَبْطِه بها ربطًا وثيقًا، وتضمن لنفسها سندًا حيال عدالة قد تحتاج إليها ذات يوم، وذلك لأنها كانت ترسل الكثير من الخطابات داخل فرنسا وخارجها، وأن مراسلات مثل هذه كانت حينئذ تثير الشبهة .

– أتذهب إلى المسرح دائمًا أيها المواطن ؟

فى هذه اللحظة يدخل «هنرى » الجندى الفارس، الذى هو أجمل من الطفل «بافيلى»، دخل الغرفة حاملاً فى حزامه مُسدسين .

وَقَبَّل يد المواطنة الجميلة ، والتى قالت له :

– هذا هو المواطن «إيفاريست جاميلان»، والذى من أجله قضيتُ اليوم فى لجنة الأمن العام وهو غير مُمْتَنّ لى ، فعليك أن تؤنبه .

فقال « هنرى » صارخاً :

– آه ! أيتها المواطنة ، لقد قابلت مُشَرِّعينا فى التويليرى، يا له من مشهد محزن ! أَوَ ينبغى لمثلى شعب حر أن يقيموا تحت سقف أحد الطغاة ؟.. لقد كانت الثُّريات المضيئة تلقى أنوارها منذ عهد قريب على مؤامرات «كابيه»(١)، وعربدة أنطوانيت، إنها هى نفسها تلقى الضوء اليوم على ليالى مشرعينا. إن ذلك يُغضب الطبيعة.

فأجابت قائلة : صديقى ، قَدِّم التهنئة للمواطن «جاميلان»، قد تم تعيينه مُحَلِّفًا فى المحكمة الثورية .

---

(١) لقب أطلق على لويس السادس عشر بعد إلغاء الملكية .

قال «هنرى»: لَكَ تهنئتى، أيها المواطن ! فأنا يسعدنى أن أرى رجلًا فى مثل أخـــلاقك يضطلع بهذه الأعمال . ولكن أُصْـــدِقُكَ القـــول : إن ثقتى ضئيلة بهذه العدالة المنهاجية التى يبتكرهـا المعتدلون بالجمعية الوطنية، آلهة الانتقام هذه طيبة القلب ، فهى تحابى المتآمرين، وتعفو عن الخونة ، وتكاد تجرؤ على ضرب الفيـدراليين، وتخشى استدعـاء النمساوية أمـام المحكمة . لا ، ليســت المحكمة الثورية هـى التى سوف تُنقذ الجمهـورية. إنهم حقًّا مُذنبون هؤلاء الذين أَوْقفـوا - فى حالة اليأس - انطلاق العدالة الشعبية !

قالت المواطنة « روشيموز » : ناولنى هذه القارورة يا « هنرى »...

وعندمـا عاد «جـاميلان» إلى منـزله وجد والدته و «بروتو» العجـوز يلعبان الورق على ضوء شمعة مُدَخِّنَة . والمواطنة تعلن بلا حياء : « ثلاث ورقـات للملك»، وعندمـــا علمت أن ابنهـا أصبح مُحَلِّفًـا قَبَّلَتـــه بشـدة، متصـــورة أن ذلك شرف عظيم لكليهما، وأنهما من الآن فصـاعدًا سـوف يتناولان الطعام كل يوم .

قـالت الأم : إننى سعيـدة وفخـــورة لأننى أصبحت أُمَّ مُحَلِّف ، وهذا شىء جميل مثل العـــدالة ، وأهم شـــىء للجميع، فبـدون العـــدالة يُهان الضعفاء فى كل لحظة . وأعتقـد أنكَ ستحكم بالحق، يا «إيفاريست» وذلك لأنـــنى وَجَدْتُـكَ عـادلًا ورحيـما وشهـمًا فى كـل الأمـور منـذ صبـاكَ، ولا تستطيع أن تتحمل الظلم، وكنت تُقـاومُ كـل بَغْيٍ بما لديك من قـوة،

وكنت شفيقًا على البؤســاء، وهذا أفضل ما يتمتع به أى قاضٍ... ولكن قل لى يا«إيفاريست» : ماذا سترتدى فى هذه المحكمة الكبيرة ؟

أجابها : «جـاميلان» بأن القضاة يضعـون على رءوسـهم قبعة بريش أســود، ولكـنَّ المُحَلِّففين ليس لـهم زىٌّ معين، فهم يرتدون مـــلابسهم العادية.

قالت : كان من الأفضل أن يرتدوا «الروب والبــاروكة»، لأن مظهرهم هكذا يكون أكثـر احترامًــا . ومع أنك دائمًا ترتدى مـلابسك بلا مبـالاة ، فإنك تبـدو جميـلًا ، وأنت الذى تُزين مـا تـرتديه ، ولكن معظم الرجـال يحتـاجـون إلى بعض الزينة حتى يبـدو مظهـرهم محترمًـا . وكـان من الأفضل أن يرتدى المحلفون الروب، والباروكة .

كـانت المواطنة قـد سمعت أن أعمال المحلف فى المحكمــة مثمـرة، ولم تحرص على أن تسـأل عَمَّا إذا كـانت ستجنى مـا يُعيشـهم عيشة شريفـة، وقالت : إن المحلف يجب أن يكون فى صورة طيبة بين الناس .

وعلمت بما فيـه الكفاية أن المحلفين يتقاضــون مكافأة قيمتهـا ثمانية عشر جنيهًا عن الجلسة، وأن تزايد جرائم ضد أمن الدولة يُجبرهم على أن يحضروا دائمًا .

جَمَع «بروتو» العجوز ورق اللعب ، ونهض وقال لجاميلان :

– أيها المواطن ، لقــد تقلدت منصب قــاضٍ عظيم لا يُشق لـه غبـار . أُهنئك بأن تُضفى بأنوار ضميرك على محكمــة أكثر أمــانًا، وأقل عرضــة للخطأ، ربما عن أى شـىء آخـر، لأنـها تبحث عن الخير والشر، لا من حيث

هما أو من حيث جـوهرهما ،ولكن فقط بالنسبـة إلى المصـالح الحقيقيـة، والمشاعر الصريحة. وسيكون عليك أن تحكم بين الحب والكراهية، وذلك مـا سـوف يكون عن غـريزة ، وليـس بين الصح والخطأ اللَّذَيْن يتعـذر التمييـز بينهما بالنسبـة إلى ضـعـاف العقـول من الرجـال . أُحْكُمْ وفقًـا لخفقات قلبك ، فأنتم – معشر المحلِّفين – لـن تجازفوا بالخطأ، شريطة أن يكون الحُكم مُـرضيًا للعـواطف ، التى هى شريعتكم المقدسـة . ولكن لو كنتُ فى مكان رئيسكم لفعلتُ مثلما فعل «بريدوا[(١)]» ، وفـوضتُ الأمـر فى ذلك إلى لعبة القـدر فهذه أسلم وسيلة فى إقـامة العدالة ، وهى أيضًـا أكثر أمانًا .

* * *

كان لزامًـا على «إيفاريست جـاميلان» أن يبـدأ أعماله اعتبارًا من ١٤ سبتمبر، عند إعـادة تنظيم المحكمة، المقسمـة من الآن فصاعـدًا إلى أربعة قطاعات، لكل قطاع خمسة عشر مُحَلِّفًا، وكانت السجون مكتظة، والمدعى العام كان يعمل ثمانىَ عشرة ساعة يوميًّا .

كانت الجمعيـة الوطنية تقـاوم الإرهاب، وهزائم الجيوش ، وتـواجه الثورات فى المقـاطعات، وكذلك الدسائس والمؤامـرات، والخيانات، الآلهة كانت عَطْشَى .

إن أول ما قام به المُحَلِّف الجديد زيارة تكريمٍ للرئيس «هيرمان»، الذى

(١) بريدوا : رجل خيالى هزلى جعل منه الكاتب الفـرنسى رابليه قاضيًا تقـوم أحكامه على نتيجة رَمْى النَّرْد .

امتدحــه لحلاوة حديثــه ورِقَّة عــلاقته . إنه مواطن وصــديق لروبسبير، الذى كان يقــاسمه شعوره، ويرى فيــه قلباً حساسًــا وفاضلا. لقــد كان متعمقــاً فى هذه الإحســاســات الإنسانيــة التى كــانت غــريبــة على قلوب القضـــاة، والتى صنـــعت المجـــد الأزلى لــكــل مــــن « دى بــاتــى »(١) و«بيكاريا»(٢) .

وشعر بارتياح للتخفيف من العــادات التى ظهرت فى النظام القضائى بإلغاء التعـذيب الجائر، وألوان التعـذيب المخزية والمتــوحشة. وعبَّر عن سروره بما حدث بصدد جريمة الإعدام التى كانت تُطَبق سابقًا لقمع أقل وأصغــر الجرائــم، وأصبحت هذه العقــوبة نــادرة جــدًّا، ومقتصرة على الجرائم العُظمى. ومن جهته – مثل روبسبير – ألغــاها عن طيب خاطر فى كل مــا لا يمس الأمن العام، ولكنه اعتقــد أنه يخون الدولة إنْ لم يعــاقب بالإعدام الجرائم التى تُرتكب ضد سيادة الأمة .

إن جميع زمــلائــه يفكرون هكــذا : أن فكرة الملكيــة القــديمــة حــول «مصلحــة الدولة» قــد أوحت بمحكمــة الثــورة، وأن ثمانيــة قــرون من السلطة المطلقة قد شكلت هؤلاء القضــاة، ووفقًا لمبادئ الحق الإلٰهى كانت تقاضـى أعداء الحرية .

ومَثُل «إيفاريست جاميلان» فى نفــس اليوم أمامَ المدعى العام، المواطن «فوكييه»، الذى استقبله فى مكتبه ، حيث كــان يعمل مع كاتبه. كان رجلًا

(١) « دى باتى » : محامٍ عام ورئيس برلمان بوردو .

(٢) بيكاريا، سيزار بونيانا، ماركيز : محلف من ميلانو. مؤلف «مخالفات وعقوبات » .

ضَخْمَ الخِلْقَة، أجَشَّ الصوت، وله عينان كعيون السِّنَّوْر فى وسط وجهه العريض، وبشرته الرصاصية اللون. كان مظهره بصفة عامة يُعبِّر عن الأضرار التى سببها الجلوس المستمر والانزواء وعدم الحركة للرجال الأقوياء الذين خُلِقوا للهواء الطلق والتمرينات العنيفة . وكانت الملفات ترتفع من حوله كحوائط القبور، والذى نراه أنه كان يُحب هذه الأوراق العديمة الفائدة، الرهيبة، والتى تبدو أنها ستخنقه. وكانت له مقاصد قاضٍ مجتهدٍ، عاكف على القيام بواجباته، ولم يكن فكره يخرج عن دائرة أعماله. كانت تفوح من أنفاسه رائحة «العرقى»[1] الذى يتناوله ليساعده على التماسك، والذى يبدو أنه لم تصعد فائدته إلى مخه طالما أن كلماته لم تكن واضحة، وكانت دون المتوسط .

كان يقيم فى شقة صغيرة فى القصر مع زوجته الشابة، والتى أنجبت له تَوْءَمًا، وكانت هذه الزوجة الشابة، والعمة «هنرييت»، والخادمة «بيلاجى» يُشكلون كل أسرته. وكان يظهر طيبًا ورفيقًا مع هؤلاء النسوة. ثم إنه كان رجلًا عظيمًا مع أفراد عائلته، وكان فى مهنته بدون أفكار كثيرة، وبدون أى تطلعات .

لم يستطع «جاميلان» أن يخفى ملاحظاته ببعض الاستياء ، عن أن هؤلاء، القضاة فى النظام الجديد يشبهون فى تصرفاتهم وروحهم قضاة النظام القديم. وكان منهم «هيرمان» الذى مارَسَ أعمال محامٍ عام فى مجلس «الآرتوا»، وكان «فوكييه» نائبًا سابقًا فى «الشاتيليه». كانوا

---

(١) مشروب كحولى مسكر يتخذ من العنب وغيره .

يحتفظون بطبعهم، ولكن «إيفاريست جاميلان» كان يؤمن بالتجديد الثورى .

ويغادر مقر المحكمة ويعبر رواق القصر، ويتوقف أمام «البوتيكات»، حيث كانت تُعرض شتى أنواع المعروضات بطريقة فنية، ويلقى نظرة على معرض السيدة المواطنة «تينو»، ثم تصفح أعمالًا تاريخية وسياسية وفلسفية، مثل سلاسل الاستعباد، ومقال عن الحكم الاستبدادى، وجرائم الملكات. ويقول مفكرا :«حمدًا لله ! كل هذه المؤلفات جمهورية !». وسأل صاحبة المكتبة عَمَّا إذا كانت تبيع كثيرًا من هذه الكتب .

فهزت رأسها وقالت :

– لا نبيع سوى الأغانى والقصص، وأخرجت من أحد الأدراج مُجلدًا صغيرًا : وأضافت قائلة :

– هذا شىء جيد .

قرأ «إيفاريست» عنوان الغلاف : «الراهبة ترتدى قميصًا». ويقابل أمام البوتيك المجاور «فيليب ديماهيس»، الذى كان بين العطور ومساحيق الزينة، كان رقيقًا وعظيمًا ، وهو يُطَمئِّن المواطنة «سان – جور» البائعة الجميلة على حبها، ويَعِدُها بأن يرسم لها صورة، وطلب منها موعدًا ليتحدث معها فى حديقة «التويليرى» فى المساء . كان جميلًا، وله قُدرة على الإقناع تسيل من بين شفتيه، وتنبجس من عينيه. وتنصت إليه المواطنة «سان – جور» مطرقة فى صمتٍ ، وكانت تميل إلى تصديقه .

ولكى يتأقلم مع الأعمال الشاقة التى كُلِّف بها ،أراد المحلَّف الجديد أن يختلط بالجماهير، فحضر أحد أحام المحكمة . ارتقى الدرج بصعوبة، حيث كان يجلس عليه جمهور كبير كأنهم فى مدرج لإلقاء الدروس، ودَلَفَ إلى قاعة البرلمان القديمة فى باريس .

كانت الجماهير تكاد تختنق من شدة الزحام من أجل رؤية محاكمة أحد الجنرالات، لأنه فى ذلك الوقت، كما كان يقول «بروتو» العجوز : «الجمعية الوطنية، على مثال صاحبة الجلالة البريطانية، تأمر بمحاكمة الجنرالات المهزومين، إن لم يوجد جنرالات خونة، فهؤلاء لن يفلتوا أبدًا من المحاكمة». وأضاف «بروتو»: لم يكن بالضرورة أن أى جنرال مهزوم يكون مجرمًا، لأنه من الضرورة أن يكون هناك واحد مغلوب فى كل معركة. ولكن لا يساوى شيئًا أن تحكم على جنرال بالإعدام لتهب الحياة إلى الآخرين...».

لقد جلس الكثير منهم على مقعد المدعى ، مِنْ هؤلاء العسكريين التافهين ومتصلبى الرأى مَنْ لهم عقولُ العصافير فى أجسام العجول . ومنهم ذلك الذى لا يعرف شيئًا عن الحصار والمعارك التى قادها أكثر مِمَّا يعرف القاضى الذى يحقق معه، والاتهام والدفاع تلاشوا فى الجنود والأهداف، والذخائر ، والمسيرات ، والمسيرات المضادة .

كان الجمع الغفير من المواطنين الذين يتابعون هذه المناقشات الغامضة التى لا تنتهى يَرَى خلفَ القائدِ السخيف الوطنَ مفتوحًا وممزقًا، يقاسى لموت الآلاف . وكان هؤلاء الوطنيون بنظراتهم

وبأصـــواتهم يستعجلـــون المحلفين الهادئين على مقــاعــدهــم ، بــإصـــدار جكمهم كضربة من هراوة على أعداء الجمهورية .

كــان «إيفــاريست» يشعــر بذلك بحـــرارة . إنَّ مــا يجب أن يُضرب فى شخص هذا البـائس هما الوحشـــان اللذان يُمزقــان الوطن : العصيــان ، والهزيمة . كــان الأمر يتعلق بحق ، بمعرفة مــا إذا كان هذا الجندى بريئًا أم مــذنبًــا ! وعندمـــا استعادت « لافــاندية » شجــاعتهــا ، ولمّا استسلمت «طولون»(١) للعدو، وعندما تقهقرَ جيش «الرَّاين» أمام غزاة مايانس، ولمَّا انسحب جيش الشمال إلى معسكر «سيــزار»، كان فى الإمكان الاستيــلاء عليهــا بهجـــوم عسكرى مفــاجئ لكل مــن الإمبراطوريين، والإنجليــز، والهولانديين، وحكام فالانسيــان، والذى كان مُهِمًّا هو تعليم القــادة إمَّا النصر أو الموت .

وعندما رأَى «جاميلان» هذا الجنــدىَّ المرتزق العاجز والمخبول ، الذى كــان فى الجلسة مضطربًا، كما اضطــربَ هناك فى سهول الشمال، خــرج «جاميلان» مسرعًا من القاعة حتى لا يهتف مع الجمهور : « إلى الموت !».

وفى جمعيــة القطاع تلقى المُحَلِّف الجديــد تهانى الرئيس «أوليفييــه»، الذى جعله يؤدى القَسَـــم عند الهيكل الرئيسى القــديــم البرنابى ، والذى تحول إلى هيكل الوطن، على أن يخنق فى نفسه – باسم الإنسانيــة المقدسة – أىَّ ضعف إنسانى .

---

(١) طولون : ميناء فرنسى حربى مشهور .

ويرفع «جاميلان» يده بـالقسم ، مستشهدا بالأرواح العظيمة لمارات شهيـد الحرية ، والذى وُضع له تمثـال نصفى حديـث على أحد الأعمدة أمام الكنيسة، أمام تمثال «لوبيليتييه» النصفى .

وتُدَوِّى بعض الهتافات مع التصفيق مختلطة بهْمهمة . كانت الجمعية متهيجـة . وعند مـدخل جناح الكنيسـة كـانت مجمـوعـة من القطاعيين (كتائب) مسلحين برماح قصيرة يُرددون الصيحات .

قـال الرئيس : إن من يحمل سلاحًـا فى اجتماع للرجـال الأحرار يُعَـدُّ مناهضًا للجمهورية. وأصدر أمره فى الحال بالتخلى عن البنادق والرماح وإيداعها فى مخزن الأمتعة المقدسة (عبارة عن حجرة صغيرة فى الكنيسة للحرس).

وجـاء المواطن «بوفيـزاج» من لجنة المراقبـة – وكـان أحـدب ، ثاقب النظرات، مقلوب الشفتين – جـاء واعتلى المنبر الذى أصبح منصـة، واضعًا على رأسه غطاء أحمر اللون، وقال :

– « القـادة يخونونا ، ويُسلِّمـون جيـوشنا للعـدو، والإمبراطوريون يدفعـون بأحـزاب من الفـرسـان حـول بيرون، وسـان – كـوينتـان، و«طولون» سُلِّمت للإنجليز الذين أنزلوا فيهـا أربعة عشر ألف رجلًا . إن أعداء الجمهورية يتآمرون من داخل الجمعية الوطنية نفسها .

وفى العـاصمـة دُبِّرَ العديد مـن المؤامرات لإنقـاذ النمسـاوية(١)، وفى اللحظة التى أتحدث فيهـا، تدور شـائعات بأن الابن «كـابيـه» هرب من

(١) المقصود بها الملكة .

المعبد، وحُمِل بنجـاح باهر إلى «سـان – كلود»، والمراد أَنْ يُرفَع على عرش الطاغية .

إن غلاء مواد المعيشة، وانخفاض قيمة الحوالات الحكومية، هما سبب المناورات الواقعة بيننا ، وتحت أعيننا، وعن طريق عمـلاء أجانب. فباسم الشعب وسـلامتـه، أُطالب المواطـن المحلِّف بألَّا تأخـذه شفقـة أو رحمة بالمتآمرين والخونة ».

وبينما هو نازل من على المنصـــة ، ارتفعت الأصـــوات فى الجمعيـة : «لتسقط محكمة الثورة ! ، ليسقط المعتدلون !».

وصَعَدَ المواطن «ديبون اينيه» – وهو ضـخم ومزدهر البشرة، ويعمل نجارًا فى ميـدان ثيونفيل – صعد إلى المنصة وأراد كما يقـول – أن يوجه سؤالًا إلى المواطن المحلِّف. وســأل «جاميلان» عن مـوقفه بصـدد قضية عائلة «بريسوتان» ، والأرملة «كابية».

كان «إيفـاريست» خجولًا، ولا يعـرف مطلقًا التحدث أمـام الجمهور، ولكن الإثارة ألهمته، فنهض شاحب الوجه، وقال بصوت مختنق :

– أنا قاضٍ ، ولا أُشـهد إلَّا ضـميرى، وأىُّ وعْدٍ منى لكم سيكون مخالفًا لواجبى. يجب أن أتحدث فى المحكمة، وأن التزم الصمت فى أىِّ مكان آخر . أنا لا أعرفكم. أنا قاضٍ : لا أعرف صديقًا ، ولا عدوًّا .

كانت الجمعيـة متنوعة، حائرة مترددة، مثل جميع الجمعيـات، لكنها قَرَّتْ أخيرًا. وعاد المواطن «ديبون إينيه» إلى العمل، لن يسامح «جاميلان» فى تولِّيه منصبًا، كان هو نفسه يطمع فيه .. فقال :

– «أنا فـاهـم، وأستحسن وسـاوس المواطن المحلِّف، الـذى يقـال له

وطنى، ولكن عليه أن يرينا ما إذا كان ضميره يسمح له أن يحتل مكانه فى محكمة مُخَصَّصَة لتحطيم أعداء الجمهورية، وموطدة العزم على أن تحتاط منهم. وتوجد تَوَاطُئَات ينبغى على الصالح أن يتملص منها. ألم يتحقق من أن العديد من المحلفين فى هذه المحكمة استسلموا للرشوة بأموال المتهمين، وأن الرئيس «مونتانيه» قد ارتكب خطأً لينقذ رأس الفتاة «كورداى».

وعقب هذه الكلمات ضجت القاعة بالتصفيق الحاد. وكذلك ارتفع الضجيج إلى القباب عندما صعد «فورتينيه تروبير» إلى المنصة، وبَدَا أنه ازداد نحافة فى هذه الشهور الأخيرة. وفى وجهه الشاحب وجنتان حمراوان تخترقان الجلد، وجفونه كانت ملتهبة وحدقتاه شبيهتان بالزجاج . قال بصوت ضعيف لاهث :

– أيها المواطنون، إننا لا نستطيع أن نشتبه فى الجمعية الوطنية، ولجنة الخلاص الشعبى التى تنبثق منها فى آن واحد. وقد أنذرنا المواطن «بوفيزاج» عندما أوضح لنا أن الرئيس «مونتانيه» أفسد دعوى لصالح أحد المذنبين. وأنه لم يُضف من أجل راحتنا وطمأنتنا سوى – وفقًا لبلاغ المدعى العام – أن «مونتانيه» قد خُلِع وأُودِع السجن؟... ألا نستطيع أن نسهر على الخلاص الشعبى دون أن نبذر التشكيك فى كل مكان ؟ ألا توجد فى الجمعية مواهب أو فضائل؟ أو ليس «روبسبير» ، و «كوثون»، و «سان جوست» رجالًا أشرافًا ؟.. من الواضح أن أعنف الكلمات التى سمعناها صدرت عن أفراد لم نرهم قط يحاربون من أجل الجمهورية ! وما كان لديهم غير هذا الحديث حتى يجعلوها مكروهة .

أيها المواطنون ، قليل من الضـوضـاء ، وكثير من العمل ! فبالمدافع وليس بالصيحات ننقذ فرنسا. إن نِصْف أقبية القطاع لم تُفتَش بعد ، وكثير من المواطنين لا يزالون يحتفظون بكميات هائلة من البرونز. ونُذَكِّر الأغنياء بأن الهبات الوطنية هى أفضل وسائل الضمان. وأوصيكم بأن تكونوا كرامًا نحو بنات وزوجات جنودنا البواسل على جبهة نهر اللوار . أحدهم جندى خياله «يوميبه» (أوجيستان)، الذى كان مختصًّا بالمؤن بشارع أورشليم سابقًا، وفى اليوم العاشر من الشهر الماضى – أمام كونديه – كان يقود بعض الخيول للشرب، فهاجمه ستة من الفُرسان النمساويين : فَقَتَلَ منهم اثنين، وأَسَرَ الآخرين، وأطلب من القِطاع أن يُعلن أن «يوميبه» (أوجيستان) قد قام بواجبه ».

وصفق الحاضرون لهذا الخطاب ، وتفرقوا وهم يهتفون : «تحيا الجمهورية !».

وظل بمفرده فى القاعة مع « تروبير »، فصافحه « جاميلان » وشَدَّ على يده قائلا :

– أشكرك . كيف حالك ؟

أجاب «تروبير» وهو يُسعل فى منديله بصاقًا مع بقع مع الدم : أنا على خير ما يرام ! الجمهورية لها أعداء كثيرون فى الخارج والداخل، وقطاعنا يضم نصيبًا لا بأس به، ليس بالهتافات ولكن بالسلاح والقوانين تُقام الإمبراطوريات... عِمْتَ مساء يا «جاميلان» فَلَدَىَّ بعض الخطابات أريد كتابتها .

وينصرف ومنديله على شفتيـه ويذهب إلى مخزن الأمتعـة المقـدسـة الأمامى .

وتُقَـوِّم المواطنة الأرملة «جاميـلان» شارتها الوطنيـة ، فهى من الآن فصاعدًا أصبحت فى وضع صحيـح، وتضع غطاءً على رأسها، لقد اتخذت لنفسها بين عشية وضحاها وقارًا بورجوازيًّا، وفخرًا جمهوريًّا، ومظهرًا جديرًا بأُم مواطن مُحلِّف . إن احترام العدالـة التى نشأت عليه، وما كانت تشعـر به منذ طفـولتها، قـد ألهمهـا أن ترتدى الرداء والسيمار (ثوب فضفـاض)، والرهبـة المقـدسـة التى تحس بها دائمًا عندمـا ترى هؤلاء الرجال الذين يمثلون العدل على الأرض، ويطبقون قانون الحياة وقانون الموت .

هذه الإحسـاسات جعلتها عظيمـة محترمة، وتقـدس هذا الابن الذى لاتزال تعتبره حتى الآن طفـلًا . وببسـاطتهـا، كـانت تدرك استمـرارية العـدالة من خلال الثـورة بنفس القـوة التى يدرك بها مشرعو الجمعيـة الوطنية استمـرارية الدولة فى تغيير الأنظمة، والمحكمة الثـورية تبدو لها متساويـة فى العظمة لجميع السلطات القضـائية القديمـة التى تعلمت أن تحترمها .

أوضح المواطن «بروتـو» للقـاضى الشـاب المصلحـة الممـزوجـة بالمفاجـأة، وبالاحترام اللازم . وكان مِثْلَ المواطنة الأرملة «جـاميلان» – يعتبر أن استمـرارية العـدالة تكون من خـلال الأنظمـة، ولكنه كـان على عكس هذه السيدة، فهو يزدرى المحاكم الثـورية كمحاكم النظام القديم . وبما أنه لم يجرؤ على أن يُعبِّر عـن رأيه هذا بصراحـة، ولم يستطع أن

يلتزم بالصمت، فإنه أخذ يخوض فى متناقضـــات جعلت «جاميلان» يَشُكُّ فى عدم وطنيته، وقال له :

– المحكمة العظيمــة التى سوف تذهب إليهـا كان مؤسسـهـا عضوًا فى مجلس الشيوخ الفـرنسى من أجل خلاص الجمهـورية، وكانت تلك بكل تأكيد فكرة فـاضلة من مُشرعينا أن يُعَيِّنوا قضاةً لأعـدائهم. إننى أدرك ذلك الكرم، ولكنى لا أعتقــد أن ذلك أمـــر سيـاسى . وكـــان من الحِذْق بالنسبــة لهم – كما يبدو لى – أن يضربـوا فى الظـلام خصومهم الـذيـن لا يقبلون المصالحة، وأن يكسبوا الآخرين بالهِبَات أو بالوعود ، فالمحكمة تضرب بهدوء، وتُسبب ضررًا أقلَّ مما تسبب الخوف، وذلـك مثــالى. أمـا العقبــة عندك فهى مصـــالحة جميع هـؤلاء الذين تخيفهم المحكمــة، وأن تصنع من هذه الجمهرة – من المصالح والعواطف المعاكسة – حزبًا كبيرًا قادرًا على عمل مشترك وقوى. إنكـم ستبذرون الخوف، إنه الخوف أكثر من الشجـــاعـة، وهــو الذى يجعل الأبطال أطفـــالًا .. هل فى وسعك أيها المواطن « جــاميـــلان » أن ترى ذات يوم معجـزات مــن الخوف تنفجـر ضدك؟!

كـان النَّحَّات «ديماهيس» مُحِبًّـا فى هذا الأسبـوع لفتاة من «باليــه – ايجاليتيـه» (قصر المســاواة)، وهـى «فلورا السمــراء» الطويلة، ومع ذلك كانت قـد وجدت خمس دقــائق لتهنئة صديقهــا، وقالت له : إن أى تعيين كهذا يُشَرِّف الفنون الجميلة إلى درجة كبيرة .

و «إيلودى» بنفسهـا – بالرغم من عـدم معرفتهـا – تبغض أى شىء

ينتمى إلى الثـورة، وهى تخشى الأعمال العـامـة وتعـدُّها أخطر منافس يستطيع أن ينازعها قلـبَ حبيبها. ومع ذلك فإن «إيلودى» الرقيقـة كانت خـاضعة لنفـوذ أو سطوة أحد القضـاه، دُعى ليُبين مـوقفه فى القضـايا الرئيسية.

وبالإضافـة إلى ذلك فإن تعيين «إيفاريست» فى أعمال المحلـف كان له أثر طيب حولها، ونتائج سعيدة قَرَّت بها عينًا، ومن ذلك أن المواطن «جان بلين» جاء إلى مرسم ميدان ثيونفيل وقَبَّلَ المُحَلف تقبيلًا حارًّا .

ومِثل جميع المناهضين للثـورة، أبدى «بليـن» بعض التقدير لقـدرات الجمهـوريـة، ومنذ أن تعـرض للاستـدعـاء بسبـب الغش فى توريدات الجيش، فكانت محكمة الثورة توحـى له بخوف لا يذوق معه طعم النوم، فهـو يرى نفسه شخصيـة مظهرية، ومختلطة بكثير من القضـايا، ولكى يتمتع بالأمن التـام عليـه أن يراعى المواطن «جـاميـلان»، الذى يبـدو له كرجل يستحق أن يُرَاعَى جانبه، فهو مواطن صالح ، وصديق القوانين .

مَـدَّ يده إلى الـرسـام القـاضـى، وأَظْهَـرَ أنه ودود، ووطنى، يميل إلى الفنون والحرية. وكان «جـاميلان» كريمًا،فصافحه ، وشَـدَّ على هذه اليد الممتدة له .

قال «جـان بلين» : أيها المواطن «إيفاريست جاميـلان»، إننى أستدعى صـداقتك ومواهبك، وسـوف أصطحبك غدًا إلى الريف حيث نقضى معًـا ثمانيًا وأربعين ساعة، وهناك تَرْسُم ونتحادث .

مرات عديدة – فى كل عام – كان يقوم تاجر الرسم بعمل نزهات لمدة يومين أو ثلاثة، بصحبة رسامين كانوا يرسمون – حسب إرشاداته – مناظر طبيعية، ومناظر للأطلال . وكان يحدد بمهارة ما يعجب الجمهور، ويحصل من هذه الدورات على قطع تنتهى إلى المرسم، وكانت محفورة بفن، ويصنع من هذه القطع طبعات ملونة بالحجر القانى، أو بالألوان والزخارف، والتى تُدِر عليه ربحًا وفيرًا .

وبعد هذه الرسومات التخطيطية يطلب تنفيذ تيجان الأبواب ودعائم أو زخارف الأبواب، والتى تجد رواجًا أفضل من أعمال الديكور «لهيبير روبير»(١).

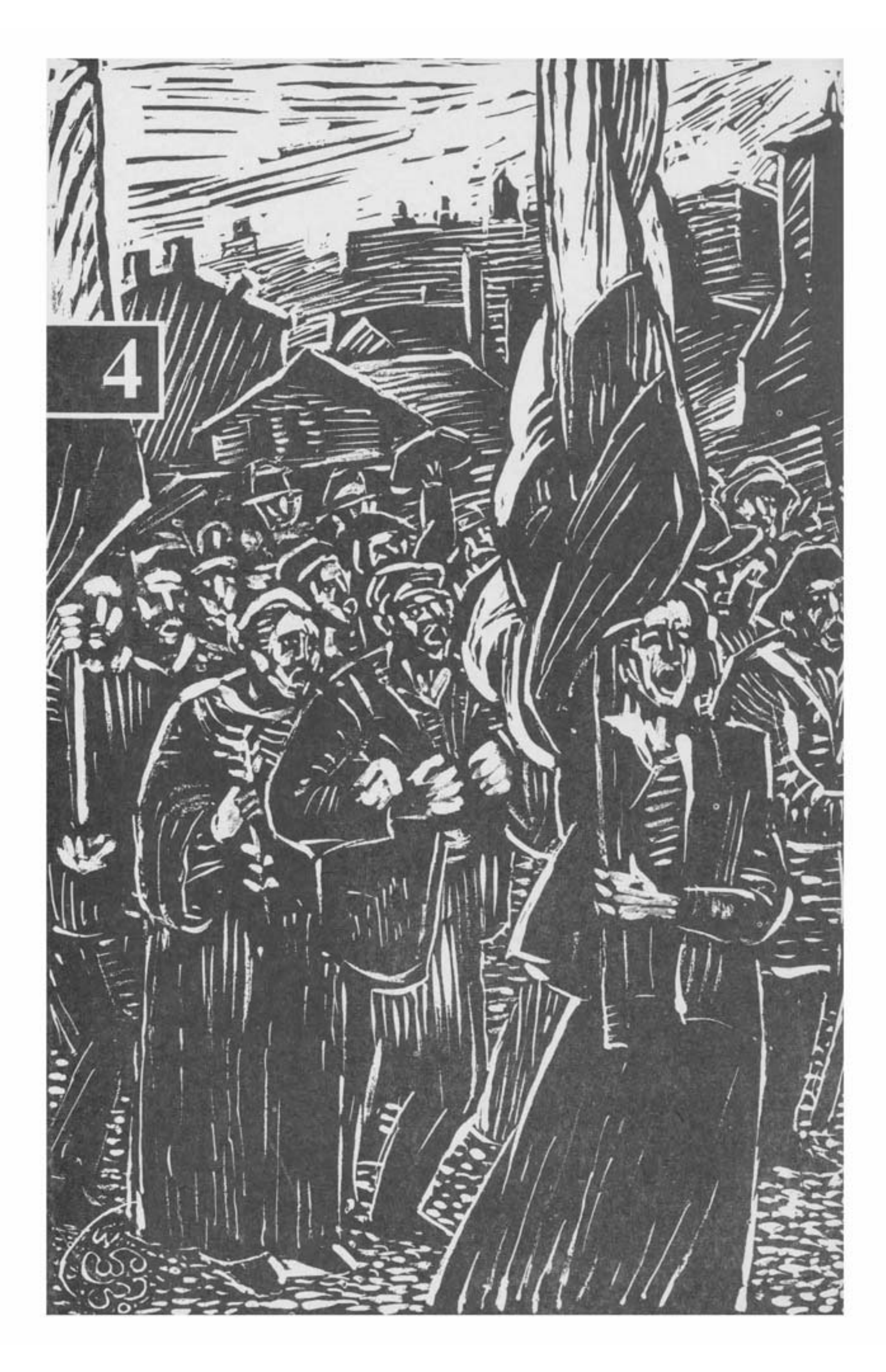
وفى هذه المرة كان يريد أن يصطحب «جاميلان» ليرسم رسمًا تخطيطيًّا لبناء لوحات بالحجم الطبيعى، طالما أن شخصية المحلِّف بالنسبة إليه قد عظَّمت من شخصية الرسام. وكان من ضمن المجموعة، الحفار «ديماهيس»، وكان يرسم جيدًا، و «فيليب دى بوا» الخامل الذكر، والذى يشتغل بمهارة فى نوعية عمل «روبير»، ووفقًا للعادات المواطنة «إيلودى»، مع صديقتها المواطنة «هازارد» ليصحبا الفنانين .

أمَّا « جان بليز » الذى يجيد المزج بين هموم مصالحه والاهتمام بملذاته ، فقد دَعَا أيضًا إلى هذه النزهة المواطنة « تيفينان » ممثلة «الفودفيل»(٢)، والتى أصبحت صديقة حميمة له .

---

(١) مصور فرنسى ولد سنة ١٧٣٣ ، ومات سنة ١٨٠٨ .

(٢) فودفيل : دار تمثيل بباريس .


4

4

فى الساعة السابعة من صباح يوم السبت، المواطن «بليز» بقبعته المقرنة السوداء، وصديرى قرمزى اللون، وسروال من الجلد، وحذاء أصفر بطيات، طرق باب المرسم بمقبض سوطه. المواطنة الأرملة «جاميلان» كانت موجودة فيه، تتبادل مع المواطن «بروتو» محادثة مهذبة، فى حين كان «إيفاريست» يقف أمام مرآة صغيرة يعقد رباط عنقه الأبيض.

قالت المواطنة : رحلة سعيدة يا سيد «بليز» ! بما أنك سوف ترسم مناظر من الطبيعة، إذن فاصطحبْ معك السيد «بروتو»، وهو أيضًا رسام.

قال «جان بليز» : حسنا ! أيها المواطن «بروتو»، تعال معنا.

وعندما اطمأن «بروتو» إلى أنه لن يكون ثقيلًا وافق بروح اجتماعية، وخاصة أنه محبٌّ للمسرات.

وصعدت المواطنة «إيلودى» الطوابق الأربعة من أجل أن تُقَبِّل المواطنة

الأرملة «جاميـلان»، والتى تدعوها أمهـا الطيبة، وكانت تـرتدى ملابس كلها بيضاء، وتتطيب بعطر اللافاند .

كـانت توجـد عربة سفـر قـديمة يجرها حصـانان، كـانت تنتظر فى الميـدان، مُسْـدَلَة الستـائـر. وكـانت «روز تيفينان» تجلس فى الخلف مع «جـوليـان هازارد» واتخذت «إيلـودى» مجلسهـا على يسـار الممثلة الكوميدية، وجلست «جوليان» النحيفة بينهن فى الوسط.

ويجلس «بروتو» فى الخلف، وفى مـواجهته «تيفينان»، ويجلس فيليب دى بوا، منتصبًا بجذعـه الرياضـى على المقعد على يسار « الحُوذىِّ » الذى اندهش عندما قص عليه أنه فى بعض بلاد أمـريكا، تطرح الأشجار سجقا ونقانقَ ناضـجة .

المواطن «بليـز» فارس ممتاز، كـان يقطع الطريق على صهـوة جواد، وكان يسبق العـربة حتى يتجنب التراب الذى تثيره العـربة، وبمجرد أن ابتعـدت العـربة عن الضـاحيـة نسى المسـافـرون همومهم، وعند رؤية الحقـول والأشـجـار والسماء طابت نفـوسهم وانشرحـت صـدورهم. وتخيلت «إيلودى» أنها وُلدت من أجل تربيـة دجاج بجـوار «إيفاريست» قاضـى السلام فى إحدى القرى على شاطئ أحد الأنهار، بالقرب من غابة.. وعند مدخل القرى كانت كلاب الحراسة تندفع نحو العربة عند المنحنيات وتنبح على سيقان الخيـول ، فى حين ينام أحد كلاب الصيـد الضخمة على قارعة الطريق وينهض على مضض، والدجـاج يقفز ويطير مشتتًا ليهرب مجاوزًا الطريق ، والإوز يبتعـد ببطء فى مجموعـات متلاصقـة . الأطفال

يشــاهدون الركب يمــر ، ويظهرون بمظهــر قــذر . كــان الصباح حــارًّا، والسماء مشرقة ، والأرض كانت مشققة تنتظر المطر .

توقفوا بالقــرب من «فيلوجويف»(١). وعندما كـانوا يعبرون البلدة ، دخل «ديماهيس» عند إحــدى بائعــات الفــاكهــة ليشترى بعض الكريز لينعش به المواطنات . كـــانت البــائعــة جميلة ، لم يظهـــر «ديماهيس»، وينادى عليه «فيليب ديبوا» باسمه الذى يدعوه به أصدقاؤه .

– هيه ! باربارو !... باربار وا !

وبعـــد النداء بهذا الاسم المستعمل، أرهف المارة سمعهم، وظهـــرت الوجوه فى النوافذ . وعندما رَأَوْا شابًّا جميلًا خارجًا من عند بائعة الفواكه والجاكت مفتـوح، والصديرى يرفـرف على صـــدرٍ رياضـىٍّ، ويحمل على كتفيـه سلة مملوءة بالكريز، ومــلابســه على طرف عصـــا، ظنَّ أُناسٌ أنه الجيراوندان المحظور، فقبضوا عليه، ولولا أن العجـوز «بروتو» والثلاثة السيدات الشابات قــد شـهدن بأن هذا المواطن يسمى «فيليب ديماهيس» وأنه رياضى جميل الجسم، ويعقوبى طيب ، لاعتقله بعض اللامتسرولين ولاقتادوه إلى مقر البلدية .

وكان من الضرورى أن المشتبه فيه يُقدم بطاقته الوطنية التى يحملها لإثبـــات شخصيتـه، وكـــان ذلك الإهمال فى مثل هذه الأمــــور بمحض المصـادفـــة . وكــان الثمن أنه أفلت من أيدى القـــرويين الوطنيين بدون

---

(١) مدينة فرنسية صغيرة .

خسائر أخرى، فيما عدا أحد أكمام قميصه الذى نزع عنه، ولكن الخسارة كانت خفيفة. وأنه تلقى أيضًا اعتذارَ الحرس الوطنى الذين كانوا قد أحاطوا به بعنف، وكانوا يريدون تسليمه إلى مقر البلدية.

والآن، يقف مطلق السراح ، تحيط به كل من « إيلودى »، و « روز »، و«جوليان». واتَّهَمَ «ديماهيس» «فيليب ديبوا» بأنه لا يحبه، واتهمه أيضًا بالنذالة، وابتسم ابتسامة مُرة لاذعة ، وقال :

– «ديبوا»، إذا ناديتنى مرة أخرى باسم «باربارو» فسوف أناديك باسم «بريسو»، وهو رجل قصير وضخم، ومضحك، شعره مجعد، وبشرته زيتية، ويداه لزجتان .ولن يكون هناك شك فى أنك «بريسو» الدَّنىء عدو الشعب، وأن الجمهوريين عند رؤيتك من الرعب والاشمئزاز سوف يأخذونك إلى أقرب مشنقة ... هل تفهم ؟

وكان المواطن «بليز» يسقى جواده ، فلما جاء أكد أنه قد أنهى الموضوع ، مع أن الظاهر للجميع أن الموضوع قد تمت تسويته بدونه .

صعد الجميع إلى العربة، وفى الطريق أخبر «ديماهيس» الحُوذىَّ أن فى هذا الوادى (وادى لونجيمو) سقط كثير من سكان القمر فى سالف الزمان، وكانوا يشبهون الضِّفْدَعَ شكلاً ولوناً ، ولكن قامتهم كانت أكثر ارتفاعاً . وكان « فيليب دى بوا » و «جاميلان» يتحدثان عن فنهما . «ديبوا» تلميذ «رينيو» سافر إلى روما . وقد شاهد لويحات «رافائيل» والتى كان يضعها على جميع أعماله الفنية الرئيسية . وكان معجبًا بالألوان التى يختارها «كوريج»، واختراع «هانيبال كاراش»، ورَسْم

«دومينيكان»، ولكنه لم يجد شيئًا يمكن مقارنته بالنسبة للأسلوب فى لوحات «بومبيو باتونى».

وفى روما ، كان يتردد على السيد «ميناجو» ومدام «لوبران» اللَّذَيْن أعلنا مناهضتهما للثورة، ولم يتحدث عنهما ، ولكنه مدح «أنجيليكا كوفمان »(١)، وكانت رفيعة الذوق ، وكانت تعرف اللون القديم .

وكان «جاميلان» يرثى لحال الرسم الفرنسى وتأخره ، حيث كان فى قمته يرجع إلى «ليزيور»، و «كلود»، و «بوسان»، ويوافق انحلال المدارس الإيطالية والفلمندية، حيث تبعها أُفول سريع وعميق، وقد أرجع أسباب ذلك إلى التقاليد العامة، وإلى الأكاديمية التى كانت تعبيرًا عنه .

ولكن الأكاديمية لحُسن الحظ قد أُلغيت، وتحت تأثير المبادئ الجديدة ابتكر «دافيد» ومدرسته فنًّا جديرًا بشعب حر . وبين الرسامين الشبان . أَدْرَجَ «جاميلان» – غير حاسدٍ – فى المرتبة الأولى «هينيكان » و «توبينو – لوبران ».

و « فيليب دى بوا » كان يفضل «رينيو» أُستاذَه ، على « دافيد »، وكان يُعَلِّقُ الأمَلَ على « جيرار » الشاب بالنسبة إلى الرسم .

وكانت «إيلودى» تجامل «تيفينان» وتمتدح قلنسوتها القطيفة حمراء اللون، وثوبها الأبيض . والممثلة الكوميدية تجامل صديقتيها وتمتدح

---

(١) انجيليكا كوفمان : كانت ذائعة الصيت فى عام ١٧٧٠، ١٧٨٠ . نشرت فى أوروبا أسلوباً نيوكلاسيكى أقل جفاءً من أسلوب دافيد . وتعرفت على صفوة الفنانين والكُتَّاب فى أوروبا (جوته)، وفى أوروبا أصبحت عشيقة لمارات لفترة من الزمن .

زينتهما، وتشير عليهما بطرق أفضل لعملهما حسب رأيها، وذلك بالتخفيف من الزينات. وقالت :

– لم نكن نُبدى أى زينة، تعلمنا ذلك فى المسرح، حيث كانت لابد أن تكشف كثيرًا من المواضع، ومن ثم يبدو جمالها، ولا شىء غير ذلك .

أجابت «إيلودى» قائلة : أَصَبْتِ القول يا جميلتى، ولكن لا شىءَ أجمل من البساطة فى عمل الزينة. ليس دائمًا بذوق غير سليم تتزين، ولكن أحيانًا على سبيل التوفير .

وتحدثن باهتمام عن موضة الخريف، والثياب البسيطة، والتفصيل القصير.

قالت «تيفينان» : إن كثيرًا من النساء يتشوهن عندما يتبعن الموضة الجديدة، فيجب على المرء أن يختار ما يناسبه .

قال «جاميلان» : لا يوجد أجمل من الأقمشة التى تلتف بالجسد ، وكل ما هو مقصوص ومخيط يكون بشعًا . كل هذه الأفكار وُضعت بطريقة طيبة فى كتاب لفينكيلمان خير من أن يتحدث بها رجل إلى بعض الباريسيات.

قالت «إيلودى» : من أجل الشتاء كانت تُصْنَع معاطف مبطنة على طريقة «لايون» فى فلورنسا، وفى صقلية، ومعاطف طويلة على طريقة «زوليم» بهيئة مستديرة، ويقفل بصديرى على الطريقة التركية .

قالت «تيفينان»: تلك أغطية رَثَّة ، وذلك يباع جاهزًا . إننى أعرف

خياطة صغيرة تعمل كالملاك وليست غالية الأجر ، سوف أرسلها لَكِ ياعزيزتى .

وكانت الكلمات تتناقل بينهم خفيفة وسريعة، منتشرة، وتتناول الأقمشة الجميلة، فلورنسية مضلَّعة، وصينية موحدة، وصقلية و...

وكان العجوز «بروتو» يستمع إليهن وهو يفكر بشهوة كئيبة سوداوية فى ستائر ذلك الفصل التى تضم أشكالاً فاتنة ساخرة، والتى تستمر لسنوات قليلة، ثم تُبعث مثل زهور الحقول . وَتَحوَّلَ بنظرته عن النسوة الثلاث إلى زهور الترنجان ، وزهور الخشخاش فى الأراضى الزراعية، تلك النظرة الباسمة المبللة بالدموع .

وفى حوالى الساعة التاسعة وصلوا إلى «أورانجيس»، وتوقفوا عند فندق «لاكلوش» حيث يُؤوى الزوجان «بواترين» كُلَّ رَاجلٍ وراكبٍ .

ويمدُّ المواطن «بليز» – الذى جدد زينته – يده إلى المواطنات، بعد أن طلب إعداد طعام الغداء لهم، وبعد أن سبقتهم صناديقهم وكراتينهم وخيولهم ومظلاتهم، التى يحملها غلام صغير من القرية، ذهبوا سيرًا على الأقدام عن طريق الحقول نحو الرافد، حيث اكتشفوا السهل المملوء بالخضرة فى «لونجيمو»، والذى يحد نهر السين، وغابات «سانت جينيفيف».

وتبادل «جان بليز» الذى يقود المجموعة الفنية ، مع الممول السابق حديثًا ظريفًا، حيث كان يمر – بدون نظام أورزانة – كُلٌّ من «فيربوكيه لوجينيرو»، و «كاترين كويسو» التى كانت تتجول، والآنسات

«شودرون» والساحر «جاليشيه»، والوجوه الجديدة والأكثر حداثة «لكاديه – روسيل» ومدام «أنجو».

ويُولَعُ «إيفاريست» بحبٍّ مفاجئ للطبيعة عندما رأى الحصَّادين يربطون حُزَمًا من القش ، فتفيض عيناه دمعًا ، وكانت أحلام الوئام والحب تملأ قلبه . وكان «ديماهيس» ينفخ فى شعر المواطنات حبوب الهندباء البرية العالقة به. لما كان الثلاث عندهن مَيْل بنات المُدُن بالنسبة إلى صُحْبات الورد، فقد قطفن زهور البوصير التى تتجمع حول ساق النبات فى سنابل، ونبات الجُريس، يحمل الزهور الليلاك متدلية، والغصون الرقيقة لزهر «رَعْى الحمام» ذى الرائحة الجميلة، والبيلسان الصغير، والنعناع، والبُلَيحاء ، وجميع زهور الحقل للصيف المنتهى .

ونظرًا إلى أن جان جاك كان قد جعل علم النبات حسب الموضة بين فتيات المدن، فإن أولئك الفتيات الثلاث يعرفن أسماء الزهور وأسماء المعاشق منها . وبما أن تويجات الزهور الرقيقة أوهنها الذبول ، فقد انفرطت إلى أوراق بين ذراعيها، وتساقطت كالمطر عند قدميها ، وتنهدت المواطنة «إيلودى» مُتحسِّرة وقالت :

– هكذا تزول الأزهار !

الجميع بدءوا العمل ، واجتهدوا فى التعبير عن الطبيعة كما يرونها، ولكن كل واحد منهم كان يراها بطريقة الأستاذ. ولم يمض وقت قصير حتى كان «فيليب دى بوا» يقتفى أثر مزرعة مهجورة، وأشجار مقطوعة، وسيل ناضبٍ، على طريقة «هوبير».. أمَّا «إيفاريست جاميلان» فقد وجد

على شاطئ«الإيفيت» مناظر «بوسان» الطبيعية. ويعمل «ديماهيس» أمام (بُرج حَمام)، على طريقة «كاللو» و «دوبليسيس» التشردية . و «بروتو» العجوز يجتهد فى تقليد الفلمنديين، كان يرسم بقرة بكل دقة. و «إيلودى» كانت تخطط لكوخ من القش، وصديقتها «جوليان» التى كانت ابنة أحد تجار الألوان كانت تصنع لها «الباليتة» الخاصة بها. وكان بعض الأطفال متجمعين حولها، يشاهدونها وهى ترسم. كانت تبعدهم لئلا يحجبوا عنها الضوء، وتسميهم الذباب الصغير، وتعطيهم حلوى من السكر المعطر .

وعندما وجدت المواطنة «تيفينان» من بينهم أطفالِ جِمَالٌ، نظفتْ لهم وجوههم، وقَبَّلتهم، ووضعت لهم أزهارًا فى شعرهم. ولاطفتهم برِقَّة بها كآبة، لأنها لم تكن عندها بهجة الأمومة حتى تتجمل بالتعبير عن شعور رقيق ، ولأنها تريد أن تمارس فنها فى الموقف والتجمع .

وهى الوحيدة التى لم تكن ترسم أو تصور . بل كانت تهتم فقط بالقيام بدورها، وكذلك على تحسين موضعها . كانت تحمل كراستها فى يدها ، وتنتقل من واحدٍ إلى الآخر ، إنه أمر سهل وجميل : «لا صبغة ، ولاوجه ، ولا جسد ، ولا صوت ». كانت النسوة يَقُلْنَ ذلك ، وهى تملأ المكان بالحركة، والألوان ، والانسجام .

وكانت تبدو ذابلة متعبة، جميلة . كانت لاتكلّ بهجة السفر ، وتتصف بمزاج متغير، علاوة على أنها كانت دائمًا مبتهجة، ومتجاوبة، وعُرضة للغضب ، ومع ذلك فهى سهلة المراس ، ذات لسان لاذعٍ مع لهجة أكثر

أدبًا، مبهمـة ومتواضـعـة، حقيقيـة ومزيفـة، ولذيذة . وإذا كـانت «روز تيفينان» لم تكن تؤدى أعمالها على خير مـا يـرام ، وإذا كـانت لم تصبح إلٰهة قط ، فذلك لأن الأوقـات كانت سيئة ، ولم يكن يوجـد فى باريس ، لا بخور ولا هياكل المَلَاحَة .

وكانت المواطنة «بليـز» عند التحدث عنهـا تُبدى الاستيـاء، وتسميها «حماتـى»، ولا تستطيع أن تراها دون أن تذعن لمثل ذلك الجمال والسحر.

وفى «فايدو»[1] كان يتكرر عرض «الـراهبات الزائرات»[2]، و «روز» تتباهى بأنها قـامت فيها بدور يعتمد على الموهبة . وذلك مـا كانت تبحث عنه وتنتظره ، وحصلت عليه .

قال « ديماهيس » الجميل : إذَنْ لن نرى «باميلا » مطلقًا ؟

كـان مسرح الأمة مغلقًـا ، وأرسل ممثلو الكوميديا إلى «مـاديلونيت» وإلى «بيلاجى» .

صـــاحت «تيفينان» وهى تـرفع عينيهـــا الجميلتين إلى السماء وهى تستنكر ذلك قائلة :

– هل هذه هى الحرية ؟

قـــال «جـــاميـــلان» : إن الممثلين الذيـن يعملون للمسرح القـــومى أرستقـراطيـون، ومسرحيـة المواطـن « فـرانســوا » تهدف إلى الندم على امتيازات النبلاء .

---

(١) فايدو : مسرح مشهور بباريس أيام الثورة الفرنسية .

(٢) الراهبات الزائرات : أوبرا كوميدية كتبها فرانسوا ديفين (١٧٥٩ – ١٨٠٣) .

قالت «تيفينان» : سادتى ، أليس فى وسعكم أن تفهموا مَنْ يريدون أن يداهنوكم؟....

وفى الظهر تقريبًا شعر كل منهم بجوع شديد ، فعادت الفرقة الصغيرة إلى الفندق .

كان «إيفاريسبت» بجانب «إيلودى» يُذَكِّرها – وهو يبتسم– بذكريات أول مقابلات بينهما ويقول لها :

– طائران صغيران سقطا من أعلى السقف ، حيث كان عشهما على إفريز نافذتك . وكنتِ تغذيهما عن طريق مناقيرهما ، أحدهما عاش وتعلَّم الطيران، والآخر مات فى العش الذى صَنَعْتِه له من القطن : «إننى أحبه أكثر من الآخر».. وقد قلتِ هذا فى ذلك اليوم ، وكُنتِ تضعين فى شعرك «فيونكة» حمراء .

كان «فيليب ديبوا» و «بروتو» يسيران متقهقرين إلى الخلف قليلاً عن بقية المجموعة، ويتحدثان عن روما ، حيث ذهبا إليها هما الاثنان، وذلك كان فى عام ١٧٧٢، وأخرى عند أواخر أيام الأكاديمية . وذَكَر أيضًا العجوز «بروتو» الأميرة «موندراجون» التى كان مغرمًا بها، والتى لم يكن «الكونت ألتييرى» يلازمها كظلها ، وَلَمْ يَنْسَ «فيليب دى بوا» أن يتحدث عن «الكاردينال دى بيرنيس»(١) الذى وجه إليه دعوة للعشاء عنده ، وكان أكثر المضيفين التزامًا .

قال «بروتو» : أنا أعرفه، وأستطيع أن أقول دون مباهاة : إننى كنت

---

(١) حَبْرٌ وشاعر فرنسى، ولد سنة ١٧١٥ ، وتوفى سنة ١٧٩٤ .

طوال فترة من الزمن من المقــربين إليه ، كــان يحب التردد على السُّوقَــةِ . وقد كان رجــلًا محبوبًا ، مع أنه كان مبتدئًــا فى كتابة الحكايات ونشرها، وكان يحمل فى أصبعــه الصغير فلسفة صحيحة أكثر مما هو مــوجود فى رءوس اليعقوبيين(١) الذين يريدون نشر الفضيلة بيننا ، وكذلك الصياح بالتأليه . ومــن المؤكد حقًّا أننى أحب أَكَلَةَ الرَّبِّ البسطــاء الذين لايعلمون مــا يقولون ولا مــا يفعلون ، أكثــر من هؤلاء الساخطين الذين يلطخــون سمعة القانون، والذين يجتهدون فى توصيلنا إلى المقصلة ليجعلونا عقلاء وفاضلين، ويحملونا على عبادة الله الذى خلقهم على صورته .

فى الزمن الماضــى، كنتُ أقضــى الصــلاة فى كنيســة «الإيليت» بواسطة رجل مسكين من رجال الدين، والذى كان يقول بعد أن يشرب : «لانغتاب الآثمين أبدًا : نحن نعيش فيهم، مــا نحن إلا رهبــانٌ على غير استحقــاق !» «فــوافقنى » يا سيــدى، أن هذا الذى يلتهم الصلاة كــانت عنده مبــادىء أساسية صحيحة عن الحكومــة، كان يجب الرجوع إليها هنا ، وأن يحكم بين الناس وفقًا لما هم عليه، وليس وفقًا لما تريدهم أن يكونوا عليه .

كــانت المواطنة «تيفينان» متقــربة إلى العجــوز «بروتو»، فهى كــانت تعرف أن هذا الرجل قد عــاش عيشة بَذَخٍ فيما مضى ، وأن تصورها عن هذه الذكرى البراقــة التى تُظهر الفقر الحالى لهذا الممــول السابق ، والذى تراه أقل خزيًا، وفقرًا عامًّا، وسببه الخراب العام .

---

(١) اليعقــوبيون : نسبــة إلى الراهب الدومينيكى يعقــوب. كــان عضوًا فى نــادٍ جمهورى إبَّان الثــورة الفرنسية . وهو مذهب ديموقراطى متطور .

كانت تتأمل فيه بإعجاب وباحترام ، فهو من فلول هؤلاء الكرام الذين كانت الممثلات الكوميديات اللاتى يكبرنها سنًّا يُعَظِّمْنَهُم وهن يتنهدن . وكذلك كانت تصرفات هذا الرجل الطيب « بالريدينجوت الأحمر » المائل إلى السواد – ولكنه نقى ونظيف – كانت تحوز إعجابها .

قالت له : يا سيد «بروتو»، معروفٌ من زمنٍ مَضَى أنكَ كنتَ تنساب فى حديقة جميلة ، فى ليالى مضيئة، فى أيكات من الريحان . أنت وراقصات وكوميديانات على نغمات هادئة صادرة من المزامير والقيثارات.... وأسفاه ! لقد كُنَّ غاية فى الجمال، أليس كذلك ؟ ألم تكن إلَٰهاتُكَ بالأوبرا والمسرح الفرنسى، أجمل منا نحن الممثلات القوميات الصغيرات ؟

أجاب بروتو : لا تصدقى يا آنستى واعلمى أنه إذا كانت هناك فى ذلك الوقت فتاة تشبهك لكانت تنزهت بمفردها دون مُنافِسَة فى الأيكة التى تريدين أن تجعلى منها فكرة إطراء .

كان فندق «لاكلوش» فندقًا ريفيًّا. وكان فرع من شجر الآس معلقًا على باب يُفتح على ساحة أو فناء رطب دائمًا ، حيث يسعى الدجاج لالتقاط رزقه . وفى نهاية الفناء يرتفع السكن، ويتكون من دور أرضى وطابق واحد ، ومُعَمَّم بسقف من الآجر تغطيه الطحالب، وتكتسى حوائطه بشجيرات ورد كبيرة، مزدهرة جميعها بالورد . وعلى اليمين يوجد نبات العيهوم يُظهر أشواكه فوق الحائط المنخفض للحديقة . وعلى اليسار كانت الحظيرة بمِعْلَفٍ خارجى ، ومخزن ببناء مفرغ، وسلم مسنود إلى الحائط . ومن هذا الجانب أيضًا، تحت إحدى المظلات المكتظة

بالأدوات الزراعيـة، وعلى أرومات من أعلى عـربة قـديمة كـان يقف ديك أبيض يحرس دجاجاته .

كان البناء مقفـولا فى هذا الاتجاه بحظائر يرتفع أمـامها «الزِّبْل» كأنه ربوة عظيمة، وفى هذا الوقـت كانت فتاة عـريضة أكثر منهـا طويلة تُقَلِّب شعـرها الذى فى مثل لون التبن . كـان مـاء المزابل يملأ نعليهـا، وكـانت تغسل قدميها العاريتين وترفع كعبيها الأصفرين كالزعفران على فترات، وقـد ظهـرت من تحت تنورتها المرفـوعـة رَبَلَاتُ سـاقيهـا(١) ضخمـة وقصيرة .

وبينما كان «فيليب ديماهيس» يشاهدها مبهـوتًا، لاهيًا بلعبة الطبيعة الغريبة التى كونت هذه الفتاة العريضـة، نَادَى صاحبُ الفندق قائلًا :

– هيه أيتها القُزْمة ! اذهبى وأحضرى بعض الماء !

التفتت، وأبدت وجهًـا قرمـزيًّا ، وفمًا عـريضًـا حيث تنقصه إحـدى الأسنان . كـان لابـد من قـرن أحـد الثيران لفتح ثغـرة فى هذه الأسنان القوية. وتضحك وهى حاملة مِذْراتها على كتفهـا. كانت ذراعاها تشبهان – فى حجمهما – فخذين تلمعان تحت أشعة الشمس .

أعدت المائدة فى القاعة السفلية، حيث كان الدجاج يُشْوَى تحت حجارة الموقد المزدان ببنادق قديمة . وكانت الصالة طولها أكثر من عشرين قدمًا، ومنقـوشة بالجير، ولم تكن مضـاءة إلَّا بالنوافذ الزجـاجية التى توجـد

(١) الرَّبَلات ، جَمْع رَبْلَة ، وهى : كل لحمة غليظة ، أو باطن الفخذ .

بالبا، ولونها أخضرَ باهتًا ، ونافذة واحدة محاطة بالورود ، والتى بقربها تجلس الجدة تدير دولابَ مَغْزَلها. وكانت تضع فوق رأسها منديلًا مُخَرَّمًا من عهد وصاية «دوق أورليانز». وكانت عقد أصابع يدها متسخه بالتراب، تُمسك بها المِغْزَل. وكان الذباب يحط على أطراف جفنيها، ولكنها لا تطرده. وهى كانت بين ذراعى والدتها حين شاهدتْ لويس الرابع عشر يمر فى عربته .

ومنذ ستين عامًا سافرت إلى باريس . وقد قصّت على النسوة الثلاث الواقفات أمامها بصوت ضعيف أنها رأت مبنى البلدية، والتويليرى، والسامرى، وأنها عندما كانت تعبر «لوبون رويال»(١)، كان يوجد قارب يحمل تفاحًا إل السوق، وكان به ثقوب، فانساب التفاح منها إلى الماء ، وتحوَّلَ سطح النهر إلى اللون الأحمر القانى .

وكانت قد علمت بالتغييرات الجديدة التى حدثت فى المملكة، وخاصة عن الشقاق الذى وقع بين «الأكليروس» المحلف، وغير المحلف. وكانت تعرف أيضًا أنه كانت توجد حروب ومجاعات، وظهور علامات فى السماء. ولم تصدق قط أن الملك قد مات، كانت تقول : لقد هربوه عن طريق أحد الأنفاق ، وسلموا للجلَّاد رجلًا من العامة بدلًا منه .

وعند قدمى الجدة يوجد مهد به آخر مولود من عائلة «بواترين، جانو»، وكانت أسنانه فى طور النمو . رفعت «تيفينان» المهد وابتسمت للطفل الذى يتحرك بصعوبة، فقد أنهكته الحمى والمرض ، ولاشك أن

---

(١) الكوبرى الملكى .

مرضه شديد، لأنهم استدعوا له الطبيب، المواطن «بيلليبور» الذى كان فى الحقيقة نائبًا احتياطيًّا فى الجمعية الوطنية ، ولم يكن يدفع مطلقًا كشف الطبيب .

كانت المواطنة «تيفينان» - المدربة على أبيها - فى كل مكان، كانت متكدرة من الطريقة التى تغسل بها «الأورمة» الأوانى المنزلية، كانت تجفف الأقداح والشوك . وبينما كانت المواطنة «بواترين» تنضج الحساء وتتذوقه كمضيفة ماهرة، كانت «إيلودى» تقطع رغيف خبز وزنه أربعة أرطال إلى شرائح، وهو ما زال ساخنًا من الفرن ، وعندما رآها «جاميلان» تفعل ذلك ، قال لها :

- قرأتُ منذ بضعة أيام كتابًا كتبه شاب ألمانى لا أتذكر اسمه ، والذى تُرجم إلى الفرنسية ترجمة ممتازة، نقرأ فيها عن فتاة اسمها «شارلوت» التى - مثلك يا «إيلودى» - كانت تقطع فطائر - ومثلك -تقطعها بنعومة، وبطريقة جميلة جدًّا ، حتى أنه عندما رآها «ويرزير» الشاب(١) وقع فى حبها .

سألته « إيلودى » : وهل انتهى ذلك بالزواج ؟

- أجاب «إيفاريست» : لا ، انتهى ذلك بموت «ويرزير» الأليم .

تناولوا عشاءهم بشهية لأنهم كانوا جائعين، ولكن الطعام كان متوسطًا. واشتكى «جان بلين» من ذلك، لقد كان نَهِمًا جدًّا، ويرى أن

---

(١) آلام ويرزير الشاب أو آلام فرتر (١٧٧٤) . لها ثلاث ترجمات فرنسية .

الطعـام الجيد سُنَّة الحيـاة، ولا مراء فى أن من يخضـع لنظام معين فـذلك يكون المجاعة بعينها . والثورة قلبت آنية الطهى فى جميع المنازل، والعامة من المواطنين ليس لديهم شىء يقتاتون به . أمَّـا الناس المهرة – مثل جان بليز – فهم يتكسبون كثيرًا من شقـاء الناس ، حيث يذهبون عند صاحب المطعم ويوضحون فكرهم وهم يتخمون بالطعام .

أمَّا بالنسبة إلى «بروتو» الذى – فى العـام الثانى للحرية – كان يعيش على القسطل ، وعلى فتات الخبـز، فقد ذكره بأنه كـان يتناول عشاءه عند «جـريمـو دى لارينبير» عند مدخل «الشـانزيليـزيه»، ورغبـة منه فى أن يحصل على لقب «ذَوَّاقـة» – أمام طعام الكرنب المطبـوخ بودك الخنزير ، والذى تطهـوه السيـدة «بواترين» – كـان يشـارك فى الآراء عن طرق الطهى، والقواعد التى تتعلق بالذوق .

ولما صَرَّح «جـاميلان» بأن أحـد الجمهـوريين يحتقر ملذات المائـدة، أعطى المعالجُ العجوزُ ، هَاوِى الآثار القـديمة، الإسبارطىَّ الصغيرَ الصفة الحقيقية للطعام السائل الأسود (١).

وبعـد العشاء، يحمل «جـان بليـز» – الذى لم ينس الأعمال الجدية – أدواته ليعمل فى أكاديميتـه المتنقلة رسـومـات تخطيطية للفندق الذى رأى أنه غاية فى الرومانسية فى تلفه . وبينما كان «فيليب ديماهيس» و «فيليب ديبـوا» يرسمان الحظائـر جـاءت «الأورمـة» تقـدم الطعـام للخنازير . ويقترب المواطن «بيلليبور» ضـابط الصحة، الذى خرج فى نفس الوقت من

(١) نوع من الطعام السائل ، مثل العصيدة .

الصالة السفلية حيث كان يعالج بواترين الصغير ، يقترب من الفنانين، وبعد أن قدم لهم إطراءه لمواهبهم التى شرفت الأمة كلها ، أشار إلى «الأورمة» وهى وسط خنازيرها وقال :

- « هل تَرَوْنَ هذه المخلوقة ؟ إنها ليست فتاة كما تعتقدون، بل هى فتاتين. أقول ذلك صراحة، لقد أدهشنى هيكلها العظمى ففحصتها، ولاحظت أن معظم عظام هيكلها مزدوجة : لكل فخذ عظمتان ملتحمتان معاً ، ولكل كتف ، عَظْمَتَا عضد . وكذلك لها عضلات مزدوجة. وفى رأيى أنها تَوْءَمٌ ملتصقتان بشدة، أو بتعبير أفضل : منصهرتان معًا .

هذه الحالة مهمة، وقد عرضتها على الأستاذ «سان هيلير» الذى عبر لى عن امتنانه. إن هذا الذى ترون عبارة عن وحش أيها المواطنون، وهؤلاء الناس يسمونها «الأورمة»، فكان أولى بهم أن يسمونها «الأورمتين»، لأنهما اثنتان. والطبيعة فيها كثير من هذه العجائب... عمتم مساء أيها الرسامون !. هذه الليلة ستهب عاصفة ...

وبعد تناول العشاء على ضوء الشموع، كَوَّن جَمْعُ «بليز» فى فناء الفندق - يصحبه الابن والابنة بواترين - فريقًا للعبة «الاستغماية» يعبر فيها السيدات الصغيرات والرجال الشباب عن حيوية يفسرها سِنُّهم بما فيه الكفاية، حتى لا نبحث عَمَّا إذا كان العنف وتقلبات الزمن قد نبهت حماسهم .

وعندما أسدل الليل ستاره تمامًا اقترح «جان بليز» أن يلعبوا فى الصالة السفلية ألعاب الأطفال. وطلبت «إيلودى» لعبة «صيد القلب» التى

لقيت قبـولا من المجموعـة. وبإرشادات الفتـاة رسـم «فيليب ديماهيس» بالطبـاشير على الأثاثات والأبواب والحوائـط سبعـة قلوب، بناقص قلب عن عدد الـلاعبين، لأن «بروتو» العجوز اتخذ مكانه بالمعـروف بين أفراد الفرقة.

كـانوا يرقصـون فى حلقـة «الدائـرة تـأخـذ حـذرها» وبإشـارة من «إيلودى» جرى كل واحـد منهم ووضـع يده على أحد القلوب المرسـومة. «جاميـلان» كان مشتتًـا، ووجد أن كل القلـوب قد تم الاستيـلاء عليها، وأعطى رهـانه المُدْيَـةَ الصغيرة التى اشتراهـا من سـوق «سـان جيرمان»بستة أَفْلُس، والذى كان قد قطع الخبز بها من أجل الأم الفقيرة. وأعـادوا اللفَّات من جـديد، ولم يجد « بليز »، و « إيلودى »، و« بروتو »، و «تيفينان» قلوبًا، وكُل منهم أعطى رهانه، خاتمًا، أو شبكة للشعر، أو كتابًا صغيرًا مجلدًا بجلد الماعز، أو سِوارًا، ثم بعد ذلك أجرى السحب على الرهونات فى حجر «إيلودى»، وكل فـرد لكى يسترد رهانه ينبغى عليه أن يبين مواهبه الاجتماعية، إمَّا أن يشدوَ بأغنية، أو يُقْرِضَ بعض الأشعار .

« بروتو » ألقى خطابَ رئيس فرنسا ، فى أول أغنية عن « جان دارك »:

« إننى دينيس(١) وقديس مهنتى

أحب الغال ... » .

(١) دينيس : مُبَشِّر إنجيلى فى بلاد الغال ، وأول أسقف بباريس فى القرن الأول أو الثانى ، وقُتل فى سان دينيس .

ومع أن المواطن « بليز » أقل علمًا بـالأدب فإنه قد سرد - دون تردد - إجابة « ريشموند »:

« سيدى القديس ، لم يكن من العناء

أن نهجر مجال السماء .... » .

وحينئذ قـرأ الجميع بمتعة العمل الفنـى لأريوست الفرنسى ، وكـان أكثر الرجال وقارًا يبتسمون من غـراميات «جان» و «دينوا»، والمغامرات العاطفية لآنييبس و «مونرون»، ومغـامرات الحِمَار المجنَّح.. وكان جميع المثقفين يعرفون عن ظهر قلب أجمل ما فى هذه القصيدة الفلسفية المسلية.

و «إيفاريست جـاميلان» نفسه - بالرغـم من شِدَّةِ طبعه عندمـا كان يأخذ من حجـر «إيلودى» مديته الـرخيصة كان ينشـد عن طيب خاطر ، دخول «جـريسبوردون» إلى الجحيم والمواطنة «تيفينـان» شَدَتْ - دون صحبة - أغنية «نينا » : « عندما يعود المحبوب ». و «ديماهيس» غَنَّى على لحن « الفريدونديـن » :

« البعض قد أخذوا خنزير أنطوان ،

هذا الراهب الطيب ،

وألبسوه عباءة

وجعلوه راهبًا ،

ولم يكلفه ذلك سوى اليسير ... » .

كـان «ديماهيس» حينئذ مشغـول البـال ، ففى هذا الوقت كـان يحب

النسوة الثلاث بشدة ، واللائى لعب معهن «لعبة الرهان»، وكان يرمق كل واحدة منهن بنظرات هادئة ومُحْرِقة . كان يحب «تيفينان» لرقتها، وليونتها، وفنها الراقى ، وغمزاتها ، وصوتها الذى يمس نياط القلب. وكان يحب «جوليان هازارد»، بالرغم من شعرها عديم اللون، وأهدابها البيضاء، وقوامها النحيل، لأنه كان مثل «دينوا» الذى تحدث عنه «فولتير» فى العذراء «جان دارك»، كان دائمًا مستعدًّا بكرمه أن يمنح الأقل جمالا علامة حب بقدر ما تبدو له، حتى لا تشغل نفسها بأى شيء ، ومن ثم الأكثر قبولا .

كان خاليًا من أى زَهْوٍ ، ولم يتأكد مطلقًا أنه سيلاقى قبولًا ، ولم يكن متأكدًا أن يناله قط . وكذلك كان يهب نفسه لكل مُصادفة ، منتهزًا اللقاءات السعيدة والمرحة فى لعبة « الرهان المطلوب »، فتبادل بعض الحديث الودِّى مع «تيفينان» التى لم تغضب منه ، ولكنها لم تستطع مطلقًا أن تُجيبه بسبب نظرات الغيرة فى عيون المواطن « جان بليز » .

وتحدَّثَ أيضًا مع المواطنة «إيلودى» بحديث أكثر عاطفة ، وهو يعرف أنها مرتبطة بجاميلان ، ولكن لم يكن الوضع مُلِحًّا لأن يمتلك قلبًا لنفسه فقط ، و «إيلودى» لا تستطيع أن تحبه، ولكنها ترى أنه ظريفٌ ، وهى لم تنجح فى أن تخفى ذلك عنه . وأخيرًا حمل رغباته الجامحة كلها ليقدمها إلى أذن المواطنة «هازارد» التى كانت ترد عليه وهى فى حيرة يمكن أن تعبر عن إذعان إجبارى، كما أنها عبر عن لامبالاة عابسة وعدم اكتراث ، و «ديماهيس» لا يعتقد أبدًا أنها لا تبالى .

ولا يوجد فى «الفندق» سوى غرفتين للنوم فى الطابق الأول، وعلى نفس الممشى، والغرفة التى توجد على اليسار كانت مزينة بأوراق الزهور، وبمرآة فى حجم اليد ، وقد تعرض إطارها المُذَهَّب إلى إساءة الذباب منذ طفولة لويس الخامس عشر . هنا - تحت قبة سرير بنسيج هندى مشجر - ينتصب سريران تزينهما وسائد محشوة بريش الطيور، ولحاف محشو بالريش، وأغطية سراير . هذه الغرفة كانت محجوزة للمواطنات الثلاث .

وعندما حان وقت الانصراف حَمَلَ كلٌّ من «ديماهيس» و المواطنة «هازارد» شمعدانه، وتبادلا تحية المساء فى الردهة . أَمَّا النَّحَّات العاشق فأعطى ابنة بائع الألوان ورقة، راجيًا فيها أن تلحق به عندما يكون الجمعُ نائمًا، وذلك فى المخزن الذى يقع بأعلى غرفة المواطنات الثلاث .

وكان متبصرًا وعاقلًا، فقد تفقَّدَ مداخل وقسمات الفندق ، وتفقد المخزن الممتلئ بحزم البصل ، وفاكهة مجففة ، وصناديق ، وحقائب قديمة. وَرَأى أيضًا سريرًا تالفًا وغيرَ صالح للاستعمال ، ومرتبة من القش مبقورة ، حيث كانت تتقافز منها البراغيت .

وفى مواجهة غرفة المواطنات كانت توجد غرفة بها ثلاثة أَسِرَّة، صغيرة نوعًا ما ، حيث لابد أن ينام المواطنون المسافرون حسب راحتهم. ولكن «بروتو» الذى كان سيباريتى (أى : محبًّا للملذات) ذهب إلى المخزن لينام على حشائش العلف المجففة .

أمَّا بالنسبة إلى «جان بليز» فقد اختفى . ولم يلبث «ديبوا» و«جاميلان» أَنَ نَاما . ويرقد «ديماهيس» على السرير، ولكن عندما خيم

سكون الليل على الفندق كأنه صفحة المياه النائمة، نَهَضَ النَّحَّات وارتقى الدرج الخشبى الذى كانت درجاته تطقطق تحت أقدامه العارية.

كان باب المخزن مُوارَبًا، وكانت تنبعث منه حرارة خانقة، وروائح نَفَّاذة من فاكهة عفنة. وعلى السرير التالف كانت تنام «الأورمة» فاتحة فَاهَا، وقيمصها منحسر، وساقاها مبتعدتان عن بعضهما. كانت ضخمة، وشعاع من القمر يتسلل من المَنْوَر، مختلطًا بلون السماء واللون الفضى على بشرتها التى تبدو بين القشور والقاذورات الملطخة بماء المزابل بَضَّةً، وتضوى بالشباب.

ألقى «ديماهيس» بنفسه عليها، فاستيقظت مذعورة، كانت خائفة، وصاحت، ولكن بمجرد أن أدركت ما هو المراد منها اطمأنت، ولم تُقاوم أو تعترض، وتظاهرت بأنها غارقة فى سُبات شبه عميق، يحرمها من الوعى بالأمور، ولكن يسمح لها ببعض الإحساس....

وعاد «ديماهيس» أدراجه إلى غرفته، حيث نام حتى أشرقت شمس النهار نومًا هادئًا وعميقًا. وفى اليوم التالى – بعد آخر نهار فى العمل – واصلت المجموعة الطريق إلى باريس.

وعندما دفع «جان بلين» إلى صاحب الفندق بحوالة حكومية، اشتكى المواطن «بواترين» من أنه لم يكن يرى إلا «النقود المربعة»، ووعد بشمعة جميلة إلى الشخص الذى سوف يُعيد القطع الذهبية.

وقَدَّمَ أزهارًا إلى المواطنات، وذلك أنه أَمَرَ «الأورمة» فصعدت على سلم، لابسةً خُفًّا، وترفع ثوبها عن ساقيها، وتظهر رَبَلات ساقيها

اللامعتين ، وقطفت - بدون ملل - الورود المتسلقة التى تغطى الحائط . ومن يديها العــــريضتين سقط وابِلٌ من الورود كـــالسيل على تنورات «إيلودى» المنبسطة ، و « جــوليــان » ، و « تيفينان » . وتُمْلَأُ العـربة منه، ويعـود الجميع إلى منازلهم يحملون باقـات منه بين أحضـانهم ، فيعطّر شذاه سباتهم ويقظتهم .

* * *

فى صباح السابع من سبتمبر توجهت المواطنة «روشيمور» إلى المُحَلِّف «جاميـلان»، حيث إنها تريده أن يهتم ببعض المشتبه فيهم من معـارفها، وفى الردهة قابلت «بروتو ديزيليت» الذى كانت تحبه فى أيام يُسره . وكان «بروتو» يحمل اثنتـى عشرة دستـة من الدُّمَى التى يصنعهـا بطريقتـه ليسلمها إلى تاجر اللعب فى شارع «لالوا». كان مضطرًّا أنْ يحملها بطريقة سهلة، بأن يعلقها على طرف عصًا، مثل الباعة الجائلين .

وقـد كان يتصرف بظرف مع جميع السيـدات، حتى مع هؤلاء اللائى أنهكنه بجاذبيتهن، كما هى الحالة بالنسبة إلى السيدة «روشيمور» ، فهى على الأقل مُوَجِّهةٌ إليها اللوم بالخيانة، والغفلة، وعدم الإخلاص، والبدانة، وهو لم ير أنها جذابة .

وعلى كل حـال فقـد قابلهـا على «بَسْطَة السلم» القـذرة، ذات البـلاط المفكك، مثلما كان سابقًـا على سلالم مدخل ديزيليت، ورَحَّبَ بها ، وطلب منهـا أن تشرفه بزيارة مخزنه. صعـدت السلم بخفـة، ووجدت نفسهـا

تحت « صقالة » تحمل أعمدتها المنحنية سقفًا من القرميد به كُوَّة .

ولا يستطيع المرء أن يظل واقفًا فى هذا المكان، فجلست على المقعد الوحيد الموجود فى هذا المكان، وجالت ببصرها للحظة على القرميد المفكك، وسألت، مندهشة وحزينة :

- هل تعيش هنا يا «موريس» ؟ ألم تَخْشَ المزعجين ؟ لابد أن يكون المرء عفريتًا أو قطة ليصل إليك .

أجابها قائلًا : أنا لا أمكث فيه كثيرًا ، ولا أُخفى عليكِ أن المطر يسقط أحيانًا على سريرى الحقير ، وذلك مانع ضعيف . وفى الليالى الهادئة أرى منها القمر الذى هو صورة وشهادة لغراميات البشر . لأن القمر ياسيدتى ، جُعِل فى كل وقت ليشاهده المحبون، وفى اكتماله أصفرَ شاحبًا ومستديرًا ، يُلهم العاشق بجوهر رغباته وأمانيه .

أجابته المواطنة قائلة : فهمت .

وقال «بروتو» مستطردًا : تصدر عن القطط ضوضاء جميلة من هذا المزراب، ولكن يجب أن نستميح عذرًا للحب، فلها أن تموء وأن تتواعد على الأسقف، فقد امتلأت حياة البشر بالآلام والجرائم .

كان الاثنان من التعقل بحيث أنهما تلاقيا كأصدقاء افترقا فى اليوم السابق ليذهب كل منهما لينام، وعندما صارا غريبين ، كل منهما عن الآخر، تبادلا الحديث معًا بودٍّ، ودون كلفة .

كانت مدام «روشيمور» تبدو مهمومة بسبب الثورة، التى كانت دائمًا مبتسمة لها ومثمرة، الآن تحمل إليها الهموم والقلق، وحفلات عشائها

أصبحت أقل تألقًا، وأقل بهجة . وفقدت نغمات قيثارتها تأثيرها المتألق على الوجوه الحزينة، وهجر موائد اللعب عندها أغنى أغنياء من الشخصيات الهامة. والكثير من معارفها المقربين الآن أصبحوا مشبوهين وقد اختفوا، وقُبِضَ على صديقها الممول «مورهاردت» وتم اعتقاله، ومن أجله جاءت إلى المحلف «جميلان» لتترجاه، بل هى نفسها كانت مشتبه فيها. بعض الحرس الوطنى قد قاموا بتفتيش مسكها، قلبوا أدراج خزائنها، ورفعوا بعض رقائق «الباركيه»، كما بقروا بعض المراتب بضربات من «السُّنْكى». ولم يجدوا أىَّ شىء، وقدموا لها اعتذارهم، وشربوا نبيذها . وقد كادوا أن يمروا بالقرب من رسائلها مع أحد المهاجرين يدعى «م. ديكسبيلى» وقد أنبأها بعض أصدقائها من اليعقوبيين بأن «هنرى» الجميل حبيب قلبها، أصبح معرضًا للشبهة بسبب عنفه الذى يتجاوز حدوده ليظهر بمظهر المخلص .

كانت جالسة متكئة بمرفقيها على ركبتيها ، وتسند خديها بكَفَّيْها وهى واجمة . وتسأل صديقها القديم ، الجالس على الحشية :

– ما رأيك ؟ مَنْ وَرَاء كل ذلك يا « موريس » ؟

●أعتقد أن هؤلاء الناس أعطوا أحد الفلاسفة وهواة العروض مادة دسمة للتأمل واللهو، ولكن من الأفضل بالنسبة لكِ يا عزيزتى أن تكونى خارج فرنسا .

– موريس ، إلى أين سيؤدى بنا ذلك ؟

● هذا يا «لويز» ما سألتينيه ذات يوم حينما كنا فى عربة على شاطئ «الشير»، على طريق ليزيليت، عندما كان جوادنا الذى كان ملجمًا قد جمح بنا جموحًا مخيفًا.. فما أشَدَّ حُبَّ النساء للاطِّلاع !

والآن أيضًا تريدين معرفة إلى أين نحن ذاهبون ؟ فاسألى العرَّافين عن ذلك، فأنا لستُ كاهنًا أو عرَّافًا يا صديقتى . وحتى الفلسفة الأكثر صلاحًا ما هى إلا معونة ضعيفة لمعرفة المستقبل . هذه الأمور سوف تنتهى ، لأن كل شىء ينتهى، ويمكن التكهن فيها بمنافذ متعددة: انتصارالتكتل، ودخول الحلفاء باريس، فهم ليسوا بمنأى عنها، ومع ذلك فإنى أشك فى وصولهم إليها .

هؤلاء الجنود – جنود الجمهورية – يقاتلون بحمية لا يستطيع أحد أن يخمدها . وقد يتزوج «روبسبير» من مدام «رويال» ويطلق على نفسه اسم حامى المملكة أثناء القصور الشرعى للويس السابع عشر .

صاحت المواطنة وقد نفد صبرها لتنغمس فى هذه المغامرة الجميلة : هل تعتقد ذلك ؟

واستطرد «بروتو» قائلا : إن «الفاندية» قد تتغلب عليه، وأن جمهورية الكهنة قد تتأسس ثانية على أكوام من الأطلال، وتكدسات من الجثث. لن تستطيعى يا صديقتى العزيزة أن تدركى أن الإمبراطورية التى يحرسها الأكليروس بكثرة الحمير ، عفوًا أقصد بكثرة «الأنفس»، زلَّة لسان. إن الأكثر احتمالًا – فى اعتقادى – أن المحكمة الثورية سوف تؤدى إلى تدمير النظام الذى أسسته، فهى تهدد العديد من الرءوس،

وهؤلاء الذين تخيفهم لا يُحْصَى عددهم، إنهم سيجتمعون، ومن أجل تدميره سوف يدمرون النظام. وأعتقد أنكِ قد سَعَيْتِ لتعيين «جاميلان» فى هذا المنصب ، فهو رجل فاضل، وسوف يصبح مخيفًا . وعلاوة على ذلك فأعتقد أن هذه المحكمة التى أُنشئت لإنقاذ الجمهورية هى التى سوف تفقدها .

كانت الجمعية الوطنية تريد – مثل المَلَكيّة – تريد أن يكون لها أيام أعياد خاصة هبا ، وكذلك تكون لها محكمتها الخاصة بها، وتتوفر أمنها عن طريق قضاة مُعَيَّنين عن طريقها، ومُلْزَمين بتبعيتها. ولكن أعياد الجمعية الوطنية تبدو أدنى من أعياد الملكية، وأن محكمتها الثورية أدنى سياسة من محكمة لويس الرابع عشر المحرقة !

كان يسود محكمة الثورة شعور بعدالة وضيعة، ومساواة سطحية تجعلها فى الحال مضحكة وممقوتة، ومثيرة لنفور الناس أجمعين.

هل تعلمين يا «لويز» أن هذه المحكمة التي سوف تدعو ملكة فرنسا وواحد وعشرين من مُشَرِّعيها للمثول أمامها، قد أدانت بالأمس خادمة مذنبة لأنها هتفت: «يعيش الملك !» بنية سيئة، وبفكرة هدم الجمهورية ؟ إن قضاتنا جميعًا المتشحين بالسواد المزين بالريش يسيرون على نهج «وليم شكسبير»، العزيز جدًا على الإنجليز، والذى أدخل على المسرحيات التراجيدية لمسرحه، هزليات غير مُتقنة .

سألته المواطنة : حسنًا يا موريس .. هل أنت دائمًا سعيد بالحب ؟

أجـاب بروتو : يا للأسف ! الحمام يحط على البرج الأبيض، ولا يحط مطلقًا على برج مُقَوَّض .

قالت له : إنكَ لم تتغير .... إلى اللقاء يا صديقى !

فى هذا المســاء ، كان «هنرى» جندى الخَيَّـالة (الفارس)، متوجهًـا عند مدام «دى روشيمـور» من غير أن يُطْلَبَ منه ذلك، فوجـدها تختم خطابًا قرأ عليه عنوانَ المواطن «رولين» فى «فيرنون» .

كان ذلك - كما يعرف - خطابًـا إلى إنجلترا . و «رولين» كان قد تسلَّم بريد مـــدام «دى روشيمــور» عن طريق حــــوذى البريد وأرسله إلى «دييب»(١) عن طريق بائع سمك. ثم سلمه قائد أحد القوارب - ليلًا - إلى سفينة بريطانية كانت تطوف بالساحل، وتسلَّمــه أحد المهاجرين (م. دى اكسبيلى» فى لندن، وعندما رآه مُهِمًّا، سلمه إلى مكتب «سان جيمس» .

«هنرى» كان شابًّا وسيمًا، و «آخيل» لم يكن جامعًا لمثل تلك الوسامة ومثل تلك القـوة عندمـا تقلَّدَ أسلحتـــه التى قـدمهـا له «أوليس»، ولكن المواطنة «روشيمور» التى كانت فيما مضـى متأثرة بسحر جمال الشاب بطل مجلس العمـوم تحولت عنه فكـرًا وروحًـا، منذ أن أُخطرت بأن هذا الجندى الشاب يمكن أن يتسبب فى شبهتها وتدميرها .

«هنرى» كـان يشعر أنه ربما لن يستطيع التحكم فى قُـواه ، وألَّا يحب مدام «روشيمور»، ولكن الذى كان يـؤلمه أنها لا تخصه مطلقًا بأى ميزة،

---

(١) دييب : مدينة فرنسية .

وقد كان يعتمد عليها لاستيفاء بعض النفقات التى كانت المخابرات الجمهورية قد كلفته بها .

وأخيرًا، عندما فكر فى أقصى ما يمكن أن تُوضع فيه النساء، وكيف يتغيرن بسرعة من الحنان الشديد إلى أقصى درجات الجمود والبرود، وكم من اليسير عليهن أن يُضَحِّين بأعز ما لديهن، وأن يُدَمِّرْنَ من يُحببن إلى درجة العبادة، وقد راوده الشك فى أن هذه المرأة «لويز» يمكنها فى يوم الأيام أن تزج به إلى السجن لتتخلص منه. وقد رأى أن من الحكمة أنْ يغزو هذا الجمال المفقود مرة أأخرى، ولهذا فقد جاء مسلحًا بكل وسائل سِحْرِه .

كان يقترب منها ، ثم يبتعد ، ثم يقترب مرة أخرى، يمسها ، ثم يبتعد عنها، حسب قواعد الإغراء فى رقصات الباليه، ثم ألقى بنفسه على المقعد، وبصوته الذى لا يُقهر، والذى يصل إلى قلوب النساء، امتدح لها طبيعة الوحدة، واقترح عليها – وهو يتنهد – نزهةً فى «إيرمينوفيل»[1] .

حينئذٍ ضربت على قيثارتها بعض الأنغام، وصوبت حولها بعض النظرات، التى تنم عن الضيق ونفاد الصبر .

وفجأة نهض «هنرى» وانتصب عابسًا وحانقًا، وأخبرها أنه سيذهب إلى الجيش، وبعد بضعة أيام سيكون أمام مدينة «موبيج». ودون أن تبدى أى دهشة أو ارتياح أجابته بإشارة من رأسها .

---

(١) إيرمينوفيل : قرية فرنسية مدفون فيها جان جاك روسو .

فقال «هنرى» : ألن تهنئيننى على هذا القرار ؟

- أُهنئك على ذلك .

كانت تنتظر صديقًا جديدًا أُعجبت به إلى أقصى درجات الإعجاب، وكانت تعتقد أنها ستحصل منه على مكاسب كثيرة، كانت تنتظر «ميرابو» المبعوث من جديد ، أو «دانتون» المهذب، والذى صار مُمولًا، أو أحد السباع الذى كان يتحدث عن إلقاء جميع الوطنيين فى نهر السين. وفى كل لحظة كانت تنتظر أن تسمع رنين الجرس، فتسرى فى جسدها رعشة.

وحتى تجعل «هنرى» ينصرف تظاهرت بالتثاؤب، والتزمت الصمت، وتصفحت نوتة موسيقية كانت معها، ثم تثاءبت مرة أخرى، وعندما رأت أنه لا يريد الانصراف قالت له إنها يجب أن تخرج . وانصرفت ودخلت غرفة زينتها .

صاح عليها بصوت متأثر :

- وداعًا يا «لوين» !.... ربما لا أركِ إلى الأبد ؟ وعبث بيديه فى درج المكتب المفتوح يتصفح ما يجده .

وبمجرد أن وجد نفسه فى الشارع فض الرسالة المرسلة إلى المواطن «رولين» وقرأها باهتمام. فى الحقيقة كانت الرسالة تحتوى على لوحة عجيبة عن حالة الفكر العام فى فرنسا . تتحدث عن الملكة وعن «تيفينان»، وعن المحكمة الثورية، وأحاديث كثيرة ودية عن «بروتو ديزيليت» الطيب.

وبعـد أن أنهى قراءة الـرسالة ووضعـهـا فى جيبـه تردد للحظات، ثم اتخذ قـراره، وحَدَّثَ نفســه قائـلًا : إن خير البر عاجله. وتوجــه إلى قصر «التويليرى»، وتسلل إلى غرفة الانتظار للجنة الأمن العام .

فى هذا اليوم، فى الساعة الثالثة بعـد الظهر، كان «إيفاريست جاميلان» يجلس على مقعد المحلفين بصحبة أربعة عشر زميلًا يعرف معظمهم، إنهم أناس بسطاء، أشرافٌ ووطنيـــون، وعلماء وفنانون، وحـرفيـــون، أحـد الرســامين كان مثله، ومصــورٌ آخـر، الاثنان يتمتعان بالموهبـة. وهناك جـراح، وإسكافى، وماركيـز سابق، قَـدَّمَ العديد من الأمثلة على وطنيتـه، وطبَّـاعٌ، ومن صـغـــار التجـار ، وعيِّنة من عيِّنات سكان باريـس كـانوا يجلسون هناك، كل منهم بزيِّه الخاص، عامـلًا كان أو من البورجوازيين، شعرهم مقصوص على طريقة تيتوس (قصير من الأمام ومن الخلف على طريقــة الإمبراطور تيتــوس)، أو يرتدون الكاتوجـان (وهو عبـارة عن ضفائر مجدولة ومنسدلة على الرقبـة والصدر)، والقبعة المقرنة سَاقطة على رءوسهم حتى العيون، أو القبعــة المستديرة مـوضوعة على مـؤخرة الرأس، أو القلنسوة الحمراء التى تُخفى الأذنين .

البعض كـــانوا يـرتدون «الجاكت» ورداءً وسروالا، كما فى العهـــد الســابق، وآخـرون يـرتدون سُتْرَةً قصيرة وسروالًا مخططًا على طريقــة اللامتسرولين. وفى أقدامهم أحذية (بوت) أو أحذية (بالإبزيم)، أو خِفَاف، فكانت شخصياتهم تمثل جميع نوعيات الملابس الرجالى السائدة حينئذ . ونظرًا إلى أنهم جميعًا قـد جلسوا على مقاعـدهم كثيرًا وتعودوا على ذلك،

فإنهم يبدون فى راحة تامة على مقاعدهم، فى حين كان «جاميلان» يحسدهم على هدوئهم. ويخفق قلبه، ويشعر بطنين فى أُذنيه، وعيناه تختلجان، وكل ما يحيط به يبدو له فى لون داكن .

وعندما صاح الحاجب قائلًا : «محكمة »، اتخذ ثلاثة من القضاة مقاعدهم على منبر صغير أمام منضدة خضراء ، مُرتدين قبعة بإشارة وطنية، تعلوها ريشات سوداء، وروب الجلسة بشريط ثلاثى الألوان، وتتدلى على صدروهم ميدالية فضية ثقيلة . ويجلس أمامهم – أسفل المنبر – نائب المدعى العام مرتديًا بدلة مماثلة. وكان الكاتب يجلس بين هيئة المحكمة، وكان مقعد المتهم شاغرًا. كان «جاميلان» يرى هؤلاء الناس مختلفين عَمَّا كان يراهم من قبل، كان يراهم أكثر جمالًا ، وأكثر وقارًا، وأكثر مهابةً، بالرغم من أنهم يتناولون حالات شائعة، ويتصفحون أوراقًا ، وينادون على الحاجب ، أو يميل الواحد منهم إلى الخلف ليستمع إلى بعض البيانات من مُحلِّف ، أو ضابط فى الخدمة . وخلف القضاة كانت ألواح حقوق الإنسان معلقة، وعلى يمينهم وعلى يسارهم – على الحوائط الإقطاعية القديمة – تمثالان نصفيان لكلٍّ من «لوبيلتييه دو سان فارجو»، و «مارات». وفى مواجهة مقعد المتهمين – فى نهاية القاعة – تنتصب المنصة العامة . وبعض النسوة يُزَيِّنَّ الصف الأول، منهن الشقراوات، ومنهن السمراوات، أو الشهباوات، كُنَّ يرتدين على رءوسهن غطاءَ رأسٍ يُغطيه خِمارٌ ، كما يظلل أيضًا خدودهن، وعلى صدورهن – حسب الموضة للصدور الممتلئة – ينعقد منديلٌ أبيض حيث تنحرف «ياقته» على المريلة الزرقاء . كن يرتكزن بأذرُعِهِنَّ معقودة على

حـافـة المنصــة. ومن خلفهن كـان يوجـد بعض المواطنين المتناثرين على المقاعد، يرتدون أزياءً مختلفة ومتنوعـة، تضفى على الدهماء طبعًا غريبًا ومثيرًا للإعجاب. وعلى اليمين – عند المدخل تقـريبا، خلف أحـد الحواجز الثابتـة – يمتد مكان يقـف فيه الجمهـور. كان العدد هـذه المرة قليلًا. إن القضيـــة التى يتناولها قطاع المحكمـــة لا تهم ســـوى عـــدد صغير من الحاضرين، ولاشك أن القطاعـــات الأخـرى التى تجتمـع فى نفس الوقت تستدعى قضايا تهم كثيرًا من الناس .

ذلك ما كـان يُطمئن «جاميلان» قليـلا، والذى يوشك قلبه أن يضعف ولن يتحمل جو الجلسات الكبيرة الملتهبة . عيناه تتعلقان بأدق التفاصيل، كـان يلاحظ وجـود القطـن فى أُذن المُوَثِّق، ووجـود بقعـة حبر على ملف النائب. وكان يرمق بكل دقة تيجان الأعمـدة المنحوتة فى زمن ضاعت فيه كل معرفة بأصول الفن القديم، فتعلو الأعمدة القوطية باقاتٌ من الزهور ونبـات الآس والشـوك. غير أن نظراته كـانت تعـود دون انقطاع إلى هذا المقعـد العتيق، المزين بالقطيفة الحمـراء المتآكلة ، والمسـودة فى المساند. وكان يوجد أفراد من الحرس الوطنى بأسلحتهم يسدون جميع المنافذ .

وأخيرًا ظهـر المتهم يحرسه رمـاة القنابل اليدوية، ومع ذلك كـان غير مقيد الأعضاء كما حدد القانون . كان رجلًا فى حوالى الخمسين من عمره، نحيفًـا، ضــامـرًا، أسمـرَ اللون، أصلعَ الرأس، أجـوفَ الخَدَّيْن، رقيق الشفتين، ولونهما بنفسجى، وكـان يـرتدى مـلابس حسب الموضـة القديمة.

كـانت عيناه تتألقـان كأنهما من الأحجـار الكريمة، وتظهـر خـدوده لامعة، وذلك لأنه كان مصابًا بالحُمَّى . وجلس. كـانت ساقاه المشتبكتان نحيلتين إلى درجـة كبيرة، ويداه الكبيرتان المعقـوتان يلفهما معًا . وكـان يُسَمَّى «ماري أدولف جيليرج» وكان متهمًا بتبديدٍ فى أعلاف الجمهورية .

أدانه قـرار الاتهام بتهم كثيرة وخطيرة، ولم تكن أى واحـدة منهـا مـؤكدةً. وبسـؤاله، عنهـا نَفَى معظم هذه التهم، وفسر الأُخـرى تفسيرًا مـلائمًا له. كـانت لهجته مختصرة وباردة، وبصفـة خـاصـة كان لبقًـا، ويوحى بأنه رجل لا تـأمل أن تحصَل منه على شىء. كـانت عنده إجـابة لكل سـؤال . وعندما يـوجه إليـه القـاضى سؤالًا محرجًـا تظل قسماتُ وجهـه هادئةً، وثابت القـول، مع إسناد يديه على صـدره، متقلصتين من القلق.

لاحَظَ «جاميلان» ذلك ، وهمس فى أُذن جاره، وهو رسام مثله :

-أُنْظُرْ إلى إبهاميه !

ويأتى الشـاهد الأول ببعض الاتهامـات المُفْحِمَة. وعليهـا تُبنى جميع الاتهامـات، وهؤلاء الذين نُـودى عليهم فيما بعـد، أوضحـوا العكس، فى صـالح المتهم. كـان نائب المدعى العـام محتـدًّا، ولكنه التـزم الصمت، وتحدث الدفاع بلهجـة حقيقية، والتى كانـت تعنى بالنسبة للمتهم بعض التعاطف الذى لم يعرفه من قبل .

رُفعت الجلسة، واجتمع القضاة فى غرفـة المداولات. وفى الغرفة – بعد مناقشات غـامضة ومشـوشة – انقسموا إلى مجمـوعتين متساويتين فى

العـدد تقـريبًـا، فَنَرى من جهــة، غير المتحيـزين، والخاملين، وأصحــاب البراهين، لا تحركهم أى عــاطفــة، ومن جهــة أخــرى، نجــد هؤلاء الذين ينقادون خلف إحســاســهم، فلا تؤثر البراهين فيهم إلّا قليــلًا ، ويحكمون بقلوبهم، أى بعواطفهم، وهؤلاء كانوا يُدينون دائمًا. هؤلاء كانوا الطيبين، والمُصْطَفِين، لا يفكرون إلا فى إنقــاذ الجمهــورية، ولا يهتمــون بغير ذلك، وكان لموقفهم تأثير كبير على «جاميلان» الذى أحس أنه مُتَّحِدٌ معهم.

إن «جيليرج» هذا – كما يتصــور – مــا هو إلا محتالٌ حــاذق ، نَصَّاب، ضَــارَبَ على علف الْخيــول فى سلاح فرســاننا، وتبرئته تُعتبر إفــلات أحد الخائنين، وبذلك تُعَدُّ خيانة للوطــن، وتدفع بالجيش إلى الهزيمة ». وكان «جاميــلان» يتصور خَيَّالة الجمهــورية على مطاياهم التى تتعثر ، وتعمل فيهم ســيـــوف فـــرســــان الأعـــداء .... «ولكن إذا كـــان «جيليرج» هذا بريئًا؟....».

ويفكر فى الحال فى أمــر «جــان بليز» وهو مشكوك فيــه أيضًــا بالغش وعدم الأمــانة فى التوريدات. وآخــرون كثيرون يتصرفون مثل «جيليرج» و«بليز»، يتسببــون فى الهزيمة وضياع الجمهــورية ! لابد من عمل يكون قدوة وعبرة.. ولكن إذا كان «جيليرج» بريئًا ؟...

قال «جاميلان» بصوت عالٍ :

– « لا توجد أدلة ».

قــال رئيس المحلفين وهو يرفع كتفيــه تهكمًا : لا تــوجــد أدلةٌ مطلقًــا ! طيب ، وآمين.

وأخيرًا حصل على سبعــة أصوات لــلإدانة، وثمانية أصــوات للبراءة. وعــادت هيئة المحلفين إلى القــاعــة، واسُتؤْنِفَتِ الجلســة. كــان المحلفــون ملتزمين بإصــدار حكمهم، كُلٌّ تحدث بدوره أمــام المقعد الخالى . البعض كانوا مُطنبين، والآخرون كانوا يكتفــون بكلمة، وكان من بينهم من ينطق بكلماتٍ بلهاء. وعندما جاء دور جاميلان» نهض وقال :

– أمام جــريمة كبيرة مثل هذه – تجاه المدافعين عن الوطن – لابد من وســائل الإقناع. نريد أدلة دامغة لم تتــوفــر لدينا، وبأغلبية الأصــوات. وأعلن أن المتهم غير مذنب .

بعد ذلك مَثُل «جيليرج» أمــام القضــاة، تصــحبه همهمــة من المشاهدين يُنبئونه ببراءته. لقــد أصبح رجــلًا آخَــرَ، انفــردت قسمات وجهــه بعــد انكماشــها، وابتلت شفتيه الجافتين، كــان مظهره يوحى بالاحترام، ويعبر وجهه عن البراءة .

قرأ رئيس الجلســة بصــوت متأثر قرار براءة المتهم، وضــجت القــاعة بالتصفيق، والحارس الذى كــان يصطحب «جيليرج» ارتمى فى أحضــانه، والرئيس ناداه وعانقــه معانقة الإخوة، والمحلفون قَبَّلُــوهُ ، و «جاميلان» بكى بكاءً حارًّا .

وفى فناء القصر الذى تضيئه آخــر أضواء النهــار كانت هناك معمعــة مهتاجة. وفى اليوم التالى أعلنت القطاعات الأربعة فى المحكمة ثلاثين حكمًا بالإعــــدام. وعلى دَرَجِ السُّلــم الكبير كــــانت بعض الحائكــات يجلسن

القرفصاء ينتظرن رحيل العربات. أما «جاميلان» فكان ينزل الدرجْ فى وسط المحلفين والحاضرين، لا يسمع أى شىء إلا حكم العدالة والإنسانية، والتهانى التى هنأ بها نفسه لأنه عثر على البرءاة .

وفى الفناء كانت «إيلودى» متشحة بالبياض، دامعةً مبتسمة، وارتمت بين أحضانه، وظلت صامتة، وعندما استردت نبرات صوتها ، قالت له :

– أنت جميل يا «إيفاريست»، وطيب، وكريم ! فى هذه القاعة كانت رنة صوتك كلها رجولة وهدوء، وقد نفذت فى كيانى موجاتها المغناطيسية وكهربتنى. كنت أتأملك فى مقعدك. لم أَرَ سواك. ولكنك يا صديقى لم تكن تكهنت بحضورى ؟ ألم يدلك شىء على أنى كنتُ موجودة ؟ كنتُ جالسة فى المنصة، فى الصف الثانى على اليمين. يا إلٰهى ! كم هو جميل فعل الخير! لقد أنقذت هذا البائس ، ولولاك لَانْتَهَى أمره وأصبح من الهالكين. وأنت رددته إلى الحياة، وإلى حب ذويه .

فى هذا الوقت كان عليه أن يباركك . يا «إيفاريست»، كَمْ أنا سعيدة وفخورة بأننى أحببتك ! وسَارَا معًا متلاصقين تتشابك أيديهما، ويجوبان الشوارع، ويشعران بأنهما خفيفان، كأنهما طائران .

ذهبا إلى متجر «لامور بانتر»، ووصلا حتى الكنيسة الصغيرة، قالت «إيلودى» :

– دعك من المتجر أرَى ألَّا نَمُرَّ به .

وأدخلته من باب العربات، وصعد معها إلى الشقة. وعلى «بسطة» الدَّرَج أخرجت من حقيبتها الصغيرة مفتاحًا كبيرًا من الحديد ، وقالت :

– «إيفـــاريست»، هذا المفتـاح يشبـــه مفتـــاح السجن ، ستكون أنتَ سجينى.

عبرا غرفة الطعام، وأصبحا فى غرفـة الفتاة . كان «إيفاريست» يشعر بأن على شفتيه النضارة الحارَّة لشفتى «إيلودى». اعتصرها بين ذراعيه. مالت برأسها ، وتسبلت عيناها، وانسدل شعرها، ومال قَدُّها، شبه مُغمًى عليها ، وانفلتت منه وجرت، وأغلقت مزلاج الباب ....

كان الليل قد أسدل عندمـا فتحت «إيلودى» الباب لعشيقها، وقالت له بصوت خافت فى الظلام :

– وداعًا يا حبى ! حان وقـت عودة والذى ، إذا سمعت أى صوت على السلم فَـاصْعَـــدْ بسرعـة إلى الطابق العلوى، ولا تنـزل إلا بعـد أن يزول الخطر، خـوفًا من أن يراك أحـد . ولكى يُفتح لك باب الطريق انقُرْ نافـذة البوَّاب ثلاث مرات. وداعا يا حياتى ، وداعًا يا روحى !

وعندما وَجَدَ نفســه فى الشارع شَاهَدَ نافذة غرفــة «إيلودى» منفرجة قليلا، وامتدت يَدٌ صغيرة وقطفت زهرة قرنفل حمراء سقطت عند قدميه كأنها قطرة دم .

* * *

ذات مساء كان «بروتو» العجـوز يحمل اثنتى عشرة دستة من الدُّمَى التى يصنعهـا إلى المواطن «كـايو»، بشـارع «لالـوا». بائع اللعب، هادىء ولطيف عادة، وهو قـابع فى وسط عرائسـه وصوره المضحكة، ومع ذلك استتقبله البائع بغلظة ، وقال له :

– احـــذر أيها المواطن « بروتو » وانتبـــه ! ليس هـذا وقتَ الضحك ، وليست كل مـداعبـة مقبـولة ، فقـد زارنــى بالأمس عضــو فى لجنة أمن القطاع فى متجرى، وشاهد عرائسك ، ورأَى أنها ضد الثورة .

قال بروتو : كان يسخر !

– أبدًا أيها المواطـن ، أبدًا . إنه رجل لا يسخــــر أبدًا . قـــال إن هذه الشخصيـات الصغيرة فيهـا الصورة القـوميـة مُنَفَّـذَةٌ بخيـانة، ويمكن التعـرف فيهـا على «كاريكاتير» لكل مـن «كوثون»، و «ســان جـوست»، و«روبسبير»، واستـولى عليها . وفى ذلك خســارة كبيرة لى ، هذا بخـلاف الخطر الذى أتعرض له .

– ماذا ؟! هؤلاء «الكولان»، و «الجيـل»، و «الاسكاراموش»، وهؤلاء «الأرلوكان»، وهؤلاء «الكوليت»(١) الذين رسمتهم كما رسمهم «بوشيه» منذ خمسين عامًـا، يتحولون إلى «كوثون»، و «ســان جوست» مُقَلَّدِين ؟ لايوجد رجل عاقل يَدَّعِى ذلك .

واستطرد المواطن «كايو»: من الممكن أن تكون فعلت ذلك دون قصد ، ومع ذلك فـلابد دائمًا من الشــك فى رجل ذكى مثلك، ولكن الأمـرَ خطير . هل تـريد مثـــالًا على ذلك ؟ «نــاتوال» الذى يـدير مسرحًــــا صغيرًا فى «الشانزيليـزيه» أُلقى عليه القبـض أول أمس بتهمة اللاوطنيــة، لأنه قدم تمثيلَ الجمعية الوطنية بالعرائس .

---

(١) أسماء شخصيات كوميدية من فرقة الكوميديا الإيطالية، ونماذج فلاحين فى الأوبرا الكوميدية .

قال «بروتو»: وهــذه لطمة أخرى. واستأنف وهو يــرفع الحجاب عن دميــاته الصغيرة : انظر إلى هذه الأقنعــة وهذه الوجــوه ! هل يعبرون عن شىءٍ آخر سوى شخصيات كـوميدية ورعوية ؟ كيف تسمح لنفسك أن تقول – أيها المواطن «كايو» – أننى أُمثل الجمعية الوطنية ؟

كان «بروتو» مندهشًا ، ومع أنه ينسب كل شىء إلى كثير من الحماقة البشرية، فإنه لم يكن يتصــور قط أنها تصل إلى حد الاشتبــاه فى عرائس «الاسكاراموش» و «الكولينيت». فكان يعترض لبراءته وبراءتهم . غير أن الوطنى «كايو» لم يُصْغِ إليه ، وقال :

– أيها المواطن «بروتــو»، احملْ عــــرائسك، وأنا أُقَــــدِّرك وأحترمك، ولكننى لا أريد أن يُــوبخنى أحـــد أو يُسبب لى القلق بسببــك، فأنا أحترم القــانون، وأريد أن أظل مــواطنًا صالحًا ، وأن أُعَــامَل بهذه الصفــة . عِمْ مساءً أيها المواطن «بروتو» وارجع بعرائسك .

عَادَ العجوز «بروتو» أدراجه قاصــدًا مسكنه، وحاملًا معه مشبوهيه على كتفه على طرف عصــاه ، ويسخر منه الأطفال الذين كــانوا يعتقدون أنه بائع «مبيــد الجرذان». كانت أفكاره حــزينة، ولاشك أنه لا يعيش من دخل هذه العــرائس فقط، فهــو يرسم صـــورًا بعشرين فلسًــا للصـــورة الواحدة عند أبواب العربات، أو فى أحــد براميل الأسواق بصحبة مُرقعى الثيــاب، وكثير من الشبــــاب الذين يرحلون من أجـل الجيش يريدون أن يتركوا صورًا لعشيقاتهم الصغيرات. ولكن هذه القطع الفنية الصغيرة قد سببت له ألمًا عظيمًا، وكــان يجب عليه أن يصنـــع منها الكثير من الصـــور

بمقدار ما يصنع من عرائسه. وأحيانًا كان يخدم سيدات السوق كسكرتير، ولكن ذلك يعنى الانغماس فى مؤامرات ملكية، والمخاطرات كانت ضخمة. تذكر أنه كان يوجد فى شارع «نيف - دى بيتى - شان» القريب من ميدان «فاندوم» سابقًا، بائع لعب آخر يسمى «جولى»، وقرر أن يذهب إليه من اليوم التالى ليعرض عليه ما رفضه «كايو» الرعديد .

هطل مطر خفيف ، ويسرع «بروتو» الذى كان يخشى تلف عرائسه، فى السير، ولما كان مَعْبرُ « لوبون - نوف » مظلمًا وموحشًا انعطف فى ركن ميدان «نيونفيل»، وشاهد على ضوء شمعة على أحد الحواجز، رجلًا عجوزًا ونحيفًا يبدو عليه الإرهاق الشديد من التعب والجوع، ومع ذلك كان يحتفظ بمظهره المحترم .

كان يرتدى لاوية ممزقة، ولم يكن معه قبعة، ويبدو عليه أنه يبلغ أكثر من ستين عامًا ، عندما اقترب من هذا البائس تعرف عليه «بروتو»، إنه الأب «لونيجمار»، الذى أنقذه من حبل المشنقة، منذ ستة أشهر ، عندما كانا يقفان هما الاثنان فى الطابور أمام المخبز فى شارع أورشليم .

ويرى «بروتو» عَرْضَ خدمةٍ على هذا الراهب، فاقترب منه «بروتو» وأفهمه أنه رجل الأعمال الذى كان يقف بجانبه فى وسط السوقة، يوم المجاعة الكبيرة، وطلب منه أن يكون معينًا له، فقال له « بروتو » :

- يبدو عليك الإرهاق يا أبى ، خُذْ قطرة من المشروب المنعش .

وأخرج «بروتو» من جيب سترته الحمراء المائلة للسواد قارورة صغيرة بها مشروب «العرقى»، والذى كان مع كتابه عن «لوكريس».

– اشرب ، وسأُعينك على الوصول إلى مسكنك .

أَبْعَدَ الأب «لونجيمار» بيده القــارورة وحاول أن ينهض، ولكنه سقط ثانية على الحاجز، وقال بصوت ضعيف :

– سيدى ، تأكد أننى منذ ثلاثة أشهر كنت أقيم فى «بيكبوس»، وعلمت أنهم جــاءوا ليعتقلونى أمس، فى الساعــة الخامسة صبــاحًا، فلم أَعُــدْ إلى مسكنى، ولا يوجــد لى أى مأوى حــاليًّا، وهِمْتُ على وجهى فى الطرقــات، وأنا الآن قد نَالَ منى التعب والإرهاق .

قال بروتو : حسنًا يا أبى، شرفنى بأن تشاطرنى منزلى .

قال البرنابى : إنك تدرك جيدًا بأننى مشبوه يا سيدى .

– وأنا أيضًا مشبوه، وكذلك الدُّمَــى التى أصنعها ، وذلك ما هو أسوأ من أى شىء، وأنت تراها معــروضــة تحت هذه الغُلالة الرقيقــة، فى المطر الخفيف الذى نعانى منه. واعلمْ يا أبى أنى بعد أن كنتُ رجلَ أعمالٍ ، أقوم الآن بصنع العرايس لكى أتعيَّش منها .

أمسك الأب «لونجيمار» باليد التى مدها إليه هذا الممول السابق، وقَبِلَ الضيافة التى قَدَّمَها له . وقــدَّم «بروتو» له فى بيته الخبز والجبن والنبيذ الذى وضعه فى المزراب لكى يبرده، لأنه مُتْرَفًا .

وبعد أن خفف من جوعه ، قال الأب « لونجيمار » :

– سيدى ، واجب علىَّ أن أحيطك بالظروف التى جعلتنى أهرب ، حتى وجــدتنى إلى جانب هذا الحاجــز . إننى طُردت من ديرى ، وصرتُ أعيش

من الدخل الضعيف الذى تصرفه لى الجمعية، وكنت أعطى دروسًا خاصة فى اللغة اللاتينية والرياضيات، وكنت أكتب عن اضطهاد الكنيسة الفرنسية . وألفت أيضًا كتابًا أُوضح فيه أن قَسَمَ ولاء الكهنة الدستورى يتعارض مع الانضباط الكنسى. وتطورات الثورة قد انتزعت منى تلاميذى، ولم أستطع أن أحصل على إعانتى لعدم توافر شهادة الوطنية التى يتطلبها القانون. وتلك هى الشهادة التى سوف أطلب من البلدية، استحقاقى لها، وبما أننى عضو فى المنظمة التى أسسها المبشر «سان بول» بنفسه ، والذى استحق لقب مواطن رومانى ، فإننى أحببت أن أتأَسَّى خطاه كمواطن فرنسى صالح، يحترم جميع الشرائع البشرية، والتى لا تتعارض مع الشرائع الإلٰهية. وتقدمت بطلبى للسيد «كولان» الجزار الذى يبيع لحم الخنازير، وضابط البلدية المكلف بتخليص البطاقات التى من هذا النوع . فسألنى عن حالتى، وأجبته بأننى كنت راهبًا. وسألنى عَمَّا إذا كنت متزوجاً ، وبإجابتى بأننى لم أكن متزوِّجًا، قال لى : إن ذلك أسوأ بالنسبة لى . وأخيراً ،وبعد أسئلة متنوعة، سألنى عَمَّا إذا كنت أثبت وطنيتى فى ١٠ أغسطس ، أو ٢ سبتمبر، أو ٣١ مايو . وأضاف: «لا يمكن إعطاء شهادات إلا إلى هؤلاء الذين أثبتوا وطنيتهم بسلوكهم فى هذه المناسبات الثلاث ».

لم أستطع أن أجيبه إجابة شافية، ومع ذلك أخذ اسمى وعنوانى، ووعدنى بأنه سيجرى تحقيقًا فى حالتى بأقصى سرعة، ولقد أوفى بوعده، وكانت النتيجةأن اثنين من مفتشى لجنة الأمن العام فى «بكبوس»، حضرا

بقوة مسلحة، وزاروا سكنى وأنا غائب عنه ليقتادونى إلى السجن، ولم أعرف الجُرْم الذى أُتَّهَمُ به. ولكن، أعلم أنه يجب أن يُرْثَى للسيد «كولان»، حيث إن عقله مضطرب لأنه يُوبّخ أحد رجال الكنيسة بأنه لم يثبت وطنيته فى العاشر من أغسطس، أو الثانى من سبتمبر، أو الحادى والثلاثين من مايو. إن أى رجل يفكر هذا التفكير يستحق الإشفاق عليه .

قال «بروتو» : أَمَّا أنا فلا أملك أى شهادة ، ونحن الاثنان مشبوهان. ولكنك مُنْهَك القوى. اخلد أنت إلى النوم يا أبى، وغدًا سوف نتبادل الرأى فى مسألة أمانك .

وَأعطى ضيفه المرتبة الصوفية لينام عليها، واحتفظ هو بالمرتبة القش. وأصر الراهب أن يأخذها هو لينام عليها، وإلا فسوف ينام على البلاط. وبعد أن انتهيا من ترتيباتهما أطفأ «بروتو» الشمعة، اقتصادًا وحذرًا .

قال له الراهب : سيدى ، إننى أُقَدِّرُ ما تفعله من أجلى، ولكن وأسفاه ! مهما عبّرت لك عن امتنانى فلن أستطيع أن أوفيك حقك ! وليكافئك الله على ذلك ! وسيكون ثوابك عظيمًا . ولكن الله لا يُثيب على ما نفعله من أجله سبحانه إلَّا ما يكون عن فضيلة طاهرة وطبيعية . لذلك أرجوك يا سيدى أن تفعل فى سبيله ما أنت قائم بعمله من أجلى.

أجابه بروتو : يا أبى، لا تحمل أى هَمٍّ، فأنا لا أنتظر أى عرفان. إن ما أفعله لم أفعله من أجل حبك، فمهما تكن تستحق الحب يا أبى فأنا معرفتى بك محدودة جدًّا حتى أحبك، وأنا لا أفعله إلا من أجل حب

الإنسانيــة لا أكثر ، بالرغم من أننى لست بسيطًــا مثل « دون جوان »[1] لأُصَدِّقَ مثله أن الإنسانية لها حقوق، وهذا الاعتقاد فى أحد العقول الحرة مثل عقلى يُحزننى .

إننى أصنع ذلك بدافع الأنانية التى توحى للإنســان بجميع تصرفات الكرم والإخــلاص وذلك يجعل الإنســان يندب ســوء حظه فى ســوء حظ الغير، وذلك بِحَثِّــه على مــد العــون لإنســان مُشرفٍ على الموت يشبهــه فى الطبيعــة والمصير، فيعتقد أنه ينقــذ نفســه بإنقــاذه. كما أفعله عن بطَالَةٍ أيضا ، لأن الحيــاة تكون حتى هذه الدرجة غَثَّــة، ويجب أن ينصرف عنها بأى ثمن، وأن العمل الطيب يكون متعــة تافهــة نُقبل عليهــا لعدم وجــود غيرها أطيب منها .

كما أنى فعلت ذلك أيضًــا بكبرياء، ولأتميز عنك، وفعلتــه أخيرًا بروح تنظيمية، ولأوضح لك إلى أى درجة يمكن أن يكون أحد الملحدين قادرًا .

أجاب الأب «لونجيمار» قائــلًا : لاتَمُنَّ علىَّ يا سيدى ، فإن الله أعطانى الكثير من النِّعَمِ ولم يمنحك مثلا حتى هذه الساعة، ولكنى لستُ أقل منك قدرًا، وأدنى منك فى الاستحقاقات الطبيعية. اسمح لى فوق ذلك أن أتفوق عليك بميــزة، لأنك لا تعــرفنى فأنت لا تحبنــى، وأنا يا ســيــدى بدون معرفتك أحبك أكثر من نفسى، فإن الله يأمرنى بذلك .

هكذا تبــادلا الحديث، وجثا الأب «لونجيمار» على ركبتيــه على البلاط، وبعد أن تلا صلاته تمدَّدَ على المرتبة القش ونام فى هدوء .

---

(١) دون جوان : رجل أسطورى .


5

5

كان «إيفاريست جاميلان» يتخذ مقعده فى المحكمة للمرة الثانية، وقبل افتتاح الجلسة تبادل الحديث مع زملائه من المحلفين حول ما وصلت إليه أنباء الصباح، ومن هذه الأخبار ما هو كاذب ، ومنها ما هو غير مؤكَّد ، ولكن ما يمكن الاحتفاظ به كان صعبًا، وهو أن الجيوش المتحالفة، تُهيمن على جميع الطرقات، وتسير معًا ، وأن «الفانديه» منتصرة، وأن «ليون» ثائرة، و «طولون» سُلِّمت للإنجليز الذين أنزلوا فيها أربعة عشر ألف رجل. وكان ذلك بالنسبة للقضاة أحداثًا عائلية، بقدر ما هى أحداث تهم العالم أجمع. وهم على يقين بالهلاك إذا هلك الوطن، فهم يعملون لصالح الشعب، وهو عملهم الخاص. ومصلحة الأمة مختلطة بمصلحتهم، تُملى شعورهم وعواطفهم وسلوكهم.

تَسَلَّمَ «جاميلان» وهو فى مقعده رسالة من «تروبير»، سكرتير لجنة الدفاع، كانت الرسالة عبارة عن إعلان تعيينه عضوَ لجنة المتفجرات وملح البارود :

«عليك أن تُنَقِّب فى جميع كهوف القطاع لتستخرج منها جميع المواد الضرورية لصناعة البارود . ربما يكون العدو غدًا على أبواب باريس، ويجب على أرض الوطن أن تمدنا بالبارود الذى سنقذفه على الذين يعتدون عليها. أبعث إليك بتعليمات الجمعية الوطنية التى تتعلق بمعالجة ملح البارود ، مع السلام والإخاء ».

فى هذه اللحظة أُدْخِل المتهم، وكان من آخِرِ القواد الذين هُزموا، وسلمتهم الجمعية الوطنية إلى المحكمة، وكان أكثر غموضًا . وعندما رآه «جاميلان» أصابته رعشة، كان يعتقد أنه يرى هذا الرجل العسكرى للمرة الثانية، والذى كان مختلطًا بالجمهور، كان قد رآه منذ ثلاثة أسابيع خلت يُحاكَم ويُرسَل إلى المقصلة. كان نفس الرجل بمظهره العنيد وقِصَر نظره، وكانت نفس القضية، كان يجيب بطريقة ماكرة وعنيفة، كانت تُفسِد أفضل إجاباته .

إن مماحكاته وجدله التافه والاتهامات التى نسبها إلى مرءوسيه جعلته ينسى أنه يضطلع بمهمة تستحق الاحترام، وهى الدفاع عن شرفه وحياته . وفى هذه القضية كل شىء كان غير مؤكد، ومُتنازَع فيه : وضع الجيوش ، عدد الجنود ، الذخائر، الأوامر الصادرة ، الأوامر الواردة ، تحركات الفرق ... لم يكن أى شىء معروفًا ، ولم يعرف أحدٌ شيئا عن هذه التصرفات المشوشة العقيمة، والبعيدة الهدف والتى انتهت إلى كارثة. ومن الغريب أن كل واحدٍ ممنِ هنالك – ومنهم المحامى، والمتهم، والقضاة والمحلفون – لم يعترف أى أحد على غيره ولا على نفسه، فكلٌّ كان لا يعرف شيئا .

كان القضاة يفضلون وضع خطط ، وأن يبحثوا أمر التكتيك والخطة ، المتهم أهمل تأهباته الطبيعيـة من أجل المر . باللَّجاج، وكـانت المناقشات تدور دون هدف، و «جـاميلان» - طوال هذه المناقشـات - كان يرى على طُرقـات الشمال الوعـرة عـربات الذخيرة المتـوحلة، والمدافع المقلوبة فى الأخاديد، وعَبْرَ جميع الطرقات تنسابُ فى فـوضَى فِرَقُ الجنود المهزومة، فى حين فرسان العدو ينفذون من كل مكان عن طريق الممرات المهملة .

وكـان يُسمع من هذا الجيش المهـزوم صيحـاتٌ هائلة تتهم الجنرال. وفى ختام المناقشات، كان الظل يعم القاعة، ووجه «مارات» غير المميز كان يبدو كأنه شبح على رأس الرئيس .

وهيئة المحلفين التى كانت مكلفة بنطـق الحكم كانت منقسمة ، وأعلن «جاميلان » بصوت أجش يكاد يختنق فى حلقـه - ولكن بلهجة حاسمة - أن المتهم مذنبٌ بخيانة الجمهورية. وسَرَتْ همهمة استحسـان مرتفعة بين أفراد الجماهير، وجاءت تمتدح فضيلته الفتيَّة .

وعند الخروج على درجـــات السلم كـــان يتجمهـــر جمع غفير من الثرثارات، المَوْسومات بالشارات الوطنية، وكان «جاميلان» يسمع اسمه الذى بدأ المترددون على المحكمـــة يعـــرفـونه. وهجمـت بعض الحائكات يُلَوِّحن فى وجهه بقبضات أيديهن ويطالبن برأس النمساوية.

وفى اليـوم التـالى كان على «إيفـاريست» أن يُصـدر حكمًا على سيـدة مسكينة، الأرملة «مـا يريون»، حاملة الخبـز، كانت تتجـول فى الطرقات

تدفع أمـــامهـا عـربة صـغيرة، وتُعَلِّق مِحزَّة (قطعـــة خشب تحز عليهـا بالسكين حساب الخبز الذى توزعه). كانت تكسب يوميًّا ثمانية فَلْسَات .

كان مظهر نائب المدعى العام ينم عن عنف غـريب حيال هذه البائسة، والتى يبـدو أنها صــاحت قــائلة : «عاش الملـك !» عِدَّة مـرات، وتفـوهت بكلمات ضــد الثـورة فى المنازل التى تـوزع عليهـا الخبـز كل يوم، وأنها شريكة فى مؤامرة تهدف إلى تهريب المرأة «كابيه». وعندما سألها القاضـى اعترفت بالأعمال المنسوبة إليهـا، سواء ببســاطة أو بتعصيب، وجاهرت بإحساساتها الملكية بحماس شديد ، وَأَوْدَتْ بنفسـها.

كانت المحكمة الثورية تنصر مبدأ المســاواة، وكانت توضـح أن موقفها حيــال الحَمَّالين والشغالات متســاوٍ مع مـوقفهـا حيال الأرستقـراطيين والماليين، و «جاميـلان» لم يخطر بباله قط أنه يستطيع أن يكون غير ذلك فى عهد نظام حكم شعبى، وكان قد ارتـأى أن استثناء الشعب من التعذيب ازدراء وغطرسة، واعتباره هكذا يعنى أنه غير جـدير بالعقاب. واقتصار المقصلة على الارستقراطيين فقط كان يبدو له نوعًا من الامتياز الجائر .

بَدَا لجاميـلان أن يجعل من العقاب فكـرة دينية إيمانيــة، بأن يُضفى عليهـا فضيلة واستحقــاقــات خاصــة . وكـان يعتقـد أنه ينبغى إعـدام المجرمين، وأنه يُعَدُّ ظُلْمًا لهم حرمانهم منه. وأعلن أن السيدة «مايريون» مذنبة، وتستحق العقــاب السامى، ويأسف فقط على أن المتعصبين الذين تسببوا فى هلاكهـا مذنبون أكثـر منها، وأنهم ليسوا هنا حتى يتقــاسموا معها مصيرها .

كان «إيفاريست» يتـوجه كل مساء تقريبًـا إلى اليعقوبيين الذين كانوا يجتمعـون فى الكنيســة القـديمـة للدومينيكان، والمعـروفين عند العـوَّام باليعاقبة بشارع هونوريه .

وفى أحـد الأفنية، حيـث ترتفع شجرة الحريـة (شجرة صفصـاف)، حيث حفيف أوراقهـا مثل التمتمـة ، والكنيســة قـائمـة على طراز هزيل وكئيب، مُثقَلة بالقرميد بأعـلاها، وتبدو جبهتها من «الجمالون» العارى، وبها ثقب على شكل كُـوَّة بيضـاوية، وباب مقـوس يعلوه العَلَم بالألوان الوطنية، ومُعمَّمة بغطاء الحرية.

اليعقـوبيون - وكـذلك الرهبان الفـرنسيسكان (لى كورديلييـه)[1]، والرهبان (لى فويان)[2] اتخذوا مَقَرَّ واسمَ «الرهبـان المشتتين»، وَعَدُّوا «جـاميلان» مـواظبًا منذ زمن قصير على حضـور جلسات الكورديلييـه (الرهبـان الفـرنسيسكـان) لَمْ يجد عند اليعقـوبيين لا خِفَـافٍ ولا سُتَرٍ، ولاصيحـاتٍ كأتبـاع دانتـــون. فى نادى «روبسبير» كـان يســود الحذر الإدارى، والوقـار البـورجـوازى . ومنذ أن ذهـب صـديق الشعب كـان «إيفاريست» يتـابع دروس «ماكسميليـان» الذى يهيمن فكره على جميع

---

(١) لى كورديلييه : رُهبـان. جمعية أصدقاء حقوق الإنســان والمواطن . تأسست فى أحد أديرة الرهبان الفـرنسيسكان ١٧٩٠. أكثر راديكاليـة عن اليعقوبيين. وفى ١٧٩٤ تم تصفيـة النادى ، وأُلغى فى ١٧٩٥.

(٢) لى فويان : جمعية أصدقاء الدستـور، مقرها دير سـابق للرهبان فى الخامس عشر من يوليو ١٧٩١ بانشقاق اليعقـوبيين . وهم ملكيون معتدلون، كـان يرأسها لافاييـت، وبايى ، وبارنان ، واختفوا بعد العاشر من أغسطس ١٧٩٢ .

اليعقوبيين، ومن هنا – عن طريق الكثير من الشركات الفرعية – امتدت إلى جميع أنحاء فرنسا .

وأثناء قراءة المحضر كان يجول ببصره على الحوائط الجرداء، التى – بعد أن آوَتْ إليها الأبناء الروحيين لأعظم محقق فى محكمة التفتيش فى الهرطقة – ترى المتحمسين من المحققين فى الجرائم ضد الوطن .

هنا – ودون فخر – كانت تجرى وتُمارَس أكبر سلطات الدولة ، وكانت تُحْكَم العاصمة والإمبراطورية، وتُمْلَى المراسِم والقرارات على الجمعية الوطنية .

هؤلاء الحرفيون فى النظام الجديد للأحداث ، والقائمون باحترام القانون، ظلوا ملكيين فى عام ١٧٩١، ويريدونه أيضًا أن يظل عند عودة «فارين»(١)، باتصال مباشر بالدستور. وأصدقاء النظام القائم – حتى بعد مذبحة «شان دى مارس»، ثوريون ضد الثورة، وأغراب عن الحركات الشعبية، يُغذون فى نفوسهم العميقة والقوية حُبَّ الوطن، والذى كان قد أَوْجَدَ أربعة عشر جيشًا، وأقام المقصلة .

إن ما يعجب «إيفاريست» فيهم يقظتهم، وروح الشك، والفكر العقائدى، وحب النظام، وفن الهيمنة، وحكمة إمبيريالية . والجمهور الذى كانت تتكون منه القاعة لم يصدر عنه سوى غمغمة جماعية ومنتظمة، مثل حفيف أوراق شجرة الحرية الى ترتفع عند المدخل .

---

(١) فارين : مدينة فرنسية .

وفى هذا اليوم الموافق أحد عشر فنديمير (١)، صعد إلى المنصة ببطء شاب صغير، منحدر الجبهة، ثاقب النظر، مدبب الأنف، حاد الذقن، مجدور الوجه، بارد المظهر، وكانت تنتشر عليه ذرات الصقيع، ويرتدى زيًّا أزرق اللون يُظهر قامته. كان متكلفًا فى مظهره، ويتصرف بحساب، كأنه يريد أن يقول للبعض - ساخرًا - بأنه كأحد أساتذة الرقص الذى تُقَدَّمُ إليه تحية من الآخرين باسم «أورفيه الفرنسى» (٢).

ألقى «روبسبير» خطابًا بليغًا بصوت واضح ضد أعداء الجمهورية، وطعن ببراهين لاهوتية هائلة «بريسو» ومؤامراته. تحدث وقتًا طويلا بغزارة، وبانسجام، وألقى بالصاعقة على المتآمرين الذين يزحفون على الأرض.

سَمِعَ «إيفاريست» وَفَهِمَ، وكان - حتى ذلك الحين - يتهم «الجيروند» بالإعداد لإعادة تأسيس الملكية، أو بنصرة حزب «أورليانز»، وتأمل خراب المدينة البطولية التى خلَّصت فرنسا، والتى سوف تُنقِذ العالم فى يوم من الأيام.

والآن وقد اطَّلع على حقائق سامية ونقية بعين الحكيم، فَسَمَتْ بروحه فوق الأحداث الشائنة معصومة من أخطاء الحواس، فى منطقة اليقين المطلق، فالأحداث بذاتها ممزوجة ومملوءة بالتشوش، والأمور المعقدة هى التى يحار فيها المرء، وبَسَّطها له «روبسبير»، وقدم له الخير والشر

(١) فنديمير : الشهر الأول من السنة الجمهورية فى فرنسا.

(٢) أورفيه : شاعر وموسيقى.

فى صيغ بسيطة وواضحة. يعرضها فى الكلمتين : فيدرالية ، ولا انقسامية، ففى الوحدة واللا انقسام يكمن الخلاص ، وفى الفيدرالية يكمن الهلاك الأبدى . كان «جاميلان» يُحِسُّ بالبهجة العميقة التى يحسّها المؤمن الذى يعرف الكلمة التى تُنقِذ، والكلمة التى تُهلِك .

ومن بعد ذلك ستعرف محكمة الثورة - مثل المحاكم فيما مضى - الجريمة المطلقة والجريمة الشفهية، ولأن «إيفاريست» كان متديناً فكان يتلقى هذه الرُّؤَى بحماس كئيب، وكان قلبه يتحمس ويتمتع بفكرة مستقبلية من أجل التمييز بين الجريمة والبراءة، أى أنه سوف يكون لديه رمز يميز به بينهما . أيا كنوز الإيمان ، إنكِ تحلين محل كل شىء ! .

أمَّا الحكيم «ماكسميليان» فقد أنار له الطريق للأهداف الخبيثة لهؤلاء الذين يريدون أن يساووا بين الأموال، وأن يُقسِّموا الأراضى، ويُلغوا الغِنَى والفقر، ويُقيموا حياةَ كفافٍ موفق للجميع .

كان مُنخدعًا بِحكَمِهِمْ، وفى بداية الأمر أقرَّ أهدافهم التى رأى أنها تتفق ومبادئ الجمهوريِّ الحقيقى، ولكن «روبسبير» بأحاديثه إلى اليعقوبيين كَشَفَ له عن دسائسهم، واكتشف أن هؤلاء الناس الذين تبدو أهدافهم صافية، يرمون إلى قلب نظام الجمهورية، ولا يُنذرون الأثرياء إلا من أجل أن يوجدوا للسلطة الشرعية أعداءً قادرين وشرسين .

وفى الواقع، أنَّ مبدأ التملُّك إذا ما هُدِّدَ فإن الشعب بأسره ، بقدر ما هو مرتبط بما يمتلك - حتى ولو كان قليلا - ينقلب على الجمهورية فى التوِّ والحين . وإنذار المصالح بالخطر يعنى التآمر، فَتَحْتَ ستار إعداد

السعادة العالمية، وسيادة العدالة يتآمر هؤلاء الذين يقترحون - كهدف جدير بمجهود المواطنين - تساوى الناس فى المال والأملاك والأرزاق، كانوا خونة ونصابين، وخطورتهم أكبر من خطورة الفيدراليين.

ولكن أهم ما كَشَفَتْهُ حكمة «روبسبير» من أجل «إيفارست» هو جرائم وفضائح الإلحاد . جاميلان لم يُنكر قط وجود الله، وإنما كان مؤمنا بالله، وكان يؤمن بالعناية الإلٰهية التى ترعى البشر ، وكان معترفًا بأنه لم يدرك الخالق إلا مُبْهَمًا . وكان متمسكًا جدًّا بحرية الوعى، فسَلَّم عن طيب خاطر بأن بعض الشرفاء فى وسعهم أن يسيروا على نهج ذوى الصلاح مثل : «لاميترى»، و «بولانجيه»، و «البارون دولباك»، و«لالاند»، و «هيلفيتيوس»، والمواطن «ديبوى» بأن يؤسسوا أخلاقًا طبيعية، وأن يجدوا فى أنفسهم مصادر للعدالة، وقواعد لحياةٍ فاضلة .

وشَعَرَ أيضًا بالتعاطف مع الملحدين، عندما رآهم يُهانون ويُضطهدون. وقد أضاء له «ماكسميليان» فكره، وأزال ل غشاوته .

وببلاغته الفاضلة (هذا الرجل العظيم) أماطَ له اللثام عن حقيقة الإلحاد وطبيعته، وأهدافه وآثاره، وأوضح له أن هذه العقيدة التى تكونت فى الصالونات الصغيرة الأرستقراطية هى من أحط الاختراعات التى تخيلها أعداء الشعب ، لكى يُثبطوا عزيمته ويُسخِّروه، وأنه من الإجرام أن تنزع من قلوب البؤساء الفكر الذى يواسيهم بخلاصٍ مُجزٍ، ويُسلِّمهم إلى عواطف مدمرة - دون مُرشد ، ودون ضوابط - تدمر الإنسان وتجعل منه عبدًا حقيرًا، وأخيرًا ، فإن الأبيقورية (الانغماس فى

الملذات) المَلَكية لهيلفيتيوس تـؤدى إلى الخلاعةً ، وإلى القسوة، وإلى جميع الجرائم والآثام .

ومنذ أن تلقى المواطن العظيـم هذه الدروس صـار يمقت الملحـدين، خاصة عندما يكونون صرحاء ومبتهجين، مثل «بروتو» العجوز .

وفى الأيام التـالية كـان على «إيفـاريست» أن يحكم – بلا انقطاع – فى أمر أحـد أهل الثقة سابقًـا ، بأنه قد دمر غـلالًا ليُجَوِّع الشعب، ثلاثة من المهـاجرين الذين عـادوا ليشعلوا نار الحرب المدنية فى فـرنسا، وفى أَمْـرِ فتـاتين من باليـه إيجاليتيـه (قصر المساواة)، وأربعـة عشر متـآمـرًا من بريتون، وفى أَمْرِ نساء ، وشيوخ، وشباب، سادة وخدم .

الجناية معترف بها، والقـانـون صريح . ومن بين المذنبين امـرأة فى العشرين من عمرها ، يُزَيّنهـا رونق الشباب تحت ظلال نهايتها القـريبة، وجمالها الساحر. كانت تربط شعرها الذهبى بفيونكة زرقاء ، ووشاحها الخفيف يكشف عن رقبة بيضـاء وبضّة . كان «إيفـاريست» يوافق دومًا على الموت . وجميع المتهمين – بـاستثناء جناينـى عجـوز – أُرسلوا إلى منصة الإعدام (المِقْصَلة) .

وفى الأسبـوع التـالى حصد «إيفـاريست» وقطاعـه خمسـة وأربعين رجلًا، وثمانِىَ عشرة سيدة .

وكـان قضـاة محكمـة الثـورة لا يُميـزون بين الرجـال والنسـاء ، مستـوحين ذلك من مبدأ قـديم قِـدَم العدالـة نفسها . وإذا كـان الرئيس

«موننتانيه» قد تأثر بشجاعة وجمال «شارلوت كورداى»[1] وحاول أن يُنقذها بإفساد القضية، وفَقَدَ مقعده لهذا السبب، فإن النساء كُنَّ يُسْتَجْوَبْن دون مُحاباة، وفقًا للقاعدة العامة لجميع المحاكم .

وكان المحلفون يخشونهم ، ويحترسون من كيدهن، وما تعوَّدْنَ عليه من الخداع، ووسائل الإغراء لديهن . ولما كانت شجاعتهن لا تقل عن شجاعة الرجال ، فإنهن طالبن المحكمة بمعاملتهن مثل الرجال . وكان معظم هؤلاء الذين يحاكمونهن قليلى الافتتان أوذوى افتتان مؤقت، لا يتأثرون مطلقًا بهن .

كانوا يصدرون أحكامهم – سواء بالإدانة أو البراءة – على هؤلاء النسوة وفقًا لما يُمليه عليهم ضميرهم، ومعتقداتهم ، وحماسهم، ووفقًا لحبهم المَرن أو العنيف للجمهورية . وكانت هؤلاء النسوة يُبدِين تأنقًا فى تسريحات شعورهن حسبا تسمح لهن حالتهن البائسة . ولكن كان من بينهن عدد صغير من الفتيات، وكذلك عدد صغير من الجميلات، أَذْبَلَهُنَّ السجن والهموم ، وأجهدهن ضوء القاعة الساطع ، وحالات القلق التى تستولى عليهن آلمتْ جفونهن الذابلة، وبشرتهن الوردية، وشفاهن البيضاء المتوترة .

ومع ذلك فإن هذا المقعد المشئوم قد استقبل أكثر من مرة سيدةً شابةً جميلةً برغم شحوبها ، على حين تغشى عينيها ظلالٌ حزينة، تشبه غُلالات اللذة الحسية . وأمام هذا المنظر يكون المخلفون إمّا مشفقين وإما

---

(١) قاتلة « مارات » .

أشِدَّاء وسواء على المحلِّف أَلَآنَ أم اشتدَّ عند هذا المنظر، وساء عليه أبحث من خلال حواسه المعطلة فى أسرار هذه المخلوقة التى تصورها فى آنٍ واحد حية وميتة ، فإنه - وهو يحرك صورًا شهوانية ودامية - كان يتلذذ بوحشية فى تسليم هذا الجسد الشهى إلى الجلاد ، وذلك ما يجب أن نكتمه، ولكن لا يمكن إنكاره إذا عرفنا الرجال .

«إيفاريست جاميلان» فنان فاتر وعالم ، لا يعترف إلَّا بالجمال القديم، والجمال يوحى إليه بقدر كبير من الاحترام، لا بالارتباك. وكان لذوقه الكلاسيكى بعض من الصرامة فى أن يعثر على امرأة حسب هواه. لم يكن حساسًا بقدر متساوٍ، لا إلى جمال الوجه وألوان «فراجونارد»، ولا إلى أشكال «بوشيه». ولم يحدث قط أن شعر بالرغبة إلا فى حب عميق.

ومثل معظم زملائه فى المحكمة، كان يصدق أن النساء أخطر من الرجال . كان يبغض الأميرات السابقات، واللائى كان يراهن فى أحلامه يملأهن الرعب يُعْدِدْنَ مع اليزابيث والنمساوية(١) رصاصات لاغتيال الوطنيين . وكان يمقت أيضًا كل الصديقات الجميلات للممولين، والفلاسفة، ورجال الأدب ، لتمتعهنَّ بملاذٍّ حِسِّيّة وفكرية، وعيشهن فى وقت كان يحلو فيه العيش .

كان يبغضهن دون أن يعترف بذلك ، وعندما كان يحاكم إحداهن، فإنه كان يدينها ، وذلك عن حقد ، معتقدًا أنه حَكَمَ عليها بالعدل ، وفى

(١) اليزابيث : أخت لويس السادس عشر . والنمساوية هى : مارى أنطوانيت ملكة فرنسا .

سبيل خلاص الشعب وسلامته، وشرفه وحيائه الرجالى، وحكمته الفاترة، وإخلاصه للدولة، وما يتحلى به من فضيلة، كان يدفع تحت المقصلة رُءُوسًا شَجِيَّةً .

ولكن ماذا تعنى هذه البعقرية الغريبة ؟ منذ عهد قريب كان لابد من البحث عن المذنبين، والاجتهاد فى الكشف عنهم فى مكامنهم، وانتزاع الاعتراف منهم بارتكاب الجريمة والآن ، فإن الأمر لم يَعُدْ صيدًا بمجموعة من كلاب الصيد الضخمةَ، لمطاردة فريسة فزعة.. هكذا ، من كل جهة تُقَدِّمُ الضحايا نفسها . فهؤلاء نبلاء ، وعذارى ، وجنود ، وعاهرات يُقَدَّمون إلى المحكمة، وينتزعون من القضاة إداناتهم البطيئة، يطالبون بالموت كحق يتلهفون عليه للتمتع به. وكأنه لم يُكْتَفَ بهذه الكثرة التى مُلِئَتْ بها السجون بسبب حماسة الواشين، واجتهاد المدعى العام ومعاونيه فى أن يزجوا بهم إلى المحكمة، بل صار من الواجب أيضًا تدبير أمر التعذيب لهؤلاء الذين لا يريدون الانتظار .

وآخرون كثيرون متعجلون أكثر، بل أكثر تسرعًا ، يحسدون القضاة والجلادين على قتلهم، فيقتلون أنفسهم بأيديهم ! وتعدل صَوْلة الحب الجنونى للقتل، صولة الحب الجنونى للموت .

وعند البوابة عسكرى شاب ، جميل ، قوى، عاشق ، تَرَكَ فى السجن معشوقةً يحبها لدرجة العبادة ، قالت له : «عِشْ من أجلى !»، لكنه لم يُرِدْ أن يعيش، لا من أجلها، ولا من أجل الحب ، ولا من أجل المجد. وأشعل غليونه بورقة اتهامه. وكان جمهوريًّا، لأنه يستنشق الحرية بكل كيانه،

وقد جعل من نفسه ملكيًّا قبل أن يموت. المحكمة تجتهد فى تبرءته، لكن المتهم أقوى ، ويضطر القضاةُ والمحلفون إلى الإذعان .

وكان فِكْر «إيفاريست» يمتلىء بالقَلَق ، فقد كان شكاكًا بطبيعته، يمتلىء بالأوهام والشكوك من دروس اليعقوبيين، ولدى رؤية الحياة . وفى جنح الليل خرج وهو يتابع طريقه ليتوجه إلى «إيلودى»، كانت الطرقات سيئة الإضاءة، وكان يعتقد أنه فى كل منفذ يرى فى القبو لوحة الحوالات الحكومية المزيفة، وفى نهاية دُكَّان الخبَّاز أو البقال يكشف مَحَالَّ تكتظ بتخزين المُؤَن المحتكرة من خلال الزجاج اللامع للمطاعم، ويُخَيَّل إليه أنه يستمع إلى محادثات المضاربين الذين يتسببون فى خراب البلد بإفراغهم زجاجات نبيذ «بون» أو «كابليس»، وفى الشوارع الضيقة التى تفوح منها الروائح الكهريهة كان يلمح الساقطات مستعدات لأن يطأن بأقدامهن الشعار الوطنى بتهيللات من الشباب الأنيق . ويرى فى كل مكان، متآمرين وخونة . وكان يقول فى نفسه : «أيتها الجمهورية ! ليس لكِ غيرُ مُعينٍ واحد فى السِّرِّ والعلانية : المقصلة المقدسة ، فهى التى تُنقذ الوطن !....».

كانت «إيلودى» تنتظره فى غرفتها الزرقاء الصغيرة، التى تعلو متجر «لامور بانتر»، وحتى يعرف أنه يستطيع الدخول كانت تضع على إفريز نافذتها رشاشتها الصغيرة الخضراء، بالقرب من أصِّيص القرنفل .

إنه الآن يُسبب لها الفزع، فهو يبدو لها كأنه وحش ، ولكنها كانت تخشاه وتحبه حتى العبادة . وفى كل ليلة كان يعتصر كُلٌّ منهما الآخر بلا

وعى : العاشق الدموى والفتاة الشبقة ، كانا يتبادلان القبلات المتأججة فى صمت .

* * *

مع بزوغ الفجر ينهض الأب «لونجمار»، بعد أن نَظَّفَ الغرفة، ثم يذهب إلى كنيسة صغيرة بشارع «دانفيرا»، كان يخدم فيها كاهن غير محلف . كان يوجد فى باريس آلاف من الخلوات المتشابهة، حيث «الأكليروس» المتمرد يجتمع سريًا فى مجموعات مؤمنة صغيرة، ومع أن شرطة القطاعات كانت حِذِرَةً وكثيرة الشكوك فإنها كانت تغضُّ طَرْفَهَا عن أحضان الكنيسة المتخفية، خوفًا من الرعايا الغاضبين، ومراعاةً لما تبقى من احترام للأشياء المقدسة .

وَدَّعَ الراهب البارنابيتى مُضَيِّفَهُ الذى وجد صعوبة بالغة فى حَمْلِهِ على العودة لتناول العشاء، ووعده أخيرًا بأن الطعام لن يكون وافرًا ولا ناعمًا.

بَقِيَ «بروتو» وحيدًا ، فأوقد فرنًا صغيرًا من الطين ليُعِدَّ عشاء الراهب والأبيقورى (الذَّواقة).. كان يُعيد قراءة «لوكريس»، ويتأمل حالة البشر .

هذا الحكيم لَمْ يُفَاجَأْ بوجود أُناس بؤساء كانوا عبيدًا لا قيمة لهم لقوى الطبيعة، وفى حالات لا معقولة وصعبة، ولكنه كان من الضعف بحيث كان يعتقد أن الثوريين كانوا أكثر خُبثًا وأكثر حماقة من الآخرين فى خيالهم . باختصار، لم يعرف التشاؤم طريقه إليه قط ، ولا يعتقد أن

الحياة سيئة بوجه عام، فهو مُعجب بالعديد من جوانب الطبيعة، وخاصة الآلية السماوية (علم حركات الكواكب)، والحب الطبيعى، ويتكيف مع مشاغل الحياة منتظرًا يوم القيامة ، حيث لن يشعر أبدًا بالمخاوف ولا بالرغبات.

لَوَّن «بروتو» بعض العرائس بعناية، وصنع «زيرلين» دمية تشبه «تيفينان»، وكانت هذه الفتاة تُعجِبُه، وكان يُثنى بأبيقوريته على نظام الذَّرَّات التى كونتها .

هذه الاهتمامات شغلته حتى عودة الراهب البارنابيتى ، فقال له وهو يفتح له الباب :

– قلت لك يا أبى إن وجبتنا ستكون خفيفة. ليس لدينا سوى القسطل. كما أنه أيضًا لابد أن يكون مُتَبَّلًا.

صاح الأب « لونجيمار » وهو يبتسم :

– لا توجد وجبه ألذ منه. يا سيدى ، إن أبى كان رجلًا شريفًا وفقيرًا، وكان لا يملك سوى بيتٍ خرِب ، وبستان برى ، وغابة صغيرة من شجر القسطل . كان يتغذى هو وزوجته وأبناؤه الاثنا عشر بالقسطل الأخضر الكبير، وكنا جميعًا أقوياء وأشداء . وأنا كنت أصغرهم سنًّا، وكنت شقيًّا، فكان أبى يقول مازحًا بضرورة إرسالى إلى أمريكا لأعمل قرصانًا ....

آه يا سيدى ! ما أَزْكى رائحة حساء هذا القسطل ! إنها تُذَكِّرنى بمائدتنا المُتَوَّجَة بالأطفال ، حيث كانت أمى تبتسم .

وبعـد أن انتهى من تناول وجبته، توجـه «بروتو» إلى «جـولى»، بائع لعب بشارع «نوف – دى – بيتى – شـان»، والذى أخذ عـرائس رفضها «كايو»، ولم يطلب منها اثنتى عشرة دستة فقط كما كان يفعل «كايو»، بل طلب أربعًا وعشرين دستة للبداية فى التعامل.

وعندمـا وصل «بروتـو» إلى الشـارع الملكى سـابقًـا، رأى فى ميـدان «لاريفوليسيون» مثلثًـا من الصُّلْب يتألق بين حاملين من الخشب ، كانت تلك هى المقصلة. كان جمع غفير وهائـل ومبتهج من الناس يتجمع حول المقصلة، وينتظر العربات الممتلئة . وسيدات يحملن أطباقَ عرضِ الحلوى وينادين حلوى «نانتير» . وبائعـو المنقوع يقرعـون أجراسهم الصغيرة. وعند سفح تمثال الحرية، كان هناك رجل عجـوز يعرض صورًا بصرية على مسرح صغير تعلوه أرجوحة، حيث يقوم قـرد بعمل حركات توازن . وكـان يُشَـاهَدُ تحت المقصلة كـلاب تلعق الدمـاء التى سـالت فى اليـوم السابق.. غَيَّرَ «بروتو» طريقه إلى شارع « هونوريه » .

ويدخل منزله حيث كـان البارنابيتى يقـرأ فى كتاب الصلوات، فجفف المنضدة كل عناية، ووضـع عليها علبة ألوانه، وكذلك الأدوات والمواد التى يستعملها فى عمله .

قال «بروتو» مخاطبًـا إياه : إذا رأيت يا أبى أن هذا الاهتمام غير جدير بالصبغـة المقدسـة التى أنت عليهـا، فأرجـوك أن تساعـدنى فى صناعـة العرايـس ، فقد أوصـانـى السيد «جـولى» بصنع طلبية كبيرة جـدًا منها ، وأثناء قيـامى بتلـوين هذه الصـور التى شكَّلتهـا الآن، أكـون فى غـاية

الامتنان لك إذا قُمْتَ بقص رءوس وأذرعــة وسيقــان وجــذوع وفق هذا النمــوذج، وها هو ذا ، ولن تستطيع أن تجد أفضل منهــا ، فهى مُصَمَّمَــةٌ على طريقة « فاتو » و « بوشيه ».

قال «لونجيمار» : فى الواقع يا سيدى أننى أعتقد أن «فاتو» و«بوشيه» كــانا مُخْتَصَّيْنِ بابتكار مثل هــذه النماذج، وكــان من الأجــدر – من أجل مجدهم – أن يلتزموا بعمل عرائس بريئة مثل هذه العرائس . سيكون من دواعى سرورى أن أســاعــدك ، ولكننى أخشــى أَلَّا أكــون مــاهرًا بما فيــه الكفاية من أجل ذلك العمل .

كــان الأب «لونجيمار» على حق فى أن يشك فى مهارتــه بعد العــديد من المحاولات اليائســة. كان يجب الاعتراف بأن عبقريته لم تســاعده لِيُقَطِّعَ بشفــرة السكين دوائر مناسبــة من كــارتون رقيق ، ولكنه عندمــا سأل «بروتو» أن يعطيــه خيطًا ومِتَكًّا(١) أَبْدَى جدارة فى أن يزود هذه الكائنات الصغيرة بالحركة، والتى لم يكن على دراية بتشكيلهــا وتعليمها الرقص، وكــانت عنده نية طيبــة فى تجربتهــا بعد ذلك، بأن يعمل على تنفيــذ بضع خطوات لكل منها برقصة الجافوتا (الرقصة الفرنسية الريفية)، وعندما تجاوبت مع اهتمامــاته، لاحَتْ على شفتيه الغليظتين ابتســامة عــريضة . وذات مرة عندما جذب الخيط بقدر معين لإحدى عرائس «إسكاراموش» قال :

---

(١) المِتك : ما تُـدْخَلُ به التِّـكَّـةُ فى السراويل (المعجم الوسيط) .

– سيدى ، هذا القناع الصغير يذكرنى بقصـــة فريدة، وقد كان فى ذلك سنة ١٧٤٦ ، وذلــك أننى أنهيــت تدريبــى الكهنوتــى، تحت إشراف الأب «ماجيتو»، وهو رجل متقدم فى السن، ذو معرفة متعمقة، وعادات قاسية.

وفى ذلك العصر ربما نتـذكر أن العرائس كـانت مخصصة فى البـداية لتسلية الأطفال، وكانت لها تأثير على النساء ، وكذلك على الرجال ، شبابًا ومُسنين، تجذبهم إليهـا بطريقـــة غير عـادية .. كـــانت تنتشر بكثـرة فى باريس. وكانت مَحَالّ البائعين تكتـظ بها، وكنا نرى منها عند الأشخاص ذوى الكفاءة، ولم يكن نادرًا أن نرى منها فى الطرقات، أو فى نزهة شخص وقور يُرَقِّص عروسته.

إن العمـر، والطبع، ومهنة الأب «مـاجيتو» لم تقـه قط من العـدوى . عندمـا كــان يرى كل فــرد مشغــولًا بتحـريك رَجُلٍ من الكرتون، كــانت أصابعه تُعَبِّر عن نفاد صبر ، وعَبَّرَ فى الحال عن تَكَدُّره .

وذات يوم – من أجل أمر مُهم – قــام بزيارة للسيد «شوفيل» (محامٍ فى البرلمان)، وَلَمَحَ دُمْيَةَ مُعَلَّقة على المدفأة، فراودته رغبة مغرية بأن يجذب الخيط ، ولم يحقق ذلك إلَّا بعـد جهـد عظيم . ولكن هذه الرغبـة العابثـة طاردته، ولم تتركه يهمد. وقد استحـوذت عليه هذه الرغبة وفى دراساته، وفى تأمـلاته، وفى صلواته فى الكنيســة، وفى مجلس الكهنة، وعلى كـرسى الاعتراف، وعلى المنبر. وبعد بضعة أيام أفناها فى اضطراب مخيف، عرض هذه الحالـة غير العـــادية على رئيـس النظام، الذى كـــان لحسن الحظ موجودًا فى باريس. وقـد كان طبيبًا مرموقًا، وأحد أمـراء كنيسة ميلانو،

فنصح الأب «ماجيتو» بأن يُشبع رغبة ساذجة فى أساسها، ومُزعجة فى نتائجها، والإفراط فيها يُهدد بالتسبب فى اضطرابات خطيرة فى النفس التى تقع فريسة لها .

ووفقًا لهذا الرأى عاد الأب «ماجيتو» إلى السيد «شوفيل»، والذى استقبله – مثل المرة الأولى – فى مكتبه ، وعندما وجد «الدمية» معلقة على المدفأة، اقترب منها بحماس، وطلب من مضيفه أن يتفضل بالسماح له بأن يجذب الخيط ولو للحظة. سمح له المحامى بذلك عن طيب خاطر ، وأَسَرَّ له بأنه أحيانًا يقوم بترقيص « اسكاراموش » (ذلك كان اسم الدمية)، وهو يُعِدُّ مرافعاته، وأنه فى اليوم السابق أيضًا قد أعد خاتمة المرافعة لصالح سيدة مُتَّهَمَة زورًا بأنها سَجنت زوجها . الأب «ماجيتو» أمسك بالخيط وهو يرتعد، ورأى تحت يده «اسكاراموش» يتحرك كأنه ممسوس مُعَزَّم عليه ضد الشيطان، وهكذا أشبع رغبته، وتخلص من حالة هذه الرغبة العابثة .

قال «بروتو» : إن قصتك هذه يا أبى لم تدهشنى، فهذه الحالات موجودة، ولكنها ليست دائمًا وجوهًا من الكرتون التى تُسبب هذه الحالات .

ومع أنَّ الأب «لونجيمار»، كان راهبًا فإنه لا يتحدث مطلقًا عن الدين، و «بروتو» يتحدث عن ذلك دون انقطاع، ولما كان يشعر بعطف نحو الراهب البارنابيتى فإنه كان يتلهى بأن يداعبه بإثارته، وأن يُكَدِّر صفوه باعتراضات فى مبادىء مختلفة من العقيدة المسيحية .

وذات مرة ، بينما كانوا يصنعـوا معًا دُمَى زيرلين واسكاراموش (١)، قال «بروتو» :

– عندمـا كنت أنظر إلى الأحـداثَ التـى وضعتنا فى الموقف الذى نحن فيه، أَحَارُ فى معرفة أىُّ الأحزاب أَجَنٌّ مِنَ الأخرى فى ميدان الجنون العام، لم أَنْأَ بنفسى عن الاعتقاد بأنها ترجع إلى البلاط .

أجـاب الراهب قــائـلًا : سيـدى ، إن جميع الرجــال يصبحـون من المعتوهين ، مثـل نَبُـوخذ نَصَّر ، إذا تركهم الرب ولم ينظر إليهم ، ولكنَّـك لا تجد فى أيامنا هذه رجلًا لم ينغمس فى الجهل والخطأ إلى أقصى حد مثل السيد الأب «فوشيه»، ولا رجــلًا لم يكن شؤمًا على المملكة مثله.. لا جَرَم أن الله كان شديد الغضب على فرنسـا من أجل أن يرسل إليها السيد الأب «فوشيه» .

● يبدو لى أننا رأينا شريرين آخرين غير هذا البائس « فوشيه » .

– السيد الأب « جريجوار » كان يبدى كثيرًا من الدهاء .

● و «بريسو»، و «دانتـون»، و «مارات»، ومئات غيرهم.. مـاذا تقول عنهم يا أبى ؟

– سيـدى، هؤلاء مـن العلمانيين.. إنّ العلمانيين لا يستطيعـون أن يتحملوا نفـس مسئوليـات الرهبـان، وهم لا يفعلون الشر مـن علٍ، وجرائمهم ليست عامة.

---

(١) أسماء لعب .

● وما قولك يا أبى عن رَبّكم وسلوكه فى الثورة الحالية ؟

– لا أفهم مقصدك يا سيدى .

● قال أبنيقور : إن الرَّبَّ يريـد أن يُحَرِّم الشر ولا يستطيه، أو أنه قادر ولا يريده، أو أنه لا يقـدر على ذلك ولا يـريده، أو أنه يريده ويستطيعـه، فإذا كان يريده ولا يستطيعه فهو غير قادر، وإذا استطاعه ولا يريده فهو ضـال ، وإذا كـان لا يستطيعه ولا يريده فهو غير قـادر وشرير ، وإذا كان يريده ويستطيعه فلماذا لا يعمله يا سيدى ؟

ورمق « بروتو » متحدثه بنظرة قانعة .

أجاب الراهـب قائلًا : سيـد ى، لا شـىءَ أدْعَى إلى الشقاء من المشـاكل التى تثيرها أنت . إننى عندما أتحرى أسبـاب الجحود يُخَيَّلُ إلىَّ أننى أرى بعض النمل يعترض بعض القشات كعـائق فى مواجهـة سيلٍ عَرِمْ يندفع من أعـالى الجبـال، اسمح لى بِألَّا أناقشك، فَلَـدَىَّ من الأسبـاب الكثيرة، والمواهب القليلة ما يحملنى على ذلك ، ومع ذلـك ، فإنك قد تجد ذَمَّكَ الذى توجهه عند رئيس الدير القس «جينيه»[1] وعند عشرين آخرين، وسأقول لك فقط إن كل ما ذكرته عن «أبيقور» مـا هو إلا حماقة وجهالة، لأنه ذَكَرَ الرَّبَّ كأنه إنسان وله صفـاته . إن هؤلاء الجاحدين، من « سيلز» وحتى «بايل» و «فولتير» قد أفسدوا الحمقى بمثل هذه التناقضات .

قـال « بروتو » : انظر يا أبى إلى أين يقودك اعتقـادك ؟ لست مسرورًا

---

(١) راهب كاتب ، وجدلى فرنسى ، ولد سنة ١٧١٧ ، ومات سنة ١٨٠٣ .

أن يوجد فى لاَهُوتِك كل الحقيقة، وأيضًا لا تريد أن تقابل أى حقيقة فى أعمال العباقرة الذين يفكرون تفكيرًا آخر غير تفكيرك أنت .

أجاب «لونجيمار» : أنت مخطىء تمامًا يا سيدى ، فأنا على العكس، أعتقد أنه لا يوجد شىءٌ فى عقل الإنسان يكون كله خطأً تمامًا ، الملحدون يحتلون الدَّرْكَ الأسفل من المعرفة، وفى هذه الدرجة أيضًا تُبصر شعاعًا من العقل، وقبسًا من الحقيقة، وحتى عندما يغرق الإنسان فى المتاهات فإن له رأسًا وضع الله فيه الذكاء .

قال « بروتو » : حسنًا يا سيدى ، قد لا أكون فى غاية الكرم ، وسأعترف لك بأننى لا أجد فى عمل اللاهوتيين ذَرَّةً من الفكر السليم !

ومهما يكن من أمْرٍ ، فإن «بروتو» كان ينكر أنه يريد أن يهاجم الدين، الذى يعتقد أنه ضرورى للشعب ، كان يتمنى فقط أن يكون وُعَّاظُه من الفلاسفة وليسوا من رجال الجدل . وكان يأسف على أن اليعقوبيين يريدون استبداله بدين أكثر فتوة ، وأشد خبثًا .. أن يستبدلوا به دينَ الحرية، والمساواة ، والجمهورية، والوطن .

وكان قد لاحظ أن الأديان فى عنفوان شبابها كانت أكثر صَوْلَةً وقسوة ، وأنها هدأت عندما شاخ بها العمر .

وأيضًا يتمنى الإنسان أن نحتفظ بالكاثوليكية التى افترست الكثير من الضحايا فى عهد قُوَّتها ، والتى همدت الآن تحت وطأة السنين، فصارت تقنع بشهية متوسطة، ترتضى بأربع أو خمس وجبات شواء من الهراطقة (الملاحدة) فى مائة عام .

وأضاف قائلًا : وفضلا عن ذلك ، فقد تكيفت مع كل ما هو لاهوتى ومسيحى . كان لدىَّ مرشدٌ للإيليت ، وفى كل يوم أحد تقام فيه الصلاة كان يحضرها جميع الذين أدعوهم ، وكان أغلبهم من الفلاسفة ، وفتيات الأوبرا المولعات بالعبادة . كنت حينئذ سعيدًا ، ولى أصدقاء كثيرون .

صاح الأب «لونجيمار» قائلًا : أصدقاء ! أصدقاء !.... آه ! هل تعتقد يا سيدى أن هؤلاء الفلاسفة والأخدان كانوا يحبونك ؟ لا أعتقد ذلك .. فإن أحدهم قد لا يُميز أحد المعابد التى بُنيت لتمجيد الرب .

استمر الأب «لونجيمار» فى الإقامة لمدة ثمانية أيام عند «بروتو» دون أى قلق . كان يتابع بقدر الإمكان واجب جماعته ، وينهض من فوق فراشه المصنوع من القش ليصلى وهو جاثٍ على ركبتيه على البلاط ليقيم فروض الليل . بالرغم من أن الاثنين لا يتوافر لديهما سوى فضلات من الطعام، فعزم على الصوم والتقشف . ويلاحظ الفيلسوف هذا الزاهد مبتسمًا لهذه المشقة ، فيسأله ذات يوم :

– هل تصدق حقًّا أن الرَّبَّ يرضى ويحب ما تفعله، ويُسَرّ لرؤيتك هكذا تعانى من البرد والجوع ؟

أجابه الراهب قائلًا : إن الرَّبَّ ضرب لنا مَثَلَ الألم بنفسه .

وفى اليوم التاسع من إقامة الراهب «البارنابيتى» فى مخزن الفيلسوف، خرج هذا الفيلسوف عند الشفق حاملا عرائسه إلى «جولى»، بائع اللعب ، بشارع «نوف دى بيتى شان»، وعندما عاد كان سعيدًا لأنه

باع كل العرائس ، فلما كان فى ميدان «كاروسيل» سابقا، اندفعت نحوه فتاة بعباءة من الساتان الأزرق مبطنة بِفَرْوٍ ، وهى تعرج، وارتمت بين ذراعيه، وقبلته على طريقة المتوسلات فى كل وقت .

كانت تتحدث بصوت لاهث ومنخفض ، خشية أن يسمعها المارة :

- حنانيك ورُحماك !.... خُذْنِى معك أيها المواطن، وَاخْفِنِى إنهم فى غرفتى فى شارع «فرومنتو»، فبينما كانوا يصعدون اختبأتُ عند «فلورا» جارتى، وقفزتُ إلى الطريق من النافذة حتى التوت قدمى.... إنهم جاءوا يريدون إيداعى فى السجن وليقتلونى... فى الأسبوع الماضى، قتلوا «فيرجينى » .

أدركَ «بروتو» أنها تتحدث عن مندوبى اللجنة الثورية للقطاع، أو مفتشى لجنة الأمن العام. كان مجلس العموم فى ذلك الوقت به مُدَّعٍ فاضل، هو المواطن« شوميت»، الذى كان يُطارد العاهرات على أنهن من أشد أعداء الجمهورية. كان يريد أن يبعث من جديد العادات والتقاليد الحميدة .

والحق أنَّ آنسات باليه - ديجاليتيه (قصر المساواة) كانت وطنيتهم محدودة، وكُنَّ يأسفن على الحالة السابقة ولا يُخفين ذلك دائمًا ، والكثيرات منهن تم إعدامهن بالمقصلة كمتآمرات، ومصيرهن المأساوى قد أثار المنافسة الشديدة بين مثيلاتهن .

وسأل المواطن «بروتو» المتضرعة عن سبب إصدار الأمْرِ باعتقالها، فأقسمت أنها لا تعرف شيئًا ، ولم تفعل شيئًا يستوجب ذلك . فقال لها :

– حسنًا يَا بْنَتِى، أنْتِ إِذَنْ لَسْتِ مشبوهــة ، وليس هنالك ما تخشينه ، اذهبى ونامى ، ودعينى فى هدوء .

حينئذ اعترفت بكل شىء قائلة :

– لقد انتزعتُ شارتى الوطنية ، وهتفتُ : « عاش الملك ! » .

فاصطحبها متأبطًا ذراعها فى الطرقات المقفرة، قالت :

– ذلك لم يكن لأنى أُحب الملك، واعلم أننى لم أَرَهُ ولم أتعرَّف عليه قط، وربما لم يكن رجلًا كبقية الرجــال ، أو يختلف عنهم اختلافًا كبيرًا. ولكن هؤلاء أُناسٌ من الأشرار، فهم يُظهـــرون القســوة على الفتيــات اللائى لا حول لهن ولا قوة . إنهم يُضايقوننى ويؤذوننى ويوسعوننى سبًّا بشتى الطرق، وهم يريدون منى ألَّا أُمارس مهنتى . وليست لى أى مهنة أخرى . تصــور أننى حقًّــا لا أمتهن أى مهنة غيرها، وإذا لم أمــارس هذه .. فماذا يريدون ؟ إنهم يعاملون الصِّغَــارَ، والضعفاءَ، وباعــة اللَّبَنِ ، والفحّامين، والسَّقَّــائين، والغسَّالات بكل شــدة وضراوة ، ولن ينصلح حــالهم إلَّا إذا أثاروا ضدهم الطبقة الفقيرة .

نظر إليهــا .. كــان لها مظهــر طفلة . ويــذهب عنهــا الخوف . وكــانت مبتسمــة، وتعــرج عـــرجًــا خفيفًــا . سألها عن اسمهـــا . كــان اسمهــا «أثينابيس»، و تبلغ من العمر ستة عشر عامًا .

وعرض عليهــا «بروتو» أن يوصلها إلى حيث تريــد . هى لا تعرف أى شخص فى باريس ، ولكن لها خــالة ، تعمل شغــالة فى «باليــزو» يمكن أن تقيم عندها .

ويتخذ « بروتو » قراره ، ويقول لها :

- هلمَّ بنا يا صغيرتى .

واصطحبها متأبطًا ذراعَها .

عاد إلى منزله . ووجد الأب «لونجيمار» يقرأ فى كتاب الصلوات، فقدَّم إليه «أثينايبس»، وكان يمسكها من يدها ، وقال :

- أبى ، هذه فتاة من شارع «فرومانت»، صاحت «يحيا الملك!»، وشرطة الثورة فى إثْرِها . ليس لها أى مناص .. هل تسمح بأن تقضى الليل هنا ؟

أغلق الأب «لونجيمار» الكتاب الذى كان يقرؤُه وقال :

- إذا صدق حَدْسى عن سؤالك فأنت تسألنى عَمَّا إذا كانت هذه الفتاة التى تُعتبر مثلى (تحت طائلة قرار اعتقال) تستطيع أن تقضى ليلتها من أجل سلامتها المؤقتة فى نفس الغرفة التى أقيم فيها .

- نعم يا أبى .

● وبأى حق أعترض على ذلك ؟ وإذا كنت تعتقد أننى مُتَكَدِّرٌ من وجودها ، فَمِن أين لى أن أدرى أننى أكثر منها قيمة ؟

واضطجعَ طوالَ الليل على مقعد بمسندين قديم ومتهالك، مؤكدًا أنه سينام عليه مستريحًا، فى حين نامت «أثينايبس» على المرتبة، وأطفأت الشمعة .

كانت أجراس الكنائس تدق كل نصف ساعة، وكل ساعة، ولم يغمض له جفن ، وكان يشعر بأنفاس الراهب والفتاة، وَيَطْلُع القمر، الذى هو صورة وشاهد على غرامياته السابقة، باعثًا بأشعته الفضية على السقف، حيث أضاء الشعر الذهبى ، والحواجب الذهبية، والأنف الدقيق ، والفم المستدير الأحمر للفتاة «أثينايبس» التى كانت نائمة وهى مضمومة الأصابع .

ويقول فى نفسه :

– « ها هى ذى ، عدوة لدودة للجمهورية ! » .

عندما استيقظت «أثينايبس» كان النهار قد استبان، وكان الراهب قد انصرف ، و « بروتو » كان يقرأ «لوكريس» بجوار النافذة الصغيرة. كان يتثقف بدروس الوحى اللاتينى ليعيش دون خوف، ودون رغبات ، ومع ذلك كان يفترسه الندم والأسى .

وعندما فتحت «أثينايبس» عيونها شاهدت فى دهشة عوارض المنزل الخشبية فوق رأسها، ثم تذكرت ، فتبسَّمت لمُنقذها ، ومدت يديها الصغيرتين الجميلتين القذرتين لتداعبه وأشارت بأصبعها – وهى منتصبه على فراشها – إلى المقعد المتهالك ، حيث قضى الراهب ليلته عليه ، وقالت :

– هل انصرف ؟.... قُلْ، ألم يذهب للوشاية بى ؟

● لا ، يا صغيرتى . لا يوجد فى العالم رجل أشرف من هذا العجوز المجنون .

فسألتـه «أثينابيس» عن جنون هـذا الرجل الطيب، وعندمـا قـال لها «بروتو» إنه الدين، فوجهت إليه اللوم لِئلّا يتحدث هكذا عنه، قائلة له : إن مَنْ لا دين له يُعَـدُّ أسوأ من البهـائم. وأما بالنسبـة إليها ، فهى تصلـى الله دائمًا ، آملة أن يعفو عنها ويغفر لها خطاياها ، وأن يتغمدها برحمته .

وعندمـا لاحظت أن «بروتو» يُمسـك بكتـاب ، اعتقـدت أنه كتـاب صلوات، فقالت له :

– هكذا أنت تقرأ صلواتك ! إن الله سوف يثيبك على ما قمت به معى .

أوضح لها «بروتو» أن هذا الكتـاب ليس للصلوات، وأن هذا الكتـاب يرجع تاريخ كتابته إلى ما قبل أن تدخل فكرة الصلاة فى الدنيا ، فاعتقدت أنه تفسير للأحـلام، وسألته عَمَّا إذا كان يتضمـن تفسير حُلم غير عادى رأته فى منامها .

إنها لا تعرف القراءة، ولم تكن تعرف – عن طريق السمع – إلا هذين النوعين من الكتب .

أجابها «بروتو» : إن هذا الكتاب لا يُفَسِّرُ سوى حلم الحياة !

ولما لمستْ صعوبة هذه الإجابة ، عَـدَلَتْ عن أن تفهمها وغمرت طرف أنفها فى الإناء الخزفى الذى يحل – بالنسبة إلى «بروتو» – محل الأحواض الفضية التى كـان يستخدمها فيما مضى . ثم ساوت شعـرها أمام المرآة بعناية فائقة .

وكـانت ذراعاها البيضـاوان معقودتين فـوق رأسها، وكـانت تتلفظ ببعض الكلمات حينًا بعد حين ، قالت :

– لقد كُنْتَ ثريًّا .

● وما الذى جَعلكِ تعتقدين ذلك ؟

– لستُ أدرى ، ولكنكَ كنتَ مترفًا ، وكنتَ أرستقراطيًّا ، إننى متيقنةٌ من ذلك .

ثم أخرجتْ من جيبها تمثالًا صغيرًا من الفضة للعذراء مريم فى كنيسة صغيرة من العاج ، كما تُخرِج قطعةَ سُكر، وخيطًا ومِقَصًّا، وقداحة، ومئبرين أو ثلاثة، وبعد أن أخذت ما يلزمها، شرعت فى ترقيع تنورتها التى كانت ممزقة فى مواضع كثيرة .

قال لها «بروتو» : من أجل سلامتك يا صغيرتى ضَعِى هذا على غطاء رأسك ! ثم ناولها شارة وطنية ثلاثية الألوان .

أجابته قائلة : سأفعل ذلك يا سيدى عن طيب خاطر ، ولكن لن أفعله محبة فى الأُمة ، بل محبة لَكَ أنت .

وعندما تهندمتْ وَبَدَتْ بأفضل هيئة ، أمسكت بطرف تنورتها، وانحنت باحترام – كما تعلمت فى القرية – وقالت لبروتو :

– سيدى ، إننى خادمتك المتواضعة .

كانت على أتم استعداد أن تُرضى مُضيفها فاعِلَ الخير بأى طريقة، ولكنها وجدت أنه من اللائق ألَّا يطلب شيئًا ، وأنها لا تعرض شيئًا .. كما بَدَا لها أن من اللائق أيضًا أن يفترقا هكذا وفقًا لأصول الذوق .

وضع «بروتو» فى يدها بضعة حوالات حكومية من أجل أن تستقل العربة إلى « باليزو ». كان ما أعطاه يساوى نصف النقود التى معه، وبالرغم من أنه معروف بإسرافه على النساء، فهو لم يتقاسم ماله مع أى سيدة من قبل .

سألته عن اسمه .

– اسمى « موريس » .

فتح لها الباب آسِفًا :

– الوداع يا « أثينايس » .

فقبَّلته قائلة :

– سيدى «موريس»، عندما تُفكر فىَّ، سَمِّنِى «مارت»، فذلك هو اسمى الأول، والاسم الذى يطلقونه علىَّ فى القرية... الوداع ، وشكرًا.... إننى خادمتك المطيعة يا سيدى «موريس» .

* * *

كان لابد من تفريغ السجون المكتظة، وكان لابد من إصدار الأحكام دون هدنة، وبلا هوادة. كان القضاة – مثل أسلافهم الملكيين – يجلسون فى هدوء مخيف ، ويحتفظون بوقارهم أمام حوائط مغطاة بشعارات فاشستية، وأغطية رأس حمراء اللون – مثل أقرانهم – على زهور الزنبق (كانت زهرة الزنبق رمزًا للملكية فى فرنسا) .

المدعى العـــام ونوابه مُنْهَكُون من الإرهــاق ، وبحــالة سيئــة من أثر السـهر ومعــاقرة العرقى (مشروب كحولى)، لا ينفضــون عن كاهلهم هذا الإرهاق إلا بمجهـــود عنيف، وســـوء حـــالتهم الصحيـــة جعلت منهم شخصيات مأساوية .

المحلفون، من أصـــول وطباع مختلفــة، جبناء أو كرمــاء، منافقون أو مخلصـــــون، ولكن جميعهم – حيـــــال الخطــر الذى يُحدِق بالــوطن والجمهـورية – إما يشعــرون أو يتظاهرون بأنهم يشعــرون بنفس الغمِّ والجَزَع، وأنهم يحترفون بنفس اللهيب، وجميعهم قُسَاةٌ، إمَّا عن فضيلة، وإمَّـــا عن خوف. وهم جميعــا يُشكلون مخلوقًا واحــدًا ، أو رأسًا واحـدًا غاضبًا أَصَـمَّ، أو نفسًا واحدة، أو دابَّة غــامضة إذا قامت بأعمالها بطريقة طبيعية، تسفر عن فيض من حالات الموت.

وسـواءً كانوا قسـاةً أو بواسِلَ بــالإحساس فإنهم تهزهم فجأة حركة شفقــة مباغتــة، فقد بَرَّءُوا، أحــد المتهمين، وكانوا منذ ســـاعة قــد أدانوه بسـخرية. كلما تقــدموا فى مهمتهم كــانوا يتبعون – بلا رحمة – دوافعهم العاطفية .

إنهم يُصدرون أحكامهم وهم محمومـون، وفى غفوة، نتيجة للإفراط فى العمل، وتحت تحريضٍ مِمَّنْ هم بالخارج، وبأوامر من الحاكم، وتحت تهديد اللامتسرولين لهم، والحائكات المندفعــات فى المنصـــات، وفى الحرم العمومى ، وفقًا لشواهد دامغة عن قــرارات اتهام هذيانية، وفى جو فاسد

يثقل على العقول، ويسبب طنينَ الآذان وضربًا للأصداغ، ويغشى العيون بغلالة من الدماء .

وتسرى إشاعات غامضة بين أفراد الشعب عن بعض المحلفين المُرتشين بأموالٍ من المتهمين، ولكن هيئة المحلفين ردت على هذه الشائعات باعتراضات ساخطة، وإدانات صارمة .

وأخيرًا ، هؤلاء كانوا رجالًا ، لا هم أسوأ ولا أفضل من الآخرين. والبراءة – فى معظم الأحيان – سعادة وليست فضيلة، وأى فرد قَبِلَ أن يضع نفسه مكانهم يتصرف مثلهم، ويقوم بهذه المهام الخانقة بروح متواضعة .

و«أنطوانيت» التى طال انتظارها. جاءت أخيرًا لتجلس بثوبها الأسود على المقعد المشئوم، فى وسط جوقة حقدٍ وكراهية، وأن المصير المحتوم الذى سوف يتضمنه الحكم كان معروفًا مقدمًا، وهو الذى أدى إلى احترام الشكليات.

وكانت المتهمة تجيب على الأسئلة القاتلة تارة بتحفظ غريزى، وأخرى باستعلائها الذى جُبِلَتْ عليه، ومرة – بفضل فضيحة من أحد وشاتها – تُجيب بعظمة أُمٍّ من الأمهات . كانت الوشاية أو الإهانة فقط هى الشىء الوحيد المسموح به للشهود ، والدفاع يَجْمُد من الخوف.

كانت المحكمة مجبرة على أن تحكم حسب القواعد والأصول، كانت تنتظر حتى ينتهى كل ذلك، لكى تلقى برأس النمساوية إلى أوروبا .

وبعـــد ثلاثة أيام من إعـــدام «مـــارى – أنطـــوانيت»، تم اسـتـدعـــاء «جاميـــلان» تلبية لرغبـــة المواطن «فورتينيـــه تروبير»، الذى كان يحتضر على بُعْـد ثلاثين خطوة من المكتب العسكرى، حيث كان يُسْلِم روحــه على سرير من السُّيُور فى خَلْوَة أحـد البارنابيين المُبعدين، ورأســه الأدكن كان غاطسًـا بين طيات الوســادة، وعيناه – اللتـان لم يعد يرى بهما – كـانتا تدوران فى مُقْلتِيهما الزجاجيتين نحو «إيفاريست»، وأمسكت يده الهزيلة بيد الصديق وضغطت عليها بطريقة غير مُنتظرة. وكان قد تَقَيَّأَ دمًا ثلاث مــرات فى يومين. حـــاول أن يتكلم، كـان صـــوته فى البـــداية واهنًا وغير واضح، كأنه همهمة ، ثم علا وتضخم :

– فاتينيى[1] ! فاتينيـــى !... جوردان[2] هاجم العدو فى معسكره... وفك حصـــار «موبوج»، واسـتـولينا على «مارسيـــان»[3] واستردناها... وكل شىء سيكون على ما يرام ... وابتسم .

لم تكن تلك أحلاَم مريضٍ أو تهيـؤات المرض، بل كانت رؤية واضحة للحقيقة التى أنارت هذا العقل الذى حلت عليـه الدياجير الأزلية. ومن بعد ذلك، كان يبدو أن الغزو قـد توقف : الجنرالات كانوا مرهوبين، فَرَأَوْا أنه ليس هناك أفضل من الانتصار، وذلـك ما يحققه التجنيـد التطوعى، فقد أَمَدَّهُ بجيـش كبير العدد مُدَرَّبٌ ومنضبط، وإذا مـا بُذِلَ مجهودٌ آخَـر فإن الجمهورية يمكن أن تُنْقَذ .

---

(١) بلدة فى شمال فرنسا .

(٢) قائد فرنسى .

(٣) مدينة فى شمال فرنسا .

وبعد نصف ساعة من الإنهاك اضْمَحَـلَّ وجه «فورتينيه تروبير»، ثم عادت إليـه الحيوية مرة أخـرى، وارتفعت يده وأشار بأصبعـه إلى قطعة الأثاث الوحيـدة البـاقيـة فى الغـرفـة، مكتب صغير من خشب الجوز، وبصوته اللاهث الضعيف، الذى يتحكم فيه فِكْرٌ جَلِىٌّ قال :

– أَىْ صـديقى ، إننـى مثل «أوداميـداس» أُوصِيكَ بديـونى، وهى ثلاثمائة وعشرون جنيهًا، ستجـد حسابها فى هذا الدفتر الأحمر... الوداع يا «جـاميلان»، لا تغفل عنهـا، واسهـر على سلامـة الجمهورية. الأحـوال ستكون مُرضية.

وأسدل الليل ستاره على الخَلْوَة، وكانت أنفاس المحتضر تتردد ، ويداه تفرك الملاءة. وعند منتصف الليل نطق بكلمات متقطعة :

– المزيد من ملح البـارود.... سَلِّمِ البنادق.... الصحـةُ ؟ جيدة جـدًّا... أَنْزِلُوا هذه الأجراس ....

وَلَفَظَ أنفـاسه الأخيرة فى الساعـة الخامسة صبـاحًا. وبأمـر القطاع عُرِضَ جسـده فى الكنيسة السـابقة للبـارنابيت، عند سفح هيكل الوطن، على سرير ميدان، وجسده ملفـوف فى عَلَمٍ ثلاثى الألوان، ويحيط بجبهته إكليل من البلوط .

ويحيط بسريره اثنا عشر عجـوزًا يرتدون التـوج (ثوب رومـانى فضفـاض)، وحاملين سعفًـا (جـريد نخل) فى أيديهم، واثنتا عشرة فتـاة يسحبن غـلالات طويلة ويحملن زهورًا، ويُحِطْنَ بالفِرَاش. وعند قـدمى الميت طفـلان يمسك كل منهما مَشْعَلًا مُنكسًـا. تَعرَّف «إيفـاريست» على

أحـــدهما ، كانت ابنـــة بوابته «جــوزيفين» التى – بجــاذبيتهــا الطفوليــة، وجمالها الســاحــر – كــانت تُذَكِّــره بجِنيَّــات الحب والموت اللائى كــان الرومان ينحتونها على توابيتهم .

توجه الموكب إلى جبانة «ســان – أندريه – ديزار» بالأناشيد الوطنية، وكــانت الأحوال مــرضيــة. وبعد أن طبع «إيفــاريست» قبلة الوداع على جبين «فورتينيــه تروبير» انخرط فى البكاء. وبكى على نفسه هو، حــاسدًا هذا الذى يرقد للراحة الأبدية لاكتمال مهمته .

وعندما عــاد إلى منزله، تسلم إعلانًا بأنه عُيِّن عضــوًا فى المجلس العام لمجلس العمــوم. وقد رُشح لهذا المنصب منذ أربعــة أشهــر، وكان قــد تم انتخابه دون منافس، وبعــد اقتراعات عديدة بما يقــرب من ثلاثين صوتًا انتخابيًــا. لم يكن هناك تصويت، كــانت الإدارات مقفرة، وكــان الأثرياء والفقراء لا يبحثون إلَّا عن التخلُّص من المهام العمومية.

أعظــم الأحــداث لم تكن تحثُّ على حماسٍ أو تطــلُّــع ، وأصبح النــاس لا يُطالعون صُحُفًا، وكــان «إيفاريست» يشك فى أن من بين سبعمائة ألف نسمة (هم سكان العاصمة) ثلاثة أو أربعة آلاف فقط هم الذين لهم روح جمهورية.

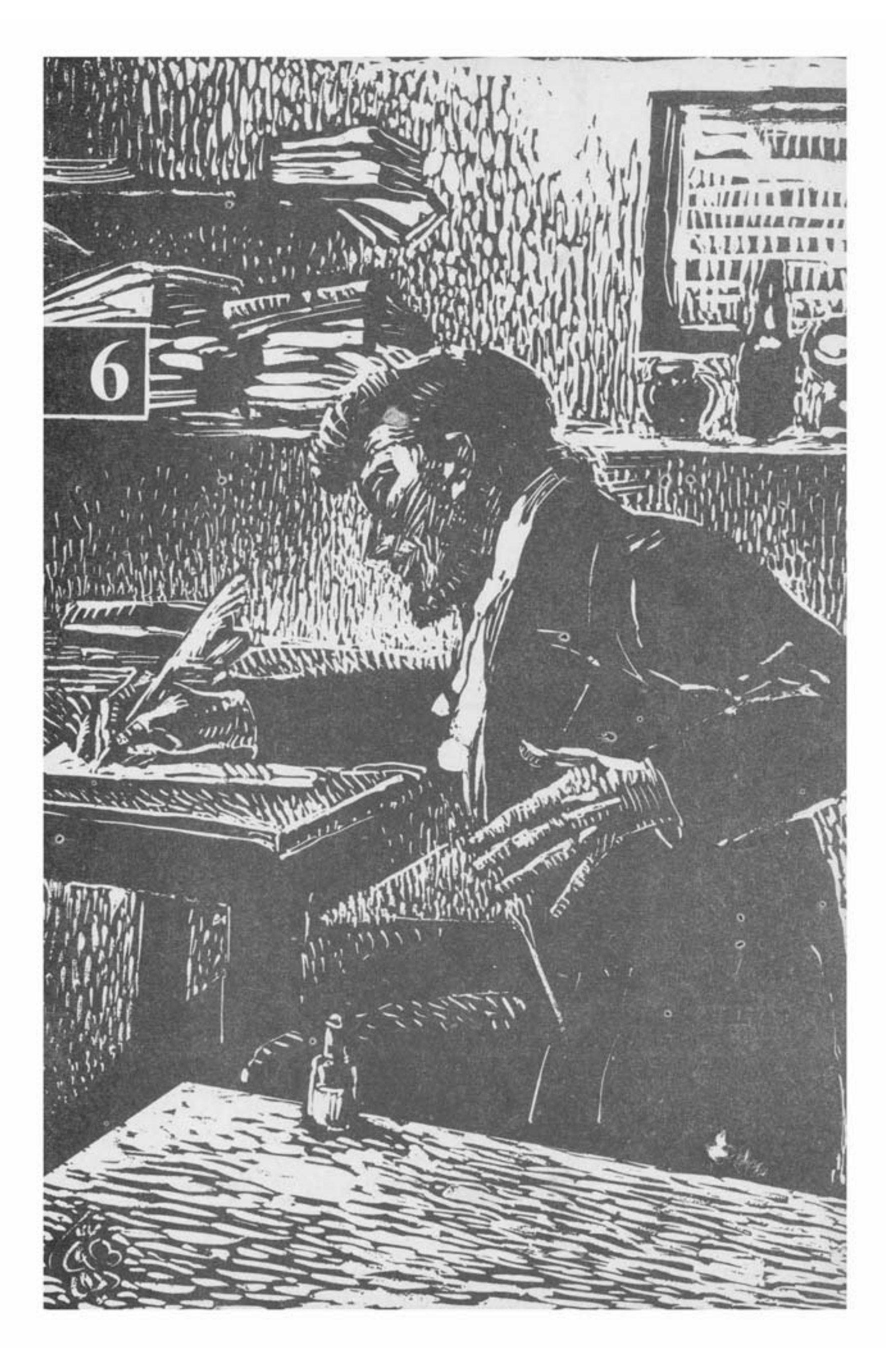
فى هذا اليــوم، الواحد والعشرون مَثُلُوا أمــام القاضى. هم مــذنبون أو أبرياء من بؤس وجرائم الجمهورية.. هم واهمون، طائشــون، طموحون وخَطَّاءون، معتــدلون وقســاة، فى آن واحد، ضــعفــاء فى القســوة والحلم،

متعجلون لإعلان الحرب، ومتباطئون فى إدارتها، هم زاحفون إلى المحكمة بالقدوة التى ضربوا مثالًا لها .

لم يكن لديهم شباب الثورة المتدفق ، كان لديهم منها الجمال والمجد . هذا القاضى الذى سوف يسألهم بتحيز واضح، هذا المدعى ممتقع الوجه، يجلس هناك خلف طاولته الصغيرة يُجهِّز لموتهم وإذلالهم، هؤلاء المحلفون الذين يريدون فى الحال أن يخنقوا دفاعهم ، وهذا الجمهور - جمهور المنصات - يُمطرهم بوابل من السَّبِّ والسخرية. قاضٍ ، ومحلفون ، وشعب ، منذ عهد قريب صفقوا لبلاغتهم، وهتفوا لمواهبهم وفضائلهم، ولكنهم نسوا كل شىء .

كان «إيفاريست» يجعل من «فرجينو» رجل الدين الذى يستشيره ، ومن «بريسو» وسيطه ، ولكن «إيفاريست» نسى تمامًا ، وإذا كانت هناك بعض آثارٍ من إعجابه القديم، فذلك لكى يدرك أن هؤلاء الوحوش قد خدعوا أفضل المواطنين .

وفى عودته إلى منزله - بعد الجلسة - سمع «إيفاريست» صرخات ممزقة صادرة من الصغيرة «جوزيفين» التى كانت أمها تضربها لأنها لعبت فى الميدان مع أطفال الشوارع السوقية، واتسخ ثوبها الأبيض الجميل الذى ارتدته من أجل جنازة المواطن « ترويير » .


6

6

كان «إيفاريست» طوال ثلاثة أشهر يقدم كل يوم للوطن ضحايا من المشاهير أو من المغمورين، ثم تكون عنده قضية خاصة به عن متهمٍ أصبح مُتَّهَمَهُ الخاص .

منذ أن اتخذ مقعده فى المحكمة تَرَصَّد بلهفة – من بين جموع المتهمين التى تمر أمام عينيه – الشخص الذى غَرَّرَ بإيلودى ، والذى رسم له صورة – فى مخيلته الخصبة – ذات قسمات محددة . تخيله شابًّا جميلًا ، وقحًا، وكان على يقين أنه كان مُهاجرًا فى إنجلترا . وقد اعتقد أنه اكتشفه فى شاب مهاجر اسمه «موببيل»، والذى عند عودته إلى فرنسا كان مضيفه قد وَشَى به ، وتم اعتقاله فى أحد فنادق «باسى»[1]، وأن نيابة «فوكييه – تانفيل» العامة أُحيطت علمًا بهذه القضية مع ألف قضية أخرى .

عُثر على خطابات عنده اعتبرها الاتهام أدلة على تآمره بالاشتراك مع أعوان «بيت»، ولم تكن فى الحقيقة سوى رسائل مرسلة إلى المهاجر من بعض رجال البنوك من لندن، والذى كان يودع عندهم أموالًا .

---

(١) باسى : أحد أحياء باريس .

«موبيل» كان شابًّا، وجميلًا ، وكان يبدو مشغولا بالمغامرات العاطفية خاصة. ووجد فى بطاقته أثر علاقات مع إسبانية، وكانت إسبانيا فى ذلك الوقت فى حرب مع فرنسا، مع أن هذه الرسائل كانت – فى الحقيقة – شخصية ، وإذا كانت النيابة العامة لم تُصدِر قرارًا بأنه لا وجه لإقامة الدعوى، فقد كان ذلك بموجب هذا المبدأ بأن العدالة لا يجب مطلقًا أن تتسرع فى إطلاق سراح أى سجين .

اطَّلع «جاميلان» على التحقيق الذى أُجْرِىَ مع «موبيل» فى غرفة المجلس، وفوجىء بأوصاف الشاب الذى تخيَّله فيما سبق تنطبق على الرجل الذى غَرّر بإيلودى، ومنذ ذلك الوقت وهو لم يبرح مكتب كاتب المحكمة ساعات طويلة ليدرس الملف بدقة. وتزايدت شكوكه بطريقة غريبة عندما وجد فى مفكرة قديمة تخص المهاجر عنوان محل «لامور بانتر» مرفقة بعنوان محل «لوسانج فير»، وصورة للدروفينة سابقًا، وكذلك كثير من محلات الصور واللوحات، ولكن، عندما علم أنه كان يوجد فى نفس هذه المفكرة بعض تويجيات زهرة قرنفل حمراء، مغطاة بعناية فائقة بورقة حرير، فكر فى أن القرنفل الأحمر هو الزهرة المفضلة عند «إيلودى»، والتى تزرع منها على إفريز نافذتها، وتضع منها فى شعرها، وتهديها (وهو يعرف ذلك) كدليل على الحب. «إيفاريست» لم يُساوره شك حينئذ لكى يتأكد بنفسه، فقرر أن يستفهم من «إيلودى»، ومع ذلك فقد كان يخفى عنها ظروف اكتشاف المجرم.

ولما كان يصعد الدَّرَج فى منزله شم من بداية السلالم رائحة فاكهة،

ووجـد «إيلودى» فى المرسم، كانت تسـاعـد المواطنة «جاميـلان» فى عمل مـربى السفرجل. وبينما كـانت ربة البيت العجـوز تُشعل الفرن كـانت تقـدح زناد فكرها فى وسائل توفير الفحم والسكر الأسمـر دون أن تضر بجـودة المربى. وكـانت المواطنة «بليـزن» على مقعـدها المصنوع من القش متمنطقة بمـريلة من الكتان الأسمـر، وأمامهـا فواكه ذهبيـة اللون ملء حجـرها، تقشرها وتقطعها إلى قطع وتلقى بـه فى قِدْرٍ نُحـاسية. وكـانت أطراف غطاء رأسها منسدلة إلى الخلف، وخصلات شعرها الأسود تتثنى على جبهتها الندية، وكـان ينبعث منها سحر أليف ورِقَّة طبيعيـة توحيان بالأفكار الحلوة والشهوة الهادئة .

رفعتْ عيونها الجميلة – دون أن تتحـرك – إلى حبيبها بنظرات جميلة كالذهب السائل ، وقالت :

– انظر يا «إيفـاريست»، نحن نعمل من أجلك، وسـوف تأكل طوال الشتاء مربى السفرجل اللذيذة التى تقوِّى معدتك، وتُبهج قلبك .

اقترب منها «جاميلان» ونَطَقَ بهذا الاسم فى أذنها :

– « جاك موبيل ... ».

وفى هذه اللحظة وصل «كـومبالو» الإسكافى، وأطل بأنفـه الأحمر من الباب المُوَارَب، وأحضر معـه – مع الأحذية التى رَكَّب لها كعبًـا – حسابَ تركيب النعال الجديدة . وخوفًا من أن يـؤخذ على أنه مواطن غير صالح، فقد استخدم التقويم الجديد .

حَارَت المواطنة «جاميلان»، – التى كانت تحب أن تتأكد من حسابتها – حارت فى «الفريكتيدور» (الشهر الثانى عشر من التقويم الجمهورى، ويبدأ يوم ١٨ أو ١٩ أغسطس)، وفى «الفيندييمير» (أول شهر فى التقويم الجمهورى).

وتنهدت قائلة :

– يا يسوع المسيح ! يريدون أن يُغيروا كل شىء : الأيام ، والشهور ، والفصول، والشمس والقمر ! يا إلٰهى.. يا سيد «كومبالو»، ما هذا؟ زوج من الجُرْمُوق (واقٍ للحذاء) فى ٨ من «فينديمير» ؟

● أيتها المواطنة، أَلْقِ نظرةً على نتيجتك لتعملى حساباتك .

انصرفت عنه ، ورمقته بنظراتها، ثم استدذرات فى الحال ، وتمتمت وهى مكفهرة :

– لا يبدو عليها مَسْحَةٌ نصرانية .

قال : ليس هذا فقط أيتها المواطنة ، بل لا يوجد عندنا سوى ثلاثة آحادٍ فقط بدلًا من أربعة، وليس هذا كل شىء، فلابد من تغيير طريقتنا فى الحسابات، لن يكون هناك فَلْس أو دُنَيْر (أسماء عملة قديمة ضئيلة القيمة)، كل شىء سيكون كالماء المُقَطَّر .

وعقب هذه الكلمات رَفعت المواطنة «جاميلان» عينيها إلى السقف، مرتجفة الشفتين، وقالت بِحَسْرَةٍ :

– ماذا سيفعلون أكثر من ذلك !

وبينما كانت تشكو بأنين ، مثل قديسات الصُّلْبان الريفيات، حدث أثناء غيابها أن انتشرت «دخانة» من جمر الفرن وملأت المرسم، وأصبح الجو غير صالح للتنفس بعد أن اختلطت رائحة السفرجل مع هذه الأدخنة.

واشتكت «إيلودى» بحشرجة فى زورها، وطلبت فتح النافذة . وبمجرد أن انصرف المواطن الإسكافى والمواطنة «جاميلان» عادت إلى فرنها . ويكرر «إيفاريست» اسم «جاك موبيل» فى أُذن المواطنة «بلين». فنظرت إليه بشىءٍ من الدهشة، وبمنتهى الهدوء، ودون أن توقف عن تقطيع السفرجل ، قالت :

– حسنًا !.... « جاك موبيل » ؟...

● إنه هو !

– من ؟ هو ؟

● أعطيتِهِ قرنفلة حمراء .

وصرحت أنها لا تفهم شيئًا ، وطلبت منه أن يفسر لها .

– هذا الأرستقراطى ! هذا المهاجر ! هذا النذل !.... هزت كتفيها ونفت أنها تعرف أى أحد بهذا الاسم، دون أن يبدو عليها أى شىء غير عادى .

والواقع أنها لم تكن تعرفه قط . ونفت أنها لم تُعْطِ أحدًا زهرة قرنفل حمراء إلا إلى «إيفاريست»، ولكن ربما – من هذه الناحية – لم تكن ذاكرتها جيدة .

لم يكن «جاميلان» يعرف النساء جيدًا، فهو لم يتعمق جيدًا فى طبيعة «إيلودى»، ومع ذلك فهو كان يعتقد أنها قادرة على أن تتظاهر وأن تخدع من هو أكثر منه دهاءً ومهارة . قال :

– لماذا تنكرين ؟ أنا أعرف .

وأكدت مرة أخرى أنها لم تعرف أى أحد باسم «موبيل»، وعندما انتهت من تقطيع «السفرجل» طلبت قليلًا من الماء، لأن يديها قد اتسخت .

أحضر « جاميلان » حوضًا لها .

ونفت مجددة – وهى تغسل يديها – عدم معرفتها بهذا الشخص. وكرر مرة أخرى أنه يعرف ، وفى هذه المرة التزمت الصمت .

لم تكن تدرك إلى ما يرمى سؤال «إيفاريست»، وكانت بعيدة كل البعد عن أن تشك فى أن «موبيل» هذا – والتى لم تسمعه يتحدث عنه مطلقًا – سوف يَمْثُل أمام المحكمة الثورية، وهى لا تفهم شيئًا عن الشكوك التى تحوم حولها، ولكنها مُتَيَقِّنَةٌ أنها لا أساس لها من الصحة، لذلك كانت لا أمل لها فى تبديدها، فهى ليس لها رغبة فى ذلك، وتوقفت عن الدفاع عن نفسها بعدم معرفة «موبيل»، مُفَضِّلة أن تَدَعَ هذا الغَيُور شاردًا فى طريق زائف، حتى يرشده أدنى حَدَث إلى الطريق الصحيح. إن كاتبها الصغير السابق الذى أصبح فارسًا ظريفًا محبًّا للوطن قد ساءت علاقته الآن بعشيقته الأرستقراطية، عندما قابل «إيلودى» فى الطريق نظر إليها نظرة كأنها تقول : «هيا بنا أيتها الجميلة ! إننى أشعر حقًّا بأننى سوف أُجَنِّبُك أى خيانة، وأننى على وشك أن أُكِنَّ لكِ كل احترام».

إذَنْ لن تبذل جهدًا لكى تُشْفِى صـديقها مما تُسميه «أهواء حبيبها»..
و«جاميلان» لا يزال مقتنعًا بأن «جاك موبيل» هو الذى غرر بإيلودى.

وفى الأيام التاليـة ستهتم المحكمة - دون تقصير - بتدمير الفيـدرالية التى تهدد - كالأُفعوان - بافتراس الحرية.

كانت أيامًـا عصيبة، والمحلفون كـانوا منهوكى القـوى، لذا تخلصوا بأسرع ما يمكن من الزوجة «رولاند»، المُلْهِمـة والمُتواطئة فى جرائم حزب «بريسوتين».. ومـع ذلك، كان «جاميـلان» يقضـى كل صباح فى النيـابة العـامـة، للتعجيل بقضية «مـوبيل»، وكـانت توجـد مستندات مهمـة فى «بوردو»، وقـد نَمَا إلى عِلمـه أن أحـد المفتشين تَقَصًّـى عنهـا فى البريد . وأخيرًا وَصَلت .

وقرأها نائب المدعى العام، وقال - مُمتَعِضًـا - لإيفاريست :

- لا يوجد فى هذه المستندات ما هو مهم، فليست إلا سـذاجات ولَغْوًا ! لو كان من الثابت أن هذا الكونت السابق (كونت دى موبيل) قد هاجر!...

وأخيرًا نجح «جاميلان»، وتلقى «موبيل» الشاب قرار اتهامه، وتُرجِم أمام المحكمة الثورية فى التاسع عشر من بروميير (٩ نوفمبر).

ومن بداية افتتاح الجلسة أَبْدَى الرئيسُ وجهًا مُقَطَّبًـا وعَبوسًا ، وكان يحرص دائمًا على أن يبـدو كـذلك لكى يحكم فى القضـايا التى لم تُدْرَس جيدًا .

كان المدعى العام يداعب ذقنه بطـرف قلمه، وكان يتظاهر بأن ضميره

صَحْوٌ ونقىٌّ. قرأ كاتب المحكمة قرار الاتهام قائلًا : لم يسبق أن استمعنا إلى أجوف من ذلك. ووجَّــه الرئيس سؤالًا إلى المهاجر عَمَّا إذا كــان يعرف أو لا يعرف القوانين التى تتعلق بالمهاجرين.

فأجاب «موبيل» قائلًا : نعم، لقد عــرفتُها ولاحظتها، وغادرتُ فرنسا وأنا مُزَوَّدٌ بجوارِ سفرٍ قانونى.

وأمَّا عن أسباب سفره إلى إنجلترا، وعن عودته إلى فرنسا ، فقد فَسَّرها بطريقة مُقنعــة. كان وجهه هادئًا، تُظهــره الصراحة، والزَّهْو الذى يوحى بالإعجــاب. وكــانت النســوة اللائــى يجلسن فى المنصــة يرمقنه بنظرات مُرْضِيَةٍ. كــان الاتهام يَدَّعى أنه أقام فى إسبانيا فى الوقت الــذى كانت فيه هذه الدولة فى حرب مع فرنسا، ويؤكد هو أنه لم يغادر «بايون»[1] فى هذا الوقت.

هناك نقطة واحــدة فقط تظل مبهمــة ، هى أنه من بين المستندات التى ألقى بها فى مــدفــأته – أثناء فترة اعتقــاله، والتى لم يُعثَــــر فيهــا إلا على مقتطفات باقية – قُرِئَتْ بعض كلمات إسبانية، واسم «نِيِيف» .

رفض «جاك مــوبيل» أن يُصَرِّح بأية تفسيرات بصـــدد هذا الموضوع. عندما أخبره الرئيس أن من مصلحة المتهم أن يُفسر، فأجابه بأنه ليس من الضرورة دائمًا أن نتبع مصلحتنا .

لم يكن «جاميــلان» يفكر إلا فى إقناع «موبيل» بجريمة. لثــلاث مراتٍ

---

(١) إحدى المدن الفرنسية .

حَثَّ الـرئيس على ســؤال المتهـم عَمَّا إذا كـــان يستطيـع أنْ يُفسر سبب احتفاظه بزهرة القرنفل بكل عناية بالتُّوَيْجيات الجافة فى محفظته .

أجاب « موبيل » بأنــه لا يعتقد بأنه مُجْبَـرٌ على أن يُجيـب على ســؤال لا يهم العدالة، طالما أنه لم يُعْثَر على بطاقة مُخبأة فى هذه الزهرة.

انسحبت هيئة المحلفين إلى غـرفة المداولات لصالح هـذا الشاب، حيث تبـدو قضيـة تُخفى أسرارًا غـراميـــة. هذه المرة، الصـــالحون والأنقيـاء أنفسهم بَرَّءُوه عن طيب خــاطر. أحـدُهم كـان من الســابقين، وقـد قَـدَّم ضمانات للثورة، قال :

– أَمِنْ أجل مـولده نحمل عليــه ؟ أنا أيضًـا ، كـان من ســوء حظى أَنْ وُلدت أرستقراطيًّا.

أجابه «جاميـلان» قائلًا : نعم ، ولكنك تنصلت منها ، أمــا هو فقد ظل فيها .

وتحدث بعنف عن هذا المتواطىء، هـذا المبعوث من طرف «بيت»، هذا المتواطىء التـابع لكوبورج، والذى كان قـد ذهب فيما وراء الجبال وفيما وراء البحــار ليثير أعداء الحرية، وأنه طالب بإصرار شـديد إدانة الخائن، الذى أيقظ مزاجه القلق دائمًا ، وقسوة المحلفين الوطنيين الراسخة .

قال له أحدهم بصلف :

– هناك خدمات لا نستطيع رفضها بين الزملاء .

وكـان الحكمُ بالموت قد صــدرَ عليـه بصوت الأغلبيـة. والمتهم سَمِعَ الحُكْمَ هادئـًــا مبتسمًا .ونظراته التى كـان يتفــرَّس بها فى هدوء جميع

الموجودين بالقاعة عندما وصلت إلى وجه «جاميلان» كانت تعبر عن ازدراء لا يوصف .

لم يصفق أحد للحكم الذى صدر ..

وتوجَّه «جاك موبيل» ثانية إلى البوابة، وكَتَبَ رسالة – وهو ينتظر حكم الإعدام الذى يجب أن يُنفذ فى المساء نفسه – على ضوء المشاعل، كتب يقول :

« شقيقتى العزيزة، المحكمة ترسلنى إلى المقصلة، لقد مَنَحَتْنِى بذلك الفرحة الوحيدة التى أستطيع أن أشعر بها منذ موت معبودتى «نييف»»، وحرمونى من الشىء الوحيد الذى بقى لى منها، زهرة الرُّمَّان، التى يُسمونها – ولست أدرى لماذا – زَهْرَةَ قُرنفل .

كنت أحب الفنون.. فى باريس – فى عهود البذخ – تسلمتُ لوحات مرسومة ولوحات منحوتة، وهى الآن فى مكان أمين، وسوف تُسَلَّمُ إليكِ عندما تسنح الفرصة. أرجوك يا أختى العزيزة أن تحافظى عليها كتذكار منى ».

وقص خصلة من شعره، ووعها مع الرسالة التى طواها، وكتب عليها العنوان الآتى :

إلى المواطنة «كليمانس ديزيميرى»، وبالميلاد موبيل . لاريول.

وأعطى كل ما معه من نقود إلى حامل المفاتيح، راجيًا إيَّاه أن يوصل هذه الرسالة، وطلب زجاجة نبيذ وشرب كُؤَيْسَات صغيرة، منتظرًا العربة....

وبعـد العشاء جـرى «جاميـلان» إلى متجر «لامـوربانتر»، ووثب إلى الغرفة الزرقاء التى كانت «إيلودى» تنتظره فيها كل ليلة، وقال لها :

– لقد أُخِـذَ ثأرُكِ . انتهى «جاك موبيل». العـربة التى تقوده إلى الموت مرت من تحت نافذتك محاطة بالمشاعل .

أدركت « إيلودى » الأمر ، وقالت :

– مسكين ! أنتَ الذى قتلتــه، ولم يكن حبيبى . أنا لا أعـرفـه... لم أره قط... أى رجلٍ كان هذا ؟ كان شابًّا، محبوبًا ... بريئًا . وأنت الذى قتلته.. مسكين ! مسكين!

وسقطت على الأرض فاقـدة الوعى . ولكن فى غيابة هذا الموت السهل، كان يغمرها فى آن واحد شعور بالهلـع، وبالشهوة. كانت شبه مستفيقة، وكشفت جفـونها الثقيلة عن بيـاض عينيهـا، وانتفـخ زورها، ويداها النابضتـان تبحثـان عن عشيقهـا. واعتصرته بين ذراعيهـا، تكاد تخنق أنفاسه، وغرست أظافرهـا فى لحمه، ونفحته من شفتيها الممزقتين أطول وألذ القبلات، وأكثرها صمتًا، وأحَرُّها، وأكثرها ألمًا .

كانت تحبه بكل كيانها، وكلما كان يبدو لها مخيفًا وقاسيًا ومتوحشًا، وكلما كانت تراه مخضبًا بدماء الضحايا ، ازداد نَهَمُهَا وتعطُّشها إليه .

* * *

فى اليـوم الرابـع والعشرين من فـريمير (الـرابع عشر من ديسمبر ١٧٩٢) فى الساعة العاشرة صباحًا ، فى جو وردى قارس البرودة، حيث

تكونت ثلوج الليـل، كـان المواطنان «جينو» و «ديلـورميل»، مندوبا لجنة الأمن العام، مُتَوَجِّهَيْنِ إلى البـارنابيت، وقَصَدَا لجنة الرقابة فى القطاع، فى القاعـة المجمعية، حيث كان يوجـد فى هذا الوقت المواطن «بوفيزاج» الذى كـان يدس الحطب فى المدفأة، ولكنه فى البـداية لم يَرَهُمَا، بسبب طبيعتـه الصامتة، وقامته القصيرة.

وبالصـوت الأجوف الضعيف دَعَـا «بوفيـزاج» النائبين إلى الجلوس، وشرع فى خدمتهما فى الحال.

سأله «جينو» عَمَّا إذا كـان يعرف أحَدًا يُدْعَى «ديزيليـت» يقيم بجوار «البون – نوف »، وأضاف قائلا :

– هذا أحد الأشخاص، أنا مُكَلَّفٌ بإلقاء القبض عليه .

وأَبْرَزَ أمر لجنة الأمن العام .

استغرق «بوفيزاج» بعض الوقت وهويبحث فى ذاكرته، ثم أجاب بأنه لا يعـرف أى فـرد باسم «ديزيليت»، ومن المشبـوهين. ربما لا يكون من المقيمين فى القطاع، وبأن بعض مناطق الميزيوم، أو لونيتيـه، أو «مارات – و – مـارسليا»، توجـد أيضًا بالقـرب من «البون – نوف»، وأنه إذا كـان يسكن بالقطاع فـلابد أن يكـون تحت اسم آخـر غير الذى يتضمنه أمـر اللجنة، وإلَّا فلن تألو جهدًا فى العثور عليه .

قـال «جينو» : علينا ألَّا نضيع الوقت ! إن رقابتنا اكتشفتـه عن طريق رسالة من إحدى المتواطئات معه التى احْتُجِزَتْ فى مقر اللجنة منذ خمسة

عشر يومًـا، وأن المواطن «لاكروا» لم يعلم بهذا إلا مســاء أمس فقط . لقد فاض بنا الأمر، فقد وصلتنا البلاغات بكثرة من جهات كثيرة، حتى أننا فى حيرة، أيهم نتبع !

أجـاب «بوفيزاج» بفخــر : البلاغــات تدفقت أيضًا على لجنة المراقبــة بالقطاع. بعض هذه البــلاغات كان بـدافع الوطنية، والبعض الآخــر كان طمعًا فى الحصــول على ورقة مالية من فئة المائـة فَلْس . كثير من الأطفال وشوا بآبائهم طمعًا فى الميراث .

واستطرد جينو : هذه الرســالة مبعـوثة من إحدى السيـدات وتُدعى «روشيمور»، سيدة مستهترة، وكــان يُمَثِّل عندها لعبة سرية الانضباط، وتحمل الرسالة عنوان أحـد المواطنين يدعى «رولين»، ولكنها فى الحقيقة مرسلة إلى أحد المهاجرين ممــن يعملون فى خدمة «بيت». أخذتُ الموضوع على كاهلى لأتصل بك فيما يختص بهذا المدعو «ديزيليت».

أخرج الرسالة من جيبه، وقال :

– تبدأ الرســالة بمعلومات مطولة عن أعضاء الجمعيــة الوطنية الذين يمكن – وفقًا لقول السيدة – أن تكسبهم مقابل مبلغ من المال ، أو بالوعد بوظيفة كبيرة فى إحدى الحكومات الجديدة أكثر ثباتًا من هذه الحكومة .

ثم بعد ذلك قرأ هذه الفقرة :

« خرجتُ من عنـد السيد «ديزيليت» الذى يقيم بالقــرب من «البون – نوف»، فى أحـد المخازن، ويجب أن يكون المرء قطة أو شيطانًا ليعثــر على

هذا المخـزن، وكــان يعيش من عـائـد الدُّمَى التــى يصنعهـا . إنه رجل حصيف، لذلك، أُرسل إليك يا سيـدى جوهر محادثتـه. فهو لا يعتقـد أن هذه الحالة ستستمـر وقتًـا طويلًا ، وهو لا يتـوقع نهايتهـا بانتصـار الحلفـاء، ويبدو أن الأحـداث تجعله على صواب، لأنك تعلم يا سيـدى أنه منذ قليل كـانت أنبـاء الحرب سيئة، وأنه يعتقـد فى ثورة عـامـة الشعب، ونساء الطبقة الشعبية، الذين يرتبطون ارتباطًا وثيقًا بدينهم . وهو يرى أن الإرهاب العـام الذى تسببه المحكمـة الثورية ســوف يجمع قريبًـا كل فرنسا قاطبة ضد اليعقـوبيين، وقد قال مازحًا : هذه المحكمة التى حكمت على ملكة فـرنسا، وحـاملة الخبز، تُشبـه وليم شكسبير، الذى يُعْجَبُ به الإنجليــــز كثيرًا ، إلـخ .... »، وهو يعتقـــــد أنه ليس مـن المستحيل أن «روبسبير» يتزوج من «مدام رويال» ويجعل من نفسه حامىَ المملكة .

وأكون مُمْتَنَّة لـك يا سيدى إذا وافيتنى بالمبالــغ المستحقة لى، أى ألف الجنيه الإسترلينى بـالطريقة المعهودة، ولكن احترس جيـدًا من أن تكتب إلى السيد « مورهاردت »، فهو قد تم اعتقاله مؤخرًا وأودع السجن ، إلخ ، إلخ».

قــال «بوفيـــزاج» : السيـد «ديزيليت» يصنـع الـدُّمَى، وتلك دلالة لها قيمتها... مع أنه توجد مثل هذه الصناعات الصغيرة بكثرة فى القطاع .

قــــال «ديلورميل» : إنى وعـــدتُ أن أُحضر دُمْيَــةً إلى ابنتــى «ناتالى»، صغرى البنات، المريضة بالحُمَّى القرمزية، فالبقع ظهرت بالأمس، وهذه

الحُمَّى ليست من الخطورة ليُخشى منها، ولكنها تحتاج إلى عناية. و«ناتالى» تسبق سنها، ولها ذكاء متوقد، وصحتها حساسة .

قال «جينو»: وأنا لى ابن واحد، وهو يلعب بالطوق، بحلقاتٍ من براميل، ويصنع مناطيد صغيرة بالنفخ فى أكياس .

قال «بوفيزاج» : إن الأطفال يلعبون أفضل ، بالأدوات التى ليست لُعَبًّا، إن ابن أخى «إيميل» طفل له من العمر سبع سنوات، وهو غاية فى الذكاء، يتسلى طول اليوم بمربعات خشبية صغيرة، يصنع منها تكوينات.... هل تستخدمونها ؟ ثم بسط «بوفيزاج» علبة نشوقه المفتوحة أمام النائبين .

قال «ديلورميل» ذو الشوارب الطويلة : الآن يجب أن نُلقى القبض على النذل.. إننى أشعر بشهية مفتوحة هذا الصباح لأكل مِعلاق الأرستقراطى (أى : مجموعة القلب والطحال والكبد والرئتين من الحيوان)، ومُسقاة بكوب من النبيذ الأبيض .

واقترح «بوفيزاج» على النائبين أن يذهبا إلى لقاء زميله فى متجره فى ميدام «الدوفين»، ويدعى «ديبون إينيه». والذى بكل تأكيد يعرف شخص «ديزيليت».

وساروا فى الجو القارس ، يتبعهم أربعة من رماة القنابل اليدوية من القطاع .

سأل «ديلورميل» أصدقاءه : هل شاهدتم مسرحية «الحكم الأخير على الملوك»؟ إن المسرحية تستحق المشاهدة. المؤلف يصور فيها جميع ملوك

أوروبا يلوذون بجزيرة قاحلة عند سفح بركانٍ ابتعلهم . إنه عمل وطنى.

أبصر «ديلورميل» فى ركن شارع «هارلاى» عربة صغيرة بَرّاقة تدفعها عجوز ترتدى معطفًا ، وغطاء رأسها عبارة عن قبعة من نسيج مدهون بالشمع .

سأل : ماذا تبيع هذه السيدة ؟

وأجابتِ السيدة نفسها :

– انظروا أيها السادة، اختاروا بأنفسكم، معى مسابح، ومسابح وردية، وصُلبان، وصور للقديس «أنطوان»، وكفن السيد المسيح، ومناديل القديسة «فيرونيك»، والحَمَل الإلٰهى، وأبواق وحلقات القديس «هوبير»، وكل أدوات العبادة.

صاح «ديلورميل» قائلًا : هذه ترسانة التعصب ! وشرع فى استجواب مختصر للبائعة الجائلة التى أجابت على جمَيع الأسئلة :

يا بنى، إننى منذ ربعين عامًا وأنا أبيع هذه الأغراض التى تتعلق بالعبادة.

ويُبصر أَحَدَ مندوبَىْ لجنة الأمن العام مرتديًا زيًّا أزرقَ اللونِ كان مارًّا ، فألزمه باقتياد هذه العجوز المندهشة إلى البوابة.

وينصح المواطن «بوفيزاج» «ديلورميل» بأنه من الأفضل للجنة المراقبة أن تُلقى القبض على هذه البائعة، وأن تقودها إلى القطاع، وأنه فضلًا عن ذلك فلا نعرف أى سلوك يُؤخذ نحو العبادة السابقة، للتصرف

وفقًا لما تراه الحكومة، وإذا كان لابد من اتخاذ اجراء، فإمَّا أن يُسمح بكل شيء، وإمَّا أن يُمنع كل شيء .

وعندما اقتربوا من دكان النَّجَّار، سمع المندوبان والمفتش ضوضاء وهتافات غضب، مختلطة بصرير المنشار، واحتكاك الفَارَة. كانت مشاحنة وقعت بين النجار «ديبوان اينيه» وجاره البواب «روماكل» بسبب المواطنة «روماكل»، حيث إن النّشارة والنجارة كانت تتطاير من دكان النجار إلى حجرة البواب وتغطيها .

كان البواب متضايقًا، فركل بقدمه كلب النجار المُسمَى «موتون»، وفى نفس الوقت كانت ابنته «جوزيفين» تمسك الكلب بحنان وتقبله، ولكن «جوزيفين» غضبت من والدها ، وصاح النجار بغضب :

– ايها البائس ! إننى أمنعك من ضرب كلبى .

وأجاب البواب وهو يرفع مقشته : وأنا أمنعك من أن... ولم يتمم عبارته : فقد ضربه النجار على رأسه بالمنجرة .

ومن بعيد أبصر المواطن «بوفيزاج» بصحبة المندوبين، وجَرَى نحوه وقال له :

– أيها المواطن المفتش، أنتَ شاهد الآن على أن هذا النذل يريد قتلى .

وكان المواطن «بوفيزاج» يرتدى على رأسه قلنسوة حمراء اللون، التى هى شعار وظيفته، ويمد ذراعيه فى وضع تهدئة للاثنين، مخاطبًا كليهما قائلًا :

– مائة فَلْس لِمَنْ يرشدنا أين يوجد صانع اللُّعَب المتحركة الذى تبحث عنه لجنة الأمن العام، وهو أحد الديزيليت السابقين المشبوهين.

وأَشَار الاثنان – البواب والنجار – معًا إلى مسكن «بروتو»، ولم يناقشا أى شىء سوى المكافأة الموعودة للواشى .

«ديلورميل»، و «جينو».. و «بوفيزاج»، يتبعهم أربعة من رماة القنابل اليدوية، والبواب «روماكل»، والنجار «ديبون»، وحوالى عشرة من الصغار، أطفال الشورع، تسللوا من السلم حاثين خُطاهم، ثم صعدوا عن طريق سلم الطحان .

كان «بروتو» فى مخزنه يقص العرائس، فى حين كان الأب «لونجيمار» يجلس أمامه، يجمع أعضاءها المتناثرة بالخيوط، وكان يبتسم عندما رأى أن أصابعه قد أجادت النَّسَقَ والانسجام.

وعندما سمع الراهب جلبة وضوضاء على «مشاية» السلم، ارتعدت فرائصه، ليس لأنه أقل شجاعة من «بروتو» الذى ظل رابطَ الجأش، بل لأن حَيَاءَهُ الإنسانى لم يُعَوِّده على التماسك .

وفهم «بروتو» من أسئلة المواطن «ديلورميل» من أين جاءت الضربة، وأيقن مُؤخرًا أنه من الخطأ أن تثق فى النساء. وعندما طُلب منه أن يتبع المفتش، أخذ معه كتابه عن «لوكريس» وقمصانه الثلاثة، وقال وهو يشير إلى الأب «لونجيمار» :

– إنه مساعد يعاوننى فى صناعة عرائسى . وهو يقيم هنا .

ولكن الراهب لم تكن معه شهادة المواطنية، لذلك قَبض عليه مع «بروتو».

وعندما مر الموكب بجوار حجرة البواب، كانت المواطنة «ريماكل» تستند على مقشتها وتنظر إلى مَنْ يسكن عندها بعين الفضيلة التى تشاهد الجريمة بين يدى القانون. و «جوزيفين» الصغيرة تأخذ بسلسلة الكلب «موتون» الذى كان يريد أن يُلاطف الصديق الذى كان يُعطيه قطع السكر . وامتلأ ميدان «ثيونفيل» بجمع غفير من المتطفلين .

وتقابل «بروتو» عند أسفل السلم مع شابة فلاحة كانت تشرع فى صعود السلم. كانت تحمل تحت إبطها سلة مملوءة بالبيض، وتمسك بيدها فطيرة ملفوفة فى قطعة قماش .

كانت «أثينابيس» جاءت من «باليسو» لتقدم إلى مُنقذها دليلًا على عرفانها بالجميل. وعندما لاحظت أن القضاة وأربعة رماة يصطحبون السيد «موريس» ظلت واجمة، وسألت عَمَّا إذا كان هذا حقيقيًّا، واقتربت من المفتش وقالت له بهدوء :

– لن تصحبه ! مستحيل ... إنكم لا تعرفونه ! فهو طيب، وطيبته من طيبة الرب !

دفعها المواطن «ديلورميل»، وأشار على الرماة أن يتقدموا ، حينئذ أمطرتهم «أثينابيس» بوابل من السباب والشتائم، وانصبت أقذر الشتائم على القضاة والرماة الذين شعروا كأن جميع أوانى «الباليه – رويال» (القصر الملكى)، وشارع «فرومانتو» قد انسكبت فوق رءوسهم .

ثم بعد ذلك وبصوت ملأ ميدان «ثيونفيل» قاطبة، وأفزع الجمع الغفير من الفضوليين، صاحت قائلة :

– عاش الملك ! عاش الملك !

* * *

المواطنة «جاميلان» كانت تحب العجوز «بروتو»، وكانت تعتبره الرجل الوحيد الذى يستحق أن يُحَبَّ وأن يُحترَم. لم تقل له وداعًا عندما اعتقلوه، حتى لا تُجابه السلطات، وفى حالتها المتواضعة كانت ترى أن الجبن واجب، ولكنها تلقت فيه صدمة لم تُفِق منها .

لم تكن تستطيع الأكل، وتشكو من أنها فقدت شهيتها فى الوقت الذى كان لديها خيرًا ما تتغذى به. كانت معجبة أيضًا بابنها، ولكنها لم تكن تجرؤ على التفكير فى مهامه المخيفة التى يضطلع بها، وتكتفى بأنها ليست إلا سيدة جاهلة عاجزة عن الحُكم فى أمره.

وكانت الأم المسكينة قد عثرت على سبحة قيمة فى قاع إحدى الحقائب الصغيرة، لم تكن تعرف استخدامها، ولكنها شغلت بها أصابعها المرتعشة. وبعد أن عاشت عمرها حتى تقدمت بها السنون دون أن تمارس دينها أصبحت ورعة، كانت تصلى لله طيلة اليوم، وتلازم بيتها من أجل سلامة ابنها، ومن أجل سلامة هذا الرجل الطيب «بروتو».

كانت «إيلودى» تزورها دائمًا : وكانتا لا تَجْرُآنِ على أن تتبادلا النظرات، وكل منهما قريبة من الأخرى، تتحدثان – عن قِلّة – عن أشياء لا أهمية لها .

وذات يوم فى شهر المطر، عندما كان الجليد يتساقط ندائف كبيرة تضىء السماء، وتخنق كل ضوضاء المدينة، كانت المواطنة «جاميلان» بمفردها فى المنزل، وسمعت طرقات على الباب.

ارتعدت فرائصها ، وهى منذ عدة أشهر كانت أقل ضوضاء ترعبها. فتحت الباب، ودخل شاب فى الثامنة عشرة أو العشرين من عمره، وقبعته على رأسه، يرتدى «ريدينجوت» أخضرَ اللون، متعدد الكولات، ثلاث منهن يُغطين صدره والقامة، ويحتذى ببوت على الطريقة الإنجليزية، وشَعره قسطلىُّ اللون، تنسدل خصلات منه على كتفيه. اندفع فى وسط المرسم، كأنه يريد أن يستقبل كل ما يبعثه لوح النافذة من شعاع خلال الجليد. وظل ساكنًا لبعض الوقت وصامتًا، وأخيرًا ، وبينما كانت المواطنة «جاميلان» تنظر إليه مذهولة إذا به يقول لها :

– ألا تعرفين ابنتك ؟!....

وعقدت السيدة العجوز يديها وقالت :

– جولى !.... أهذه أنتِ ؟. يا إلٰهى ! هل هذا ممكن !.....

● أى نعم ، أنا ! قَبِّلينى يا أُمَّاه .

واعتصرت المواطنة «جاميلان» ابنتها فى حضنها، وسقطت دمعة على كولة الريدينجوت. ولكنها استطردت بلهجة يشوبها القلق :

– أنت فى باريس ؟!....

● آه يا أمى ! ليتنى ما جئت إليها بمفردى !.... أنا لا يعرفنى أحد فى هذه الملابس.

فى الواقع، كان «الريدينجوت» يخفى تفاصيل جسدها، ولم تكن تبدو مختلفة كثيرًا عن عديد من الشباب، الذين يرتدون مثلها هذا الزىَّ، ولهم شعر طويل مثلها ، مفروق من الوسط .

كانت قسمات وجهها دقيقة وجميلة، ولكنها شاحبة ومنهوكة القوى، مُثْقَلة بالهموم، ولها مظهر جرىء ورجولى. كانت نحيفة، وساقاها طويلتين مستقيمتين، وكانت تتحرك ببساطة، وكان صوتها الواضح فقط هو الذى يمكن أن يكشفها .

سألتها أمها عَمَّا إذا كانت جائعة، فأجابت بأنها ستأكل بكل ممنونية، وعندما قدمت إليها خُبزًا ونبيذًا، ولحم الخنزير، شرعت فى تناول هذا الطعام وهى تستند بكوعها على المائدة. كانت جميلة وأكولة مثل «سيريس»[1] فى كهف «بوبو» العجوز . ثم تسأل أُمها :

– هل تعرفين يا أمى متى سيعود «جاميلان»؟ جئتُ لأُحدثه . نظرت الأم الطيبة إلى ابنتها بإحراج ولم تُحر جوابًا .

– يجب أن أراه. لقد أُلقى القبض على زوجى هذا الصباح وقادوه إلى «لوكسيمبورج».

وقد أطلقت اسم الزوج على «فورتونيه دى شاسينى»، وهو نبيل سابق، وضابط فى فيلق «بوبيه»[2]. أحبها عندما كانت عاملة بيع ملابس فى شارع لومبارد ، اختطفها وصحبها إلى إنجلترا، حيث هاجر بعد العاش

---

(١) ابنة إله الزمن وإله الأرض والزرع كما جاء فى الأساطير .

(٢) قائد فرنسى .

من أغسطس . كـان عـاشقهـا، ولكنهـا وجـدت أن من الأدب أن تسميـه «زوجها» أمام والدتها، وهـى ترى فى نفسـها أن البؤس زَوَاجَ بينهـما، وأن هذا ليس بقران، إنه لم يكن سوى شقاء .

وكـانا كثيرًا ما يقضيـان الليل معًا على أحـد المقـاعد فى حـدائق لندن، ويلتقطون قِطَعَ الخبز من تحت طاولات المطاعم فى «بيكاديللى».

وأمها جالسة صامتة لا تنبس ببِنْت شفة، وتنظر إليها نظرات كئيبة.

– إذَنْ ، فأنت لا تسمعيننى يا أمى ؟ الوقت يمـر سريعًا، يجب أن أرى «إيفاريست» حالا، فهو الوحيد الذى يستطيع أن يُنقذ « فورتينيه » .

أجابت الأم : «جولى»، من الأفضل ألَّا تتحدثى إلى أخيكِ .

– كيف ؟ ماذا تقولين يا أمى ؟

● أقـول إنه مـن الأفضل لَكِ ألَّا تتحـدثى مع أخيـك عن السيـد «دى شاسينى».

– أمى ، لابد من ذلك ، ضرورى !

● بُنَيَّتِى ، «إيفاريست» لن يغفر للسيد «دى شباسينى» أنه اختطفك .

هل تعرفين كيف كان يتحدث عنـه بغضب ؟ وأى الألقاب كان يُطلقها عليه ؟

– نعم ، إنه يسميه الفـاسد . قالت «جـولى» ذلك وهى تبتسم وتصفر وتهز كتفيها .

● يا بُنيتى، إنه أُهين إلى درجة الموت. لقد قرر «إيفاريست» بينه وبين نفسه ألَّا يتحدث أبدًا عن السيد «دى شاسينى». وها قد مر عامان دون أن يذكركما بكلمة واحدة. وشعوره لم يتغير نحوكما، وأنت تعرفيه، إنه لن يصفح عنكما .

– ولكن يا أمى، بما أن «فورتينيه» قد تزوجنى .... فى لندن ....

رفعت الأم المسكينة عينيها ويديها وقالت :

– يكفى أن «فورتينيه» من الطبقة الأرستقراطية، ومهاجر، حتى يعامله «إيفاريست» كعدو .

● أخيرًا ، أجيبينى يا أمى ، أتعتقدين لو أننى طلبت منه أن يجرى اللازم مع المدعى العام ولجنة الأمن العام لإنقاذ «فورتينيه» ألن يوافق على ذلك ؟.... ولكنه إن لم يوافق ، فذلك يكون وحشية منه !

– بُنَيَّتِى ، أخوكِ رجلٌ شريف ، وابنٌ صالح . ولكن لا تُطلبى منه ... أوه ! لا تطلبى منه أن يهتم بالسيد « دى شاسينى »... اسمعى كلامى يا «جولى»، فهو لا يُفضى إلىَّ أبدًا بأفكاره، مطلقًا ، ولكن لا يشق الأمر علىَّ فى أن أُفهمه... ولكنه قاضٍ، وله مبادىء، فهو يتصرف بما يُمليه عليه ضميره. لا تطلبى منه أى شىء يا «جولى» .

● أراكِ الآن تعرفينه جيدًا .. تعرفين أنه بارد، وبليد الإحساس، وشَرِسٌ ، ولا يهمه سوى الطموح، والطمع، وأنت فَضَّلْتِهِ دائمًا علىَّ . عندما كنا نعيش نحن الثلاثة معًا، كُنْتِ تعتبرينه قُدوة لى. سلوكه

المُصْطَنع، حـديثـه الوقـور، كـانا يؤثـران فيكِ، كُنْتِ تجدين فيـه جميع الفضائل، وأنا ، لا تُقدِّرينني مطلقًا ، ودائمًا تنسبين لى كل الرذائل ، لأننى كنت صريحة ، ولأنـى كنت أتسلق الأشجـــار. لم يكن بوسعـك قط أن تُطيقننى، وكنتِ لا تُحبين غيره، اسمعى ! إنى أكَـرْهُ هذا «الإيفـاريست» ابنك، إنه منافق .

– صَهْ يا «جولى» لقـد كنتُ لكما أُمًّا طيبة. وعَلَّمْتُكِ مهنة، وهو لم يكن متعلقًـا بى، ولم يتـوقف عَلَىَّ أنْ تَظَلِّى فتـاة شريفـة، فتتـزوجين وفقًـا لوضعك. لقـد أحببتُكِ بحنان، ومـا زلت أُحبك. وإنى أسـامحك وأحبك. ولكن لا تفترى على «إيفاريست»، لأنه ولد طيب ، كان دائمًا يعتنى بى .

عندمـا تركتيننى يا بُنيتى ، وعندما تكتِ وظيفتك ومتجـرك، لتعيشى مع السيد «دى شـاسينى»، ماذا كنت سأفعل لولا وجـوده ؟ لولاه لكنتُ لقيتُ حتفى كمدًا وجوعًا !

● لا تقولى ذلك يا أمى ، أنتِ تعلمين جيـدًا أننا كنا سنوليكِ كل عناية، «فورتينيه» وأنا ، إلَّا قـد انصرفتِ عنـا بتحريـض مـن « إيفـاريسـت » . لا تُثيرينى ! إنه غير قادر على أن يقوم بعمل صـالح، فهو – حتى يجعلنى مُخيفـة فى عينيك – قـد تظاهر بالعناية بكِ .. هو يُحبك ؟!... هل هو قـادر على أن يُحب أحـدًا ؟ إنـه لا قلب له ولا روح. ولا مـوهبـة له من أجل أن يرسم، لابد له من طبيعة أرق من طبيعته .

وتجولت بنظراتها على اللوحـات الموجودة فى المرسم، والتى وجـدتها مثلما كانت يوم تركتها، فتقول مستطردةً :

ها هى ذى روحه ! قد أفرغها فى لوحاته الباردة والكئيبة ، وها هو ذا بطله «أوريست»، ذو النظر الضارى، والفم الردىء ، ويبدو عليه مظهر المرفوع على الخازوق.. إنه هو بكل كيانه.... أخيرًا يا أمى، أنتِ لم تَفْهَمِى شيئًا ! لا أستطيع أن أترك «فورتينيه» فى السجن . أنتِ تعرفين اليعاقبة، كلهم وطنيون ، وهم عَصَبَةُ « إيفاريست »، وسوف يعملون على قتله يا أُمَّاه.. أمى العزيزة، أُمى الصغيرة، لا أريد أن يقتلوه لى . أنا أحبه ! أحبه ! إنه كان طيبًا جدًّا معى، ونحن فى البؤس كنا معًا !

انظرى، هذا «الريدينجوت» يخصه. لم تبق عندى «بلوزات». لقد أَعَارنى أحد أصدقاء «فورتينيه» «جاكتًا» وكنت عند صبى بائع ليمونادة فى «دوفر »، فى حين كان هو يعمل عند أحد الحلاقين، وكنا نعلم أنه بالعودة إلى فرنسا فإننا نخاطر بحياتنا، ولكن سُئِلْنَا عن رغبتنا إذا كنا نريد السفر إلى باريس للقيام فيها بمُهمة كبيرة... فوافقنا ، وكان علينا أن نقبل مهمة شيطانية .

دفعوا لنا الأجر للسفر ، وسَلَّمُونا خطابَ ضمان لأحد رجال البنوك فى باريس، فوجدنا المكاتب مغلقة، فهذا الصيرفىُّ كان فى السجن وسوف يُعدم بالمقصلة.. كنا صُفْرَ اليدين. وبالنسبة لجميع الأشخاص الذين يجب أن تنضم إليهم، والذين يُمكن أن نتصل بهم، كانوا إمَّا هاربين وإمَّا فى السجون. لم يعد لنا باب نطرقه. ونمنا فى حظيرة فى شارع «لافام – سان – تيت»، وكان ينام فيه معنا على القش ماسح أحذية كريم. أعْطَى عشيقى أحد صناديقه، وفراشاة ، وعلبة تلميع ، ثلاثة أرباعها فارغة .

ولمدة خمسة عشر يومًا . كان «فـورتينيه» يجنى قوتنا من تلميع الأحذية فى ميدان «جريف» .

وذات يوم وضع أحـد أعضاء مجلس العمـوم قدمـه على الصندوق ، ولَمَّعَ له حذاءه . كان هذا العضو جزارًا سابقًا ، وكان «فورتينيه» قد ركله بقدمـه فى مـؤخـرته، لأنه باع لحمـه وغش فى الميـزان . وعندمـا رفع «فورتينيه» رأسه ليطلب منه أجـر تلميع الحذاء ، عرفه هذا النذل ، ودعاه الأرستقراطى ، وهدده باعتقاله .

تجمهـرت الناس، منهم كـان الطيب ، ومنهم كـان النذل ، صـاحـوا : «الموت للمهاجر !»، واستـدعوا شرطة الدرك . وفى هذه اللحظة كنت أحمل الحساء لفـورتينيه . رأيتـه مصحوبًا إلى مقـر القطاع ، وسُجِنَ فى كنيسة «سان – جان ».. أردتُ أن أُقَبِّلَهُ ، فـدفعونى بعيدًا عنه . قضيتُ الليل مثل الكلب فى أحد ممرات الكنيسة... واقتادوه ، هذا الصباح......

ولم تستطع «جـولى» أن تتم كـلامها ، فقـد خنقتهـا العَبَرات . وألقت بقبعتها على الأرض وجثت عند قدمى والدتها قائلة :

سـوف يقتادونه هذا الصبـاح إلى السجن فى «لوكسيمبـورج». أمى.. أمى.. سـاعـدينى على إنقـاذه، اشفقـى على ابنتك ! وانخـرطت فى البكاء، وفتحت «الريدينجـوت» ولكى توضح بطريقة أفضل أنها عشيقـة وابنة، كشفت عن صـدرها ، وتنـاولت يدى والدتها، وضغطت بهما على نهديها المختلجين .

تنهدت الأرملة «جاميلان» وقـالت : ابنتى العزيزة، أَىْ «جولى»، ابنتى «جولى»! وألصقت وجهها المُنَدَّى بالدموع بخدى ابنتها الزوجة الصغيرة.

ولبضع لحظات لَزِمَتَـا الصمت، وكانت الأم المسكينة تُنَقِّب فى ذهنهـا عن وسيلة لمسـاعدة ابنتها «جـولى»، و «جولى» تراقب نظرة هـذه العيون المغرورقة بالدموع .

وتسرح الأُمُّ مفكرة :

«ربما لو تحدثتُ إليـه فقد يُفكـر فى الأمر، فهـو طيب وحنون . وإذا لم تكن السياسة قد جعلته قاسيًا ، وإذا لم يخضع لنفوذ اليعاقبة، لَمَا ظهرت شدته التى تُخيفنى ولا أفهم سببها ».

وأخذت رأس ابنتها « جولى » بين راحتيها قائلة :

– اسمعى يَا بُنَيَّتِـى ، سأتحدثُ إلى «إيفـاريست»، وسـأمهـد ليراكِ ويسمعك، لأن رؤيتك قـد تثير غضبــه، وأخشى أول رد فعل... ثم إننى أعرفه، وهذا الزىّ قد يُسبب له صـدمة، لأنه قاسٍ بصدد كل شىء يُسىء إلى العـادات والتقـاليـد. أنا نفسى قـد أدهشنى قليـلا أَنْ أراكِ فى زىٍّ صبيانى.

● آه يا أُمَّـاه ! الهجرة ، والقـلاقل المخيفـة فى المملكة ، جعلت من هذه التنكرات فى الزىِّ أمرًا منتشرًا ، وكـان يتم التنكر من أجل ممارسة مهنة، ومن أجل ألّا يُعْرَف صاحبها ، ومن أجل مطابقـة جواز سفر ، أو شهادة مقتبسة، وقد رأيتُ فى لندن «جيراى» الصغير يرتدى مـلابس فتاة، وكان يبدو غـاية فى الجمال ، كأنه فتاة جميلة، وأنت يا أمى توافقين على أن هذا التنكر أكثر مجونًا من تنكرى .

- بُنيتى المسكينة، أنتِ لستِ محتاجة إلى أن تُبرر موقفكِ أمامى، لا هذا، ولا ذاك ، أنا أمك، وستظلين دائمًا بريئة بالنسبة إلىَّ. سأتحدث مع «إيفاريست»، سأقول....

وتوقفت عن الكلام. كانت تعرف مَنْ يكون ابنها، فهى تشعر به وتحسه، ولكنها لا تريد أن تصدق ذلك، ولا تريد أن تعرفه.

«إنه طيب. سيفعل من أجلى ... ومن أجلك ما سوف أطلبه منه».

كانت المرأتان مُرهقتين إلى أقصى درجة، فتوقَّفَتَا عن الكلام. ونامت «جولى» ورأسها على ركبتى أمها حيث كانت تستتريح وهى طفلة .

سحبتها الأم المتألمة من يدها وهى تبكى من الآلام التى تشعر بها فى صمت، وفى هدوء هذا اليوم - يوم الجليد - حيث كل شىء فيه ساكن : الخطوات، والعجلات، والسماء.

وفجأة، بالسمع المرهف الذى سبَّبه القلق، تسمع ابنها يصعد الدَّرَج.

قلت : هذا «إيفاريست»!.... اختبئى أنتِ (إلى ابنتها) ودفعت بابنتها إلى غرفتها.

- كيف حالُكِ اليوم ، يا أُمِّى الطيبة ؟

وعَلَّقَ «إيفاريست» قبعته على مشجب المعطف ، وغَيَّرَ زيَّه الأزرق بجاكت خاص بالعمل، وجلس أمام لوحته، فهو منذ بضعة أيام خطط بقلم الفحم لوحة «النصر»، واضعًا إكليلًا على جبهة جندى مات فى سبيل الوطن. وقد اختار هذا الموضوع بحماس، ولكن المحكمة كانت تلتهم كل

أيامه، وتستولى على روحه، ويده التى ابتعدت عن الرسم كان يشعر بها ثقلية وكسولة.. وتمتم بأغنية «كل شىء على ما يرام» .

قالت المواطنة «جاميلان» : أنت تُغَنِّى يا بُنَىَّ ، لابد أن قلبك مبتهج .

- يجب أن نبتهج يا أمى، فلدينا أنباء طيبة :«الفانديه قد دُحِرت، وهُزِم النمساويون، تَغَلَّبَ جيش «الران»، على خطوط «اللوتير» و«الفيسيمبورج» (١).

اقترب اليوم الذى سوف تُبْدِى فيه الجمهورية المنتصرة رأفتها. لماذا تتفاقم مهارة المتآمرين كلما زادت الجمهورية قوة ؟ وَلِمَ يجتهد الخَونةُ فى ضرب الوطن فى الخفاء ، فى حين هى ، أى الجمهورية ، تسحق الأعداء الذين يهاجمونها علنًا ؟

كانت المواطنة «جاميلان» ترقب ابنها - وهى تخيط جوربًا - من فوق نظارتها . قالت :

- جاء « بير زيليوس » - موديلك القديم - ليطلب الليرات العشر التى أنت مَدِين له بها ، فأعطيتُه إياها . و «جوزيفين» الصغيرة كانت تشكو بألم فى بطنها ، لأنها أكلت مربى أكثر من اللازم، والتى كان النجار قد قدَّمها لها. وأعطيتها منقوعًا مغليًّا. وجاء «ديماهيس» لرؤيتك، وأسِفَ كثيرًا على أنه لم يجدك. كان يريد أن ينحت موضوعًا من تأليفك ، وقد وجد أن عندك موهبة عظيمة. هذا الصبى الشجاع شاهد رسوماتك وأُعجب بها كثيرًا .

---

(١) اللوتير : نهر فى بفاريا . وفيسيمبورج : مدينة فرنسية .

– عندمـــا يستقـر الســلام وتختنق المؤامـرة فسأستـأنف لوحتى «أوريست»، أنا لم أتعوَّد على الإطراء، ولكنْ يوجد هنا رأس جديد بدافيد .

ورسم بخط عظيم ذراع لوحته «النصر»، وقال مستأنفًا :

– إنه يبسط جـريد نخل .. ولكنه قد يزيد جمالًا لو أنَّ ذراعيـه ذاتهما يكونان من الجريد .

● إيفاريست !

– أُمِّى ؟ ....

● وصلتنى أخبار ... مِمَّنْ تتوقع ؟ ...

– لا أدرى ...

● عن «جولى»... عن أختك... ليست سعيدة .

– إن ما فَعَلتْه كان فضيحة .

● لا تتحدث هكذا يا بُنى ، إنها أختـك . «جولى» ليست سيئة، فهى لها إحساسات طيبة، والتى غَذَّاها الشقاء، وهى تحبك، وأستطيع أن أؤكد لك يا «إيفاريست» أنها ترنو إلى حياة جـد مثالية، ولا تفكر إلا فى التقرب من ذويها، وليس هناك مـــا يمنعك من أن تراهـا ثانيـة . وهـى تزوجت من «فورتينيه دى شاسينى » .

– كتبتْ إليكِ ؟

● لا ..

– وكيف عرفْتِ أخبارها يا أمى ؟

● ليس عن طريق رسالة يا بنى ، هذا ...

فنهض وقَاطَعَها بصوت رهيب :

– اُسْكُتى يا أُمَّاه ! لا تقولى إنهما عادا إلى فرنسا... وإذا كان ولابد أن يهلكا، فعلى الأقل لا يكون ذلك بيدى . ومن أَجْلِهما، ومن أجلك، ومن أجلى، تَظاهِرى بأَنِّى لا أعرف أنهما فى باريس... لا تُجبرينى على أن أعرف، وإلَّا...

● ماذا تريد أن تقول يا بنى ؟ أتريد .. هل تجرؤ ؟...

– أمى ، اصْغى إلَىَّ : إذا كنتُ أعرفُ أن أختى «جولى» فى هذه الغرفة... (وأشار بأصبعه إلى الغرفة المغلقة) فإنى سأُبَلِّغ عنها فى الحال لجنة رقابة القطاع .

وتبدو الأم المسكينة ، كعصابة رأسها بياضًا، ويسقط الجورب الذى كانت تُخيطه، من يديها المرتعشتين وتنهدت، وبصوتٍ أضعف من الضعف تمتمت :

« لا أستطيع أن أصدق ، ولكنى أوقن جيدًا ، هذا وحش... «إيفاريست».

ويبدو وجه «إيفاريست أكثر شحوبًا منها، والزبد على شفتيه، وينصرف مهرولًا ، يبحث عن النسيان بجوار «إيلودى» والنعاس . إنه شعور مسبق ولذيذ للعدم .


7

7

بينما كان الأب «لونجيمار»، والفتاة «أثينابيس» يُسألان فى القطاع، كــان «بروتو» بقيــادة اثنين من شرطة الدرك يقــودانه إلى «لوكسمبــورج»، حيث رفض البواب استقباله مُتعللًا بأنه لا توجد أماكن .

ثم بعد ذلك أُقْتِيدَ إلى البوابة الرئيسية، وأُدخل إلى قلم الكُتَّاب فى حجرة صغيرة، مقسمــة إلى جزأين بحــاجـز من الزجـاج . وعندمـا كان كـاتب المحكمة يكتب اسمه فى سجلات الأمر بالحبس، شاهد «بروتو» من خلال الزجـاج رجلين مُستلقيَيْنِ على فـراشَيْنِ حقيريـن، لا يتحـركـان، كأنهما أموات، لا تـرى أعينهما المحدقة شيئًا كما يبـدو، وتتناثر حـولهما أطباق وزجاجـات، وبقايا خبـز ولحم تغطى الأرض حولهما. فَهُمَا من المحكوم عليهم بالإعدام، وينتظران العربة التى تنقلهما إلى المقلصة.

واقتِيدَ «بروتو» بعد ذلك إلى زنـزانة، حيث رَأى – على ضوء شمعة – شخصين مُضطجعين ، أحدهما شرسٌ ومجدوعٌ ومُخيف، والآخـر رقيق

وحلو. هذان السجينان قَدَّمَا له بعض القش العَفِن المملوء بالهوام الضارة، حتى لا ينام على الأرض الملوثة بالغائط .

ارتمى «بروتو» على أحد المقاعد فى الظلمة الآسِنَة، وظل برأسه مستندًا على الحائط صامتًا جامدًا. كان يتألم إلى درجة أنه لو استطاع أن يُحطِّم رأسه فى الحائط لفعل ، ولكنه مُنهار، فهو لا يستطيع التنفس . عيناه محتجبتان، وترامى إلى أُذنه صوت ضوضاء بعيدة، هادئة مثل الصت، شعر وكأن كل كيانه يسبح فى عَدَمٍ لذيذ . وطوال لحظة لا تُضَاهَى ، كل شىء كان له بمثابة انسجام، وضوء مُشرق، وعطر، وهدوء ، ثم غاب عن الوجود .

وعندما استرد وعيه، أول فكرة طرأت عليه هى أنه أسِفَ على الإغماءة التى أصابته، وفيلسوف حتى فى غيبوبة اليأس ، فكر فى أنه كان لابد له أن ينزل فى أعماق غيابة السجن، منتظرًا المقصلة، ومن أجل أن يجرب أقوى إحساس بالرغبة، والذى لم تتذوقه حواسه من قبل .

وحاول مرة أخرى أن يفقد شعوره، ولكنه لم ينجح فى ذلك، وشيئًا فشيئًا – على العكس – كان يشم الهواء النتن فى الزنزانة، يُحمل إلى رئتيه، مع حرارة الحياة، والوعى بشقائه اللامحتمل.

عند ذلك، اعتقد زميلاه فى الزنزانة أن صمته فيه إهانة شديدة لهما، ولما كان «بروتو» اجتماعيًا بطبعه، حاول أن يُرْضِى فضولهما، ولكنهما عندما عَلِمَا أنه من هؤلاء الذى يُسَمُّون «سياسيين»، والذين جريمتهم ما هى إلا كلام أو فكرة، لم يُظهروا له أى احترام أو تعاطف . الأعمال

المنسوبة إلى هذين السجينين كانت أكثر صرامة : الأكثر تقدمًا فى السن كان قاتلًا، والآخر زَوَّر حوالات حكومية. وقد تَوَاءَمَ الاثنان مع حالتيهما، ووجدا فيها بعض القناعة. وفجأة استسلم «بروتو» إلى خياله وفكره بأن هناك فوق رأسه كل شىء فى حركة، ضوضاء، وضوء، وحياة، وأن البائعات الجملات فى «البالية» يبتسمن من خلف ما يعرضه من عطور، وخردوات للمارة السعداء الأحرار، وهذه الفكرة قد جعلت يأسه يتفاقم .

وعندما جنَّ الليل لم يكن مرئيًّا فى ظلمة وصمتِ الزنزانة، ولكن مع ذلك كان ثقيلًا وخانقًا وكئيبًا. غَفَا «بروتو» وهو يضع إحدى ساقيه على المقعد، ومستندًا بظهره إلى الحائط. كان يرى نفسه جالسًا تحت شجرة بلوط كثيفة، حيث تغرد الطيور، والشمس الغاربة تغشى النهر بلهيب سائل، وأطراف السحب يكسوها اللون الأحمر القانى. انقض الليل، وافترسته حُمَّى حارقة، وكان يشرب بنهم من ماء جَرَّتِه مما زاد من حالته سوءًا .

وفى اليوم التالى أَتَى السجان، الذ ى يُحضر الحساء، ووعَدَ «بروتو» بأن ينقله إلى البيستول (وهو قسم خاص فى السجن لمن يدفع مقابل) بواسطة المال، بمجرد أن يشغر مكان، وذلك لن يتأخر أبدًا .

وفى اليوم التالى، دعَا المُعالج العجوز ليخرج من زنزانته. وكان «بروتو» فى كل درجة صعدها شعر بأن القوة تعود إلى جسده وتدب فيه الحياة. وعندما وصل إلى البلاطة الحمراء لإحدى الغرف رأى سريرًا منصوبًا، سريرَ ميدانٍ عليه غطاء حقير من الصوف، فبكى من الفرح .

السرير المذهب حيث يتناقـر اليمام، والذى كـان قد أوصـى بصناعتـه فيما مضـى من أجل أجمل راقصـــة بالأوبرا، لم يكن يبـــدو له أنسب أو مَحَطًّ أملٍ لمثل هذه البهجة.

فراش الميدان هذا كان فى صـالة كبيرة، متوسطة النظافة، وتحتوى على سبعــة عشر فِـراشًا آخــر ، يفصلهــا عن بعضهــا ألواح خشبية عــاليــة. والصحبة التى تقيم فيهــا تتكون من النبلاء السـابقين، والتجـار، ورجال بنوك، وحرفيين، فلم يَضِـق الشيخ بهم ذَرْعًا، لأنه كان يتكيف مع أى فئة من الفئات فيما مضـى .

لاحظ أن هؤلاء الرجـال المحــرومين مثله من أى مسرات والمعـرَّضين لهلاك على يد الجلاد، يُبْدُونَ بعضَ البهجة، وذوقًـا حادًّا للفكاهة. لم يكن لديه استعـداد كبير ليعجب الرجال، فقـد أرجع اعتدال مزاجهـم إلى خفة عُقولهم، التى تحوُل بينهم وبين التفكير بعمق فى حـالتهم. وتيقن من هذه الفكرة عندما لاَحَظَ أن أكثرهم ذكـاءً كانوا يشـعرون بحزن عميق . ورأى فيما بعد – بالنسبة إلى الأغلبية – أنهم يجدون فى معـاقرة النبيذ والعرقى بهجة، تُخفى فى مصدرها العنف، وأحيانًا الجنون.

الجميع ليس لديهم شجاعة، ولكن الجميع كانوا يُبدونها. «بروتو» لم يندهش، فهو يعلم أن البشر يعترفون عن طيب خاطر بالقسوة والغضب، والبخل، ولكنهم لا يعترفون أبدًا بــالجُبن، لأن هذا الاعتراف يُعَرِّضـهم – فى نظر البـدائيين، وفى المجتمع الراقى – لخطرٍ قـاتل، لذلك فهـو يرى أن

جميع الشعـــوب شعــوبَ أبطالٍ، وجميع الجيـــوش لا تتكون إلَّا من البواسل.

وكـــان صليل الســـلاح وصرير المزاليج، ونداء الدوريـات، ودَبْدَبَة المواطنين عند باب المحكمـة، يُثْمِل المسـاجين أكثر مـن الخمرة وإن كـان يُوحى اليهم بالكآبة، والهذيان، والهلع.

كان منهم من يذبح نفسه بشفرة، أو يُلقِى بنفسه من النافذة .

أقام «بروتو» فى البيسول لمدة ثلاثة أيام، عندمـا أخبره حامل المفاتيح أن الأب «لونجيمار» يثابر على بقائـه على القش الآسِن، فى الهوام الضـارة، مع اللصـوص والقتلة. فطلب نقله إلى «البيستـول» فى الغـرفـة التى يقيم فيها، حيث خَـلَا فيها سرير. ولما تعهـد بأن يدفع من أجل الراهب. ولَمَّا لم يكن لرجل الأعمال السـابق ثـروة كبيرة، فقـد تفنن فى أن يرسم صــورًا مقابل مبلغ من المال لكل صورة .

وعن طريق أحـد السجَّـانين حصل على كادرات سـوداء ليضـع فيهـا الأشغال الدقيقة التى نَفَّذَها بمهـارة. وهذه الأعمال كان عليها إقبال كبير فى جَمْعٍ من الرجال يفكرون فى أن يتركوا تذكارات .

الأب «لونجيمار» كـان يتمسك بشدة بقلبـه وروحــه، انتظارًا منه أن يُستدعى أمام المحكمة الثورية، كان يُحَضِّر دفاعه. ولا يفصل قضيته عن قضيـة الكنيســة، وقـد عـزم على أن يستعـرض على القضـاة الفـوضَى والفضـائح التى تسببِ فيها دستـور «الأكليروس» المدنى حول كنيســة

يسوع المسيـح، وقد عقد النيـة على أن يُصوِّر الابنـة الكبرى للكنيسة[1] تُعلن حـرباً مُـدنسـة على البـابا، و «الأكليروس» الفـرنسى مسلوباً ومغصوباً ومكرهًا، يخضع بطريقـة شنعاء لبعض العلمانيين، والرهبان – الذين هم الجنود الحقيقيون للمسيح – وقد نُهِبُوا واغتُصِبوا وتَشتتوا. وأن يذكـر القديس «جـريجوار»، و القديس «إيرينيـه» العظيم، وأن يبرز مواد كثيرة من القانون الكَنَسِىّ، وفقراتٍ كاملةً من الفتاوى البابوية .

وظل جاثيًـا على ركبتيه طوال النهار عند طرف فراشـه، يغمر أسنان الرّيش فى الحبر حتى آخرها، وفى سـواد الدخان، وفى ثُقْل القهوة، ويُغطى بكتـابةٍ غير مقرءوة مناديل ورق، وورق تغليف، وورق جـرائد، وأغلفـة الكتب، وخطابات قـديمـة، وفـواتير قـديمـة، وورق اللعب، وفكر فى أن يستخدم قميصه بعد أن يغسله بالنشا.

ثم رص الورق بعضه فـوق بعض، مشيرًا إلى الطرطشة التى يصعب حل رموزها، قال :

– عندما أَمْثُل أمام القضاه، سوف أُغدِق عليهم بالمعرفة .

وذات يوم، بعد أن ألقى نظرة رضًا على دفاعه الذى يتزايد بلا انقطاع، ظل يُفكر فى هدوء القضاة الذين يتمنى أن يُفحمهم، فأخذ يصيح :

– لا أريد أن أكون فى مكانهم !

المسـاجين الذين جمعهم المصير فى هذه الزنزانة كـانوا إمَّـا ملكيين أو

---

(١) يعنى بالابنة الكبرى : فرنسا .

فيدراليين، ووجدوا فيهـا يعقوبيًّا واحدًا، وكـانوا يختلفون فيما بينهم فى الرأى فى طريقـــة إدارة شئون الدولة، ولكـن لم يوجـد بينهم أى واحـــد يحتفظ بأقل ما يمكن من المعتقدات المسيحية .

كان الرُّهبان، والدستوريون، والجيروندان يجدون - مثل «بروتو» - أن الرب الطيب بالنسبـة لهم ليس فى صَفِّهـم، وعظيمٌ بالنسبـة للشعب . والبعقوبيون كانوا قد أقاموا - بدلا من« جيوفاح » (وهو موضوع قصة ثورة الملائكة) - إلٰهًا يعقـوبيًّا ، لإنزال البعقـوبيـة من الأعالى إلى الدنيـا، ولكنْ بما أن هؤلاء وأولئك لم يستطيعـوا أن يتصـوروا إمكان انحـراف المرء عن الصـواب فى اعتقـاده بأى دين ظاهر، وبما أن الأب «لونجيمار» كان لا ينقصه الفكر، فقد عَدُّوه منافقًا .

ولأنه أرَادَ أن يستعد لأن يكون شهيـدًا، فقد أظهر عقيـدته فى كل لقاء، وكلما أبدى إخلاصًا بَدَا لهم أنه مخادع .

وبلا جـدوى كان «بـروتو» يعتبر نفسه ضـامنًا لحُسن نيـة الراهب. حتى «بروتو» نفسـه أصبح لا يصـدق إلا جـزءًا مما كان يقـول. كـانت أفكاره غريبة، حتى لَتَبْـدُو أنها مُتصَنَّعة، ولا يقتنع بها أى شخص كلية . كان يتحدث عن «جان جـاك» كنذلٍ تافه. وعلى العكس، وضـع «فولتير» فى مصـاف الرجـال المؤَلَّهِين، ومع ذلك لم يَضعـه فى مصـافِّ المحبـوب «هيلفيتيـوس»، و «ديـديرو»، و «البـارون دولبـاك». وفى رأيه أن أعظم عبقـرية فى القـرن كـان «بولانجيـه». وكـان يحترم أيضًـا رجل الفلك «لالاند»،و «ديبوى» مؤلف «مذكرة عن أصل النجوم ».

وكان رجال الفكر فى الغرفــة يوجهون إلى الراهب البارنابيتى المسكين آلاف السخــريات الخفيفة، لم يفطن إليهــا مطلقًا، كــانت نواييه السليمــة تُحبِطْ أشراكهم.

ومن أجل أن يُبعِــد المساجين عن أنفسهــم الهموم التى تُثقل كــاهلهم، ولكى يهربوا من هموم وقت الفــراغ، كــانوا يلعبــون لعبة الضــامــة، أو الورق، أو النرد، ولم يكن مسموحًا لهم بأى آلة مــوسيقية. وبعد العشاء كانوا يُغنونَ، ويُنشــدون بعض الأشعار، وكــانت قصة فــولتير «العذراء جــان دارك» تُضفى على قلوب هؤلاء البؤســاء بعض البهجــة، والذين لم يَمَلّوا من إعادة الاستماع إلى المواقف الجيدة منها.

ولكن لم يكن فى وسعهم أن يتخلصوا من الفكرة المُخيفــة التى غُرست فى أعماق قلبهم، كانوا يُحاولون أحيانًا أن يجعلوا منها تسلية، وفي الغرفة ذات الثمانية عشر فراشًا - قبل أن يستسلموا للنوم - كانوا يلعبون دور المحكمــة الثــورية. وكــانــت الأدوار مُــوزَّعــة حسب الميــول والقــدرات. فيُشَخِّصُ بعضهم المدَّعين والقضــــــاة، ويُشخص بعضٌ آخـــــر المتهمين والشهود، وآخرون يُمثلون الجلاد ومساعديه. كانت القضايا تنتهى على نسق واحــد، بإعدام المتهمين، بأن يتمــدد المتهم على أحد الأَسِرَّة ورقبتــه تحت لوح خشب. ثم بعــد ذلك ينتقل المشهــد إلى مقــر أرواح الأمــوات، والذين يتحركون بخفة ورشاقــة من الفرقة، ويلتفون بملايات، ويمثلون الأشباح.

ويبــدو محامٍ شاب من «بوردو» يُسمــى ديبوسك، صغيرًا ، أسمــرَ ، أعــورَ ، أحــدب، أعرج، يمثــل الشيطان المُتهافت شخصيًّــا، جــاء مُقَــرَّنًا،

يسحب الأب «لونجيمار» من قــدميــه بعيـدًا عن سريـره، مُعلنًا إيَّاه أنه محكومٌ عليه بالنار الأبدية، وهالكٌ دون هوادة، لأنه جعل من خالق الكون إنسانًا حسودًا، أحمقَ، خبيثًا، عدوًّا للسرور والحب.

صاح هذا الشيطان صياحا رهيبا :

– ها ! ها ! ها ! أنت عَلِمْـتَ أيها البـوذيُّ العجـوز أن الله يحب أن يرى مخلوقـاته تذوب فى التوبة والنـدم، وأن يزهدوا فى أعظم هباته. مُحتـال، مُنافق، كافر، فلتجلسْ على المسامير، ولتأكُل قشر البيض إلى الأبد !

اكتفى الأب «لونجيمار» بأن يُجيب على ذلك بأنه فى هذا الحديث تَفوَّق الفيلســوف على الشيطان، وأن أصـغــر شيطان فى الجحيم لا ينطق بمثل هذه الحماقـات. ولما كان اللاهوت قـد صقله قليـلا فبكل تأكيد يُعَـدُّ أقلَّ جهلًا من عالِم الموسوعات.

ولكن عندمـــا سماه المحـامى الجيروندينى «كـــابوشـين»، استشـــاط غضبًـا، وقــال : إن رجلًا غير جـدير بأن يميـز أحـد البرنابيين، عن أحـد الفرنسيسكان، لا يستطيع أن يرى ذبابة فى اللبن.

أخلت محكمة الثورة السجون، التى ملأتها اللجان دون حدود فى مدة ثلاث أشهـر. غرفــة الثمانيــة عشر تجدَّدَ نصفُها. والأب «لونجمار» فقـد شيطانه الصغير، وذلك أن المحامى «ديبوسك» مَثُلَ أمــام المحكمة الثورية وحُكِمَ عليه بالإعدام كفيدرالى، ولأنه تآمــر ضد وحدة الجمهورية، وعند خروجه من المحكمة مَرَّ – مثــل جميع المحكوم عليهم الآخريــن – فى ممرٍّ يعبر السجن، ويطل على الغـرفة التى ملأهــا حيوية وبهجة، وكــان وهو

يودع أصدقــاءه يحتفظ باللهجة المرحة، والمظهر الفـرِح الذى تعوَّد عليه، وقال للأب «لونـجيمار» :

– عفـوا يا سيـدى ، ســامِحْنى على أنى جـــذبتك من قـدميك من على سريرك، فلن أعود لمثل ذلك ثانية.

ثم استدار إلى «بروتو» العجوز وقال له:

– الوداع ، ســوف أسبقك إلى العَـدَم.سوف أتبرع للطبيعــة بعناصرى التى أتكوَّن منها، آمِــلًا أن تستخدمهــا استخدامًــا طيبًا فى المستقبل، لأنه يجب الاعتراف بأنها لم تُكلَّل بالنجاح معى .

ثم نزل إلى قلم المحكمة، تاركًــا «بروتو» محزونًا ، والأب «لونـجيمار» يرتعــد، وصـــار أَخْضَرَ اللون مثل ورق الشجـر، أقـرب إلى الموت منه إلى الحياة حين رأى الزنديق يضحك وهو على شفا الهاوية (أى الهلاك).

وعندما هَلَّ شهر جيرمينال (يوليو) بـأيامه المشرقة صار «بروتو» – الذى كــان شهوانيًا – ينزل عــدة مرات فى اليـوم إلى الفناء الذى يؤدى إلى القسم الخاص بالسيدات، بالقـرب من النافورة، حيث تأتى السجينات فى الصباح ليغسلن ملابسهن. وكان هناك حاجز يفصل بين القسمين، ولكن الحواجـــز لم تكن مُحْكَمــة حتــى تمنع الأيدى من أن تتـــلاقى ، أو تمنع الشفاة من أن تتلاثم .

وفى هزيع الليل الهادىء يهرع فيــه كل اثنين معًا. حينئذ، وفى الخفــاء، يحتمى «بروتو» بالسلم، ويجلس على إحدى الدَّرجات، ويُخرج من جيب

«الريدينجوت» كتاب «لوكريس»، ويقرأ على ضوء شمعة بعض الحِكَم المفرِّجة للكرب، ومن ذلك : «عندما تتوقف حياتنا، لا يستطيع أى شىء أن يُؤثر فينا، حتى السماء والأرض والبحار عند اختلاط بقاياها...». ومع أنه كان يتمتع بحكمته القوية، فقد كان «بروتو» يحسد الراهب البارنابيتى على هذا الحمق الذى كان يحجب عنه الكون .

كان الإرهاب - من شهر إلى شهر - يتفاقم، وفى كل ليلة كان السجانون - وهم سكارى، ومعهم كلاب الحراسة يتنقلون من زنزانة إلى أخرى، يحملون قرارات الاتهام، ويصيحون على أسماء لفَقُّوها، يُوقظون السجناء بصوتٍ مفزع، ومن أجل عشرين ضحية مذكورة أسماؤهم يُروعِّون مائتين.

فى هذه الممرات المملوءة بالظُّلمات الدامية، كان يمر فى كل يوم - دون أى شكوى - عشرون، أو ثلاثون، أو خمسون مُدانًا من الشيوخ والنساء، والشُبَّان، وحالات متنوعة الطِّباعِ والشعور، حتى أن المرء كان يتساءل عَمَّا إذا كان اختيارهم لم يتم حسب القرعة.

وكان هناك من يلعب الورق، ويشرب نبيذ بورجونيون، ومن يخططون، ومن لهم لقاءات غرامية فى المساء عند الحاجز .

المجتمع تجدد كله تقريبًا، والآن يتكون جزء كبير منه من «المتطرفين» ومن «الساخطين»، ومع ذلك فإن غرفة الثمانية عشر فِرَاشًا لا تزال باقية، لإقامة الأناقة واللباقة، فيما عدا اثنين معتقلين وُضِعَا فيها حديثًا، نُقلوا من «لوكسيمبورج» إلى البوابة الرئيسية، ومشكوك فى أنهما من

«الخِرَاف» أى : من الجواسيس، وهما المواطنان «نـافيت» و «بيلييــه»، لم يكن يوجد سوى أُناس أشراف بينهم ثقة متبادلة.

وكان يُحتفل فيها بانتصــارات الجمهورية، وكأس الشراب فى الأيدى، ويتـلاقى فيهـا كثير من الشعراء ، كما يتـلاقى فيها فى كل اجتماع رجالٌ لا عملَ لهم. وأكثــرهم مهـارة، هماالذيـن يؤلفـون قصـائـد غنائيــة عن انتصارات جيش الران، وينشدونها بتفخيم، وكـانوا يُصفقون بحِدَّة لها، و «بروتو» فقط كان يمدح بفتور كُلًّا من المنتصرين وشعرائهم .

قال ذات يوم : ذلك – منذ هوميروس – هَوَسٌ غـريبٌ من الشعراء أن يحتفلوا بالعسكريين. الحرب لم تكن قط فَنًّا، والمصادفة وحدها هى التى تقرر مصير المعارك. فلابد من انتصــار أحد القائدين الأحمقين المتقابلين. وانتظروا إلى يوم من الأيــام ، فإن أحــد هؤلاء الذين يحملــون السيـوف والذى تُعظمـــونه ، فــإنه سيبتلعكم جميعًـــا كما يبتلعُ طـائــر الكركى الضفـــادع كما تـذكــر الحكاية. وحيئنــذ سيكون بحقٍّ إلٰهًا ! لأن الآلهة تتعرف على بعضها عند الاشتهاء.

لم يتأثر «بروتو» مطلقًا بمجــد الجيوش ، ولم يبتهج قط بانتصارات الجمهـوريــة، والتى كـان قــد تكهـن بها ، ولم يُحب النظام الجديد الذى يؤيده النصر. لم يكن مسرورًا ، وعلى الأقل كان شعوره بذلك يسود .

وذات صبــاح أُعْلِن أن مفتشى لجنة الأمن العــام سيقومــون بتفتيش دقيق عند المتهمين، وقــد يعثرون على حــوالات حكوميــة، وأشياء ذهبيــة وفضيــة، سكاكين مقصات، مثلما جــرت تفتيشـات فى «لوكسيمبــورج».

وأنه عُثِرَ على خطابات وأوراق وكتب. حينئذ حَاوَلَ كل فرد فى أن يجد مخبأً ليضع فيه أثمن ما عنده. وَدَسَّ الأب «لونجيمار» مرافعته فى أحد المزاريب. وخبَّأَ «بروتو» كتابه «لوكريس» فى رماد المدفأة .

وعندما جاء المفتشون - يُعلقون شرائطهم ثُلاثية الألوان حول رقبتهم - ليقوموا بعملية التفتيش ، لم يعثروا على شىء يستحق أن يأخذوه. وبعد رحيلهم جَرَى الأب «لونجيمار» إلى المِزراب واسترد ما لم تبلله المياه أو الريح من مرافعته. وأخرج «بروتو» من الرماد كتابه عن «لوكريس»، وقد صار أسود اللون بسبب سواد الدخان.

وقال : «فلنتمتع بساعتنا التى نعيشها، وذلك لأنى أتطير ببعض الدلالات على أن الوقت من الآن فصاعدًا محسوبًا علينا بدقة شديدة ».

وفى إحدى الأُمسيات الجميلة من المَرْعَوى (صفة الشهير التاسع من تقويم الجمهورية، من ٢٠ مايو إلى ١٨ يونيو) بينما هَلَّ الهلال فى السماء شاحبًا عند طرفيه الفضيين، ورجل الأعمال العجوز من عادته قراءة «لوكريس» على إحدى درجات السلم الحجرى، إذْ سمع صوتًا يناديه، صوتَ امرأة، صوتًا لطيفًا لا يعرف صاحبته، فنزل إلى الفناء، ورأى خلف الحاجز شكلًا لا يعرفه ولا يعرف صوته، وكان يُذكِّره بكل النساء اللائى أحبهن. وأَضْفَت عليه السماء اللون اللازوردى والفضى. وفجأة تعرف «بروتو» على الممثلة الكوميدية الجميلة من شارع «فايدو»، «روز ثيفينان».

– أنتِ هنا يا صغيرتى ! إنَّ فرحتى برؤيتك هنا قاسية بالنسبة لك . منذ متى، ولماذا أنتِ هنا ؟

● منذ أمس . وأضافت هامسة :

أَبْلَغُوا عنى على أننى مَلَكية، واتهمونى بأننى تآمرت لتخليص الملكة، وبمجرد أن علمتُ بوجودك هنا بدأت فى الحال أبحث عنك . فاسمعنى يا صديقى.... وذلك لأنك تريد حقًّا أن أناديك بهذا الاسم... إننى أعرف شخصيات لها مكانتها، ولدىَّ – كما أعرف – تأثيرات حتى على لجنة الخلاص الشعبى. سوف أطلب تَحرُّك أصدقائى ، وسوف يُخلصوننى ، وأنا بدورى سوف أُخلِّصك .

ولكن «بوتو» بصوت متأثر قال :

– استحلفكِ بكل عزيز لديكِ يا صغيرتى لا تفعلى شيئا ! لا تكتبى ، ولا تلتمسى من أحد ، ولا تطلبى أىَّ شىء من أى إنسان، أتوسل إليكِ أن تتنسى ذلك .

ولما كان يبدو عليها أنها لم تستوعب ما قاله، فقال مستطردًا، وهو يتوسل أكثر :

– التزمى بالصمت يا «روز»، وتَنَاسَىْ وهنا الخلاص . وكل ما سوف يفعله أصدقاؤكِ لن يكون إلَّا سببًا فى تعجيل موتكِ. تَريَّثى، فقد لا يمضى وقت قصير حتى يتم إنقاذك كما أتمنى.... لا تثيرى القضاة وهيئة المحلفين ومن يُسمى «جاميلان»، فهؤلاء ليسوا بشرًا ، بل أشياء ، والمرء

لا يتفاهم مع الأشياء. تَنَاسَىْ . إذا اتبعتِ نصيحتى يا صديقتى فسأموت سعيدًا بإنقاذ حياتكِ. أجابت :

– سأطيعك .... ولا تتحدث عن الموت .

فهز كتفيه وقال :

– لقد انتهت حياتى يا صغيرتى . فعيشى أنتِ وكونى سعيدة .

فتناولت يديه ووضعتهما على صدرها وقالت :

– اسمع يا صديقى .... أنا لم أَرَكَ سوى يومٍ واحدٍ، ومع ذلك فأنت لست غريبًا بالنسبة لى . وإذا كان ما سأقوله لك سوف يربطك مرة أخرى بالحياة، فَصَدِّقْهُ : « سأكون لك.... كل ما تريده منى سأُنفذه».

وتبادلا قبلة بثغريهما من خلال الحاجز .

* * *

بينما كان «إيفاريست جاميلان» فى أثناء جلسة طويلة فى المحكمة جالسًا على مقعده، فى جو حار، أغلق عينيه وأخذ يفكر :

«الأوغاد أجبروا «مارات» على أن يختبىء فى الجحور، جعلوا منه طائرًا من طيور الليل، طائر «مينيرفا» الذى تخترق عينيه المتآمرين فى دياجير الظلام حيث يختفون .

والآن، إنها نظرة زرقاء فاترة هادئة، تخترق أعداء الدولة، وتُبلِّغ عن الخونة بدقة خفية، حتى على صديق الشعب، النائم إلى الأبد فى حديقة

الكورديليه. المُنْقِذ الجديد في حماس المنقذ الأول، وأحدَّ منه ذهنًا، ورأى ما لم يره أحد من قبل، وأصبعه المرفوع ينشر الرعب.

فهو يُمَيِّز الفروق الدقيقة التى لا تُدرَك بالحواس، والتى تفصل بين الخير والشر، وبين الرذيلة والفضيلة، ولولاه لاختلط الصالح بالطالح فى الوطن والحرية. ويرسم أمامه الخط الدقيق والعنيد، والذى لا يوجد على جانبيه سوى الخطأ والجريمة والإثم. ويُعَلِّم هذا النزيه كيف نستخدم الغريب بالمبالغة وبالضعف، وباضطهاد الديانات باسم العقل، ومقاومة قوانين الجمهورية باسم الدين. وليس أقلَّ من الآثمين الذين أهلَكوا «لوبيليتييه» و «مارات»، وهؤلاء الذين كافئوهم بأمجاد مقدسة من أجل تشويه ذكراهم، خدمة للغريب.

الجاسوس – أيًّا كان – يرفض أفكار التنظيم، والحكمة، والانتهازية. الجاسوس – كائنًا من كان – يُحقِّر العادات ، ويُهين الفضيلة ، وفى فساد قلبه يُنكر الله. الكهنة المتعصبون يستحقون الموت، ولكن توجد طريقة مضادة للثورة لمحاربة التعصب، وتوجد ارتكاسات إجرامية، فبالعنف يُقْضَى على الجمهورية كما يُقْضَى عليها بالاعتدال.

« أوه ! يا لها من واجبات رهيبة على القاضى، أملاها أكثر الرجال حكمة ! ليس فقط الأرستقراطيون والفيدراليون والخُبثاء فى حلف أورليانز هم أعداء الوطن المُعَلنْ عنهم، والذين يجب ضربهم ، فالمتآمر، أو الجاسوس، هو ضفدع مبرقش يتلون بأشكال مختلفة، يظهر بمظهر الوطنى أو الثورى، أو كعدو للملوك، ويتصنع مهارة قلب لا يخفق إلا من

أجل الحرية، يُضَخِّم صوته ليُرعب أعداء الجمهورية : هذا «دانتون»، قسوته تسىء إلى إخفاء اعتداليته المخيفة، ويُظهر فساده أخيرًا .

المتآمر، أو الجاسوس، هو ذلك المتلجلج البليغ الذى يضع على قبعته أول شارة وطنية للثوريين، هو ذلك الهجَّاء الذى يهجو، والذى فى وطنيته الساحرة والقاسية يُسَمِّى نفسه «نائب المشنقة»، هذا هو «كامى ديمولان»[1]، وهذا هو النَّذْل «لاكروا»[2] المتآمر، الجاسوس، وهذا هو الأب «ويشيزن»[3] يحط من قيمة الحرية بغوغائيتها الحقيرة، والتى منها الوشايات البذيئة جعلت «أنطوانيت» نفسها لها أهميتها .

وهذا هو «شوميت»[4]، والذى – رغمًا عن ذلك – نراه مناسبًا وشعبيًّا ومتعدلًا، ورجلا طيبًا، وفاضلًا فى إدارة مجلس العموم، ولكنه كان ملحدًا !

المتآمرون، والجواسيس، هم جميعهم هؤلاء اللامتسرولون الذين يرتدون على رءوسهم البونيه الأحمر، وكارمنيولا، وقباقيب، والذين يزايدون بالوطنية على اليعقوبيين بجنون.

هذا «أنارسيس كلوتس» (١٧٥٥ – ١٧٩٤) ويُسَمى خطيب النوع البشرى، ألمانى ثرى، مواطن عالمى، فى عام ١٧٩٢ كان يُحرِّض على الحرب والإرهاب فى عهد الجمعية الوطنية، حُكِم عليه بالإعدام من قِبَل

---

(١) من أعضاء مجلس العهد .
(٢) رئيس مجلس العهد .
(٣) من رجال السياسة الفرنسيين .
(٤) وكيل النيابة لدى الهيئة الثورية.

جميع مَلَكِيَّات العالم، ولكن كان لابد من خشيته لأنه كان بروسيًّا، وانتهى إلى المقصلة بتهمة الإلحاد والخيانة (٢٤ مارس ١٧٩٤).

« والآن، عُنْفٌ ومُعتَدلون، كل هؤلاء الأشرار، جميع هؤلاء الخونة، دانتون، ديمولان، هيبير، شوميت، هلكوا بالمقصلة .

أُنقِذَت الجمهورية، وتصاعدت من جميع اللجان جوقة مديح، ومن جميع الجمعيات الشعبية نحو «ماكسمبليان» و «مونتانى». المواطنون الصالحون يصيحون : «ممثلون أفاضل لشعب حر، وأنه كان بلا جدوى أَنَّ أبناء التيتان رفعوا رءوسهم شامخون، (مونتانى) فاعلة خير، (سيناء) حامية، ومن نهدك الذى يغلى خرجت صاعقة الخلاص...». وفى هذه الجوقة كان للمحكمة نصيبها من المدائح .

كم هو جميل أن يكون المرء فاضلًا، وكم أن العرفان الشعبى غالٍ وعزيز ، فى قلب قاضٍ نزيه !

« لذلك ، من أجل قلب وطنى ، يا له من موضوع يثير الدهشة، ويا لها من قضايا قلق ! ماذا ؟! من أجل القضية الشعبية ؟ إذن لم يكن ذلك كافيًا من «ميرابو»، و «لافاييت»، و «بايى»، و «بيتيون»، و «بريسو» ؟ وكان لابد أن يكون فيها هؤلاء الذين بَلَّغوا عن هؤلاء الخونة وَوَشَوْا بهم .

ماذا ؟! جميع الرجال الذين صنعوا الثورة، لم يصنعوها إلَّا لكى يخسروها. ماذا ؟! هؤلاء الصانعون لأيام عظيمة، كانوا يجهزون مع «بِيت» و «كوبروج» ملكية أورليانز، أو وصاية لويس السابع عشر .

ماذا؟! «دانتون»، وهذا كان «مــونك»! ماذا؟! «شـوميت» و«الهوبيرتيون» أكثر نذالة من الفيدراليين الذين دفعـوا بهم تحت المقصلة، لقد تآمروا على تدمير الإمبراطورية !

ولكن من بين هؤلاء الذين أسرعـوا إلى الموت الغـادِرَيْـن . «دانتــون» و«شـوميت».. ألن تكتشف عين «روبسبير» الزرقاء غـدًا غادرين آخرين؟ أين سيتوقف التسلسل الممقوت للخونة، والبصيرة النافذة للنزيه ؟....».

* * *

كانت«جولى جاميلان» مرتدية «الريدينجوت» الأخضر اللون مثل لون القـوارير. كـانت تذهــب يوميًّــا إلى «لوكسيمبــورج» وهناك – على أحــد المقاعد، فى آخر أحد الممــرات – تنتظر لحظة ظهور حبيبها فى إحدى نوافذ القصر الصغيرة .

كـانا يتبادلان الإشــارات والأفكار فى لغة صــامتــة تخيَّلاها. وكــانت تعرف بهذه الوسيلة أن السجين يشغل غرفة لا بأس بها، وينعم بصحبة مناسبة، ويحتاج إلى غطاء وغَلَّايَة صغيرة، وأنه يحب عشيقته بحنان .

لم تكن هى الوحيدة التى تنتظر رؤية وجه محبوب فى هذا القصر الذى تحوَّل إلى سجن، فقد كان يوجــد أُمٌّ صغيرة بجانبها، لا تُحَوّل نظرها عن نافذة مُغلقة، وبمجرد أن شــاهدت النافذة تُفتح، رفعت طفلها الصغير إلى أعلى بين ذراعيها على رأسها .

وسيدة عجوز مُحَجبة بالدانتيلا، جلستْ وقتًا طويلًا وهى ساكنة على

أحـد المقاعـد التى تُطْوَى . عبثًا تأمل فى أن ترى ابنهـا ولو للحظة، والذى كان يلعب فى فناء السجن حتى حان وقت إغلاق الحديقة .

وطوال فترة هذه الانتظارات الطويلة تحت سماء مُلبَّـدة أو صـافيـة، كان يُرَى رجلٌ ناضج، ضخم قليلًا، نظيف جدًّا، يجلس على مقعد مجاور، ويتسلى بعلبة السعوط الخاصة به وبسلسلة بها حِلْية ، ويطوى صحيفة لم يقرأها .

كان يرتدى ملابس حسب الموضة البـورجوازية القديمة ، يرتدى على رأسـه قبعـة مثلثة القـرون بشريط ذهبى ، وثوبًا بنفسجيًّـا، وصـديريًّا أزرق، مشغولًا بخيـوط فضية. يبدو عليـه مظهر النُّبْل ، كان مـوسيقيًّا ، ويُبرز ذلك طرف «الفلاوت» الذى يظهر من جيبه .

كان يتابع الصبى الصغير بنظراته، ولم يحول عنه عينيه ، ولم ينقطع عن الابتسام له، وعندما يراه ينهض، ينهض هو أيضًا ويُتابعه من بعيد.

تأثرت «جولى» فى بؤسهـا ووحدتها بالعاطفة الخفيـة التى يبديها هذا الرجل الطيب . وذات يوم، عندمـا كـانت خارجـة من الحديقـة، بدأ المطر يتسـاقط فاقترب الرجل الطيب منهـا، وفتح مظلتـه الحمراء الواقيـة من المطر، وطلب منهـا الموافقـة على أن تحتمـى تحتهـا. وأجـابتـه بلطف - بصوتها المشرق - بأنها توافق على ذلك. ولكن مع رنة هذا الصوت نبهته رائحـة لطيفـة لامرأة، فـابتعـد فجأة، وعـرَّض السيـدة الصغيرة للمطر المنهمر، وقد أدركت الفتاة مغزى ذلك بالرغم من همومها، ولم تستطع أن تمنع نفسها من الابتسام.

كانت «جولى» تقيم فى غرفة تحت سقيفة فى شارع «شيرش –ميدى»، واقتنعت المواطنة الأرملة « جاميلان » أخيرًا بأن ابنتها فى جوارها ، ولا تتعرض إلى خطر كبير، أبعدتها عن ميدان «ثيونفيل» وعن قطاع «لوبونت – نوف»، وتولت إعاشتها وكسوتها بقدر استطاعتها.

كنت «جولى» تقوم ببعض أعمال المنزل، وكانت تذهب إلى «لوكسيمبورج» لترى عشيقها العزيز ثم تعود إلى كوخها القذر، هذه الرتابة فى حياتها تُهَدْهِدُ أحزانها، ولما كانت شابة وقوية فإنها كانت تنام طوال الليل نومًا عميقًا .

ولما كانت حادة الطبع، وتعودت على المغامرات – وربما يدفعها إلى ذلك ملابسها التى ترتديها – فكانت تذهب أحيانًا فى الليل إلى بائع عصير الليمون فى شارع «فور»، بلافتة تحمل اسم «لاكروا روج»، والذى يرتاده أناس من جميع المسويات، ونساء أنيقات .

كانت تقرأ هناك صحف الجازيت، وتلعب النرد مع بعض صبيان الدكاكين أو مع جندى يدخن غليونه تحت أنفه. وهناك كانوا يشربون ويلعبون، ويقضون وقتًا فى الغرام، وكذلك كانت المشاجرات لها نصيب .

وذات مساء ، عندما سمع أحد السكارى وَقْعَ حوافر أحد الخيول على بلاط الطريق عند مفترق الطرق، رفع الستارة، فتعرف على قائد الحرس الوطنى، المواطن «هانريوت» كان مارًّا ممتطيًا جواده، يعدو مع أركان حربه، فتمتم السكير من بين أسنانه مغتاظًا :

– ها هى ذى أتان « روبسبير » !

وعندمـا سمعت «جـولى» هذه الكلمـة انفجرت ضـاحكة. ولكن أحـد المواطنين طويل الشاربين أثاره الكلام بشدة قائلًا :

– إن من يتحدث هكذا مـا هو إلا أرستقراطى مجـ....، وأكـون سعيدًا لو رأيتـه يعطس فى عربة السجن إلى «سـامسون». أتعرفـون أن الجنرال «هانريوت» مـواطن طيب، سيـدافع عند الضرورة عن الجمعية الوطنيـة وعن باريس. وهذا ما لن يغفره الملكيون أبدًا .

ثم استدار الوطنى ذو الشارب الطويل إلى «جولى» وتفرَّس فى وجهها، وكانت لا تزال تضحك :

– صِـهٍ، أيها الغـلام الغِرّ، احترس وإلَّا ركلتُكَ بقـدمى فى مـؤخـرتك، لأُعَلِّمك كيف تحترم الوطنيين .

عندئذ ارتفعت أصوات كثيرة :

– « هانريوت » أَبْلَه وسخيف !

– « هانريوت » يعقوبى طيب ! يعيش « هانريوت » !

ويَتَكوَّن حـزبان، وتقع مُصـادمـات، وتتـوالَى اللكمات على القبعـات المنقـوبة.. وانقلبت الطاولات، وتطايرت الأكـواب مُحطمـة، وانطفأت المصابيح، والسيـدات أطلقن صرخات حـادة. ولما هاجَمَ «جولى» كثير من الوطنيين احتمت بأحد المقاعـد، دافعت وخربشت وعضت كل من يحاول أن يهاجمها. وتمزق «الريدينجوت» الذى كـانت ترتديه، وكذلك الصدرة تمزقت، فـانكشف صـدرها اللاهـث. وأقبلت داورية على صـوت الضوضاء، وتسللت الأرستقراطية الصغيرة من بين أرجل شرطة الدَّرَك.

كانت العربة يوميًّا تمتلىء بالمحكوم عليهم، وتقول «جولى» لأمها :

– « ومع ذلك لا أستطيع أن أترك حبيبى يموت ! ».

قـررتْ أن تترجَّى، وأن تسعى، وأن تذهـب إلى اللجـان، وإلى المكاتب، وعند النُّوَّاب والقضـاة... سوف أطرق كل مكان يجب أن أطرقه .

لم يكن عندها أى ثوب، فـاستعـارت والدتها ثوبًا ووشـاحًـا، وغطاءَ رأسٍ من «الدانتيللا» من المواطنة «بليز». وتوجهت «جولى» بعد أن ارتدت كامرأة ومواطنة إلى القـاضى «رينودان» فى أحد منازل شارع «مازاران» الرطبة المظلمة. وصعدت الدَّرَج الخشب وهى ترتعد، واستقبلها القاضى فى حجرة مكتبه البـائس، المؤثث بمنضدة من خشب الصنوبر، ومقعدين من القش – وورق الطنافس المعلق فى قصاصات.

«رينودان» سعـرُه أسود ومُلْصَق، وذقنـه مُدَبَّب، وعيناه سـوداوان، وشفتاه مقلوبتان. أشار لها بأن تتحدث، وأَصْغَى لها فى هدوء .

قالت له : إنها أخت المواطن «شاسانى» –سجين فى «لوكسيمبورج» – وفسرت له بمهارة فـائقة الظروف التى أُلقى عليـه القبض فيها، وقـدمته على أنه برىء وبائس، وأظهرت له أن المسـألة عاجلة.

ظل جامدًا وفاترًا .

وتبكى متضرعة عند قدميه ،

وبمجرد أن أرى دموعها تغير وجهه، واتقـدت حدقتاه باللون الأسود

المائل للحمرة، وفكّاه الكبيران الزرقاوان تحركا، كأنهما يُرسلان لعابه إلى حَلْقِه الجاف ، وقال :

– أيتها المواطنة، سوف يُتَّخذ اللازم، لا تشغلى بالك .

وفتح أحد الأبواب، ودفع بالمبتهلة فى صالون صغير وردى اللون، حيث كانت توجد مرايا حائط ملونة، ومجمعات من الخزف المُبَرغل وساعة جدارية، وشمعدانات مذهبة، ومقاعد منجدة الظهر والمساند، وكنبة بكسوة منقوشة برسومات رعوية للرسام بوشيه.

«جولى» كانت مستعده لأى شىء لتنقذ حبيبها. «رينودان» كان عنيفًا وسريعًا، وعندما نهضت هى لتُهندم الثوب الجميل، ثوب «إيلودى»، تلاقت نظراتها بنظرات هذا الرجل القاسية والساخرة، فأدركت فى الحال أنها أقدمت على تضحية لا جدوى منها . قالت :

– لقد وعَدْتَنِى بحرية أخى .

ضحك ضحكه ساخرة ، وقال :

– قلتُ لكِ أيتها المواطنة سوف نُجرى اللازم، أى أن القانون سوف يُطبق لا أكثر ولا أقل. وقلتُ لكِ ألَّا تقلقى، ولماذا تنشغلين؟ فالمحكمة الثورية دائمًا عادلة .

فكرت «جولى» فى أن تنقضَّ عليه لتعقره، وتنتزع عينيه. ولكن ، عندما شعرت أنها توشك أن تفقد «فورتينيه شاسانى» هربت، وأسرعت إلى

غرفتهــا الصغيرة لتخلع عنها الثــوب المُدنَّس ، ثوب «إيلودى»، وهنا فقط قضت الليل كله فى عويل من الألم والغيظ .

وفى اليــوم التــالى، عندما آبــت إلى «لوكسيمبورج»، وجَـدَت الحديقــة يحتلها شرطة الدرك، وهم يطردون النسـاء والأطفال، ووُضعت حراسات فى الممرات لتمنع المارة من الاتصـال بالمسلجين. وقالت الأم الصغيرة التى كانت تأتى كل يوم حاملة طفلها فى حضنها لجولى : إن الحديث يُتناقل عن مؤامــرة فى السجون، ومنسـوب إلى الزوجات أنهن يجتمعــن فى الحديقة ليثيروا الشعب لصالح الأرستقراطيين والخونة .


8

8

وفجأة ، ارتفع جبلٌ فى حديقـة «التويليرى»، والسماء بلا سحب، ويسير «ماكسميليـان» متقدمًـا زملاءه بزىٍّ أزرق اللون، وسروال أصفــــر اللون، وفى يده باقة من السنابل، ومن زهور الترنجان الزرقاء، وزهور الخشخاش الحمراء.

ارتقى الجبل، ودعـا رب «جان جـاك» من أجل الجمهورية الشفيقـة. فياللْنقاء ! ويا للوفـاء ! ويـا للبسـاطـة القديمـة ويـا للطـل الخصيـب ! ويا للرحمة! ويا لَلْإِخاءَ الإنسانى !

وعبثًا ، لا زال وجه الإلحاد البغيض قـائمًا. ماكسيمليان يحمل شعلة، والنيران تلتهم الوحش، و «الحِكْمَة» تظهر، تشير إلى السماء بإحى يديها، وبالأخرى تمسك تـاجًا من النجوم. وعلى المنصـة المنصوبة فى مـواجهة قصر «التويليرى» «إيفاريست» فى وسط الجمع الغفير المتأثر، يذرف دمعًا هادئًا ، ويحمد الله، فقد شاهَدَ افتتاح عهد من السعادة .

وتنهد قائلًا :

– أخيرًا ، سوف نكون سعداء وأنقياء وأبرياء، إذا سمح الخبثاء بذلك.

يا للأسف ! الخبثاء لم يسمحوا بذلك. لابد من المزيد من التعذيب، ولابد من المزيد من إهراق أنهارٍ من الدماء النجسة .

وبعد مُضى ثلاثة أيام من الاحتفال بالتحالف الجديد والمصالحة بين السماء والأرض أصدرت الجمعية الوطنية قانون «بريريال» الذى ألغى – بنوع من الطيبة المخيفة – جميع الأشكال التقليدية للقانون ، وكل ما كان موضوعًا منذ عهد الرومان مُنْصِفًا من أجل حماية البراءة المُتَّهَمَة. المزيد من التعليمات، المزيد من الاستجوابات، المزيد من الشهود، والمزيد من المدافعين، فحُبُّ الوطن مطلوب من الجميع. والمتهم الذى يحبس فى داخله جريمته أو براءته، يَمْثُل أبكمَ أمام القاضى الوطنى ، وأنه كان فى ذلك الوقت يجب تمييز قضيته الصعبة أحيانًا، والمثقلة الغامضة فى الغالب .

كيف يدور التحقيق الآن ؟ كيف يتم التعرف فى لحظةٍ على الرجل الشريف، وعلى الفاسق، وعلى مُحَبِّ الوطن من عدو الوطن ؟...

وفى لحظة ارتباك، فهم «جاميلان» واجباته الجديدة، وتواءم معها. كان يتعرف باختصار على قضية الصفات الحقيقية لهذه العدالة الملائمة والمخيفة، والتى لم يكن وزارؤها كالقطط المكسوة بالفراء، يَزِنُون فى وقت الفراغ بين الدليل وعكسه بموازينهم القوطية، ولكن بعض اللامتسرولين يحكمون بالتنوير الوطنى، ويَرَوْنَ كل شىء كالوميض الخاطف.

وبينما فقدت الضمانات والمحاذير كل شىء ، فإن حركات القلب

المستقيم تُنقِذُ كل شيء . كان لابد من اتباع غرائز الطبيعة، هذه الأم الطيبة التى لا تخطىء أبدًا، كان لابد من تحكيم العاطفة، كان «جاميلان» يبتهل من أجل أرواح موتى «جان جاك» بقوله :

– أيها الإنسان الفاضل، أَلْهِمْنِى بحب البشرية، بالقدرة على بعثهم من جديد !

ومعظم زُملائه كانوا يشعرون مثله، وكانوا – بصفة خاصة – بُسطاء، وعندما أصبحت الأوضاع سهلة أَلْفَوْا أنفسهم على راحتهم. العدالة المُجْمَلة تكفيهم، ولا شىء يُكَدِّرهم أبدًا فى وَقْعِها السريع، فهم يتحرَّوْن فقط آراء المتهمين، ولا يُدركون أنه من الممكن – دون أى أذى – التفكير بعكسهم.

كما أنهم يؤمنون بمعرفتهم للحقيقة والحكمة، والحاكم الصالح، ويُنسبون إلى خصومهم الشر والضلال، إنهم يشعرون بأنهم أقوياء : كانوا ينظرون إلى الرَّبِّ .

أجَل ، كان هؤلاء المحلفون بالمحكمة الثورية ينظرون إلى الرب الخالق، الذى عرفه «ماكسيميليان» بأنواره.. وكانوا يحبون ويؤمنون .

أما مقعد المتهم فقد تم استبداله بمنصة عريضة يمكن أن تستوعب خمسين فردًا.. الإجراءات لم تكن تتم إلَّا بالإجماع، المدعى العام كان يجمع ويتهم فى نفس القضية، أو يُجَرِّم – كمتواطئين – أُناسًا دائمًا فى المحكمة يلتقون لأول مرة. وتأمر المحكمة بالتحقيق، وبالتسهيلات المدهشة لقانون بريرليال ، وتحكم فى المؤامرات المزعومة بالسجون،

والتى أَعقبت التحـذيرات إلى أتبـاع «دانتـون» ومجلس العمـوم، كـانت ترتبط فيها ببراعة فكرة ثاقبة .

ومن أجل التعرف على صفتين جوهرتيتين لمؤامـرة دُبِّرت بأموالٍ من الخارج ضد الجمهـورية - الاعتدال اللامتـوافق، والمبالغـة المحسوبة - ومن أجل أن نرى فيهـا أيضًـا الجريمة الدانتـونية، والجريمـة الهيبرتية، وكانت قـد تحدد لها رأسان متعارضـان، رَأْسَا سيـدتين : أرملة «كامى» المحبوبة «لـوسيل»، وأرملة «الهيبرتى» «مومـورو»، وهى امرأة غـانية، رائعة الجمال.

والسيدتان قد تم إيداعهن سجنًا واحدًا، حيث إنهما كانتا تبكيان وهما جالستين على مقعد حجرى واحـد ، ونظرًا للتشابه والتناسق بينهما فقد صعدتا معًا إلى المقصلة لهدف واحد، ويُعَدُّ هـذا رمزًا يتميز بعبقرية فَذَّة. عمل فنى، تتخيلـه دون شك روح النائب، والـذى يرجع فخـــر عمله إلى «مـاكسميليـان». وتُنسب إلى هذا الذى ينوب عن الشعب جميع الأحـداث السعيدة أو البـائسة التى كانت تتـم فى الجمهورية : القوانين، والتقـاليد، وتعاقب فصـول السنة، والمحصولات، والأمـراض. وهذا ظلم مُستأهل، لأن هذا الرجل دقيق التكوين، شـديد النظافـة حتى درجـة الوسوسـة، هزيل، له وجه كوجه القطة، كان متحكمًا فى الشعب...

فى هذا اليـوم، أرسلت المحكمة جـزءًا من مـؤامرة السجـون الكبيرة، أرسلت مـا يقـرب من ثـلاثين مُتـآمِـرًا من لكسيمبـورج أسرى طائعين، ولكنهم إمَّا ملكيون أو فيدراليون أقوياء.

الاتهام برمته يقوم على أساس شهادة واشٍ واحد فقط .

المحلفـــون لا يعـرفـــون شيئًا عن القضيـــة، ويجهلون حتى أسماء المتآمزين. «جاميـلان» عندما ألقى بنظراته على مقعد المتهمين، تعرف من بينهم على «فورتينيه شاســانى» عشيق «جولى»، وقد بَدَا نحيفًا من طول الأسر، شاحبًا ، وقسماته قاسيــة بسبب الضوء الساطع الذى تسبح فيه القاعة، ومــا زال يحتفظ ببعض الأناقة والأَنَفَة. تلاقت نظراته مع نظرات «جاميلان» مُحَمَّلة بالازدراء.

« جاميـلان » تتملكه رهبة هادئة، نهض، وطلب الكلمــة، وعيناه مثبتة على التمثال النصفى لبروتوس السابق، والذى كان يسود المحكمة، قال :

– الرئيس الوطنى، لما كان فى الإمكــان أن أحد هؤلاء المتهمين، تربطنى به روابط، إذا صح الإفصاح عنهــا، فهى صلة نَسَب، وأُعلن عدم تَنْحِيَتِى مطلقًــا، فإن «بروتــوس» الأول والثــانى لم يتنحيــا ، من أجل ســـــلامــة الجمهورية أو قضيــة الحرية، عندما كــان لامناص لهما من أن يدينا أحد الأبناء وقد ضَرَبَ أحــد الآباء بالتبنى. (جونيوس بروتوس، ومــاركوس بروتوس).

– تمتم «شاسانى» مغتاظًا : ها هو ذا فاسق جميل .

كان الجمهور فاترًا ، سواء كان قد سَئِمَ أخيرًا من الأخلاق الرفيعة، أو أن «جاميلان» قد انتصر بسهولة بالغة على العواطفَ الطبيعية.

قال الرئيس : أيها المواطن «جاميــلان»، طبقًا لأحكام القانون، أَىُّ تَنَحٍّ يجب أن يُصــاغَ كتــابــةً فى غضــون أربعٍ وعشرين ســاعـــة قبل افتتــاح

المناقشــات. وعليـــه، فــلا وقت لكَ لتتنحى : أى مُحلِّف وطنــى هو فــوق العواطف .

كل منهم تم استجــوابه لمدة ثلاث أو أربع دقـــائق. وانتهى التحقيق بحكم الإعدام للجميع، صَوَّت عليه المحلفون بكلمة، أو بإيماءة من الرأس، أو بالهتاف.

وعندما جاء دور «جاميلان» ليبدى رأيه ، قال :

- المتهمون جميعهم مقتنعون، والقانون صريح .

وبينما كان ينزل على سلم القصر اعترضه شاب يرتدى «ريدينجوت» أخضرَ اللون، ويبدو فى الســابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمــره، وكان يرتدى قبعة مستديرة، ساقطة إلى الخلف قليلا، وحوافها تبدو على رأسه الجميل الشاحب كأنها إكليل أسود .

كان منتصبًا أمام المحلف، وصاح فى وجهه بحدَّة من الغضب واليأس:

- فاجــر ! متوحش ! قــاتل ! اضربنى أيها الجبان ! أنا سيــدة! اقبض علىَّ، اعدمنى بالمقصلة، أنا أختك يا «قابيل» !

وبصقت «جولى» على وجهه.

الجمع الغفير من الحائكات واللامتسرولين فترت يقظتهم الثــورية، وخمدت حَمِيَّتَهم الوطنية، لم يوجد حول «جاميلان» الذى اعتُدى عليه إلا بعض التصرفات المشوشة وغير المؤكدة .

اخترقت «جولى » التجمع، واختفت مع الشفق .

كَـان «إيفـاريست جـاميـلان» يشعـر بملـل شـديد ولا يهنأ له بال ، عشرون مرة فى الليل كان يستيقظ مـذعورًا، بسبب الكوابيس التى كانت تؤَرِّق نومه، كان فقط فى الغرفة الزرقاء بين ذراعى «إيلودى» يستطيع أن ينام بضع سـاعـات. كان يتحـدث ويصيح وهو نائم ، وكـان يوقظهـا، ولكنها لم تكن تفهم كلماته.

وذات صبـاح، بعـد نوم ليلة، حيث رأى «الأيمـونيـد»(١)، فـاستيقظ مُحَطَّمًا من الخوف، وضعيفًـا كـالطفل. بزغ الفجـر، واخترقـت سـهام أشعته ستائر الغرفة .

كـان شعر «إيفـاريست» ينسـدل على جبهته، ويغطـى عينيه بغـلالة سوداء . «إيلودى» تجلس فى مقدمة السرير، وتبعد برِقَّة خصلات شعره. كانت تنظر إليـه، هذه المرة بحنان الأخت، وبمنديلها كـانت تجفف العرق البارد المتساقط على جبهة المسكين.

عندئـذ تـذكـر المشـهـد الجميل فى مسرحيـة «أوريسـت» التى كتبهـا «يوريبيـد» والذى رسم منها لـوحة، وإذا استطاع أن يُنجـزها فستُعتبر عمله الفنى الكبير، وهو المشـهد حيث كانت البائسة «إليكترا» تجفف الزَّبَد الذى يُلَوِّث فم أخيها .

وكان يعتقد أيضًا أنه يسمع صوت « إيلودى » تقول :

---

(١) الأيمونيد ، أو الأنيميد : المتسامحات ، وهى قصة إغريقية قديمة ، وموضوعها فرار « أُوريست » بعد قتل أُمِّه ، ثم استغفاره وعفو الآلهة عنه ، وبراءته أمام المحكمة – كما جاء فى الأساطير .

– « اسمعنى يا أخى العزيز، عندما كانت الجِنِّيَّات تُيَسِّرْن لكَ أن تكون حر نفسك ...».

وكان يفكر، ويقول فى نفسه :

– « ومع ذلك فلم أكن قط قاتِلَ أُمِّى ، بل بالعكس، – وذلك عن بِرٍّ بنوىٍّ – أرَقْتُ الدماء النجسة لأعداء وطنى ».

* * *

لم ينته الأمر بالنسبة إلى مؤامرة السجون . تسعة وأربعون متهمًا يملئون المقاعد داخل المدرج. كان «موريس بروتو» يشغل أعلى درجة على اليمين، مقعد الشرف. وكان يرتدى «الريدينجوت» الأحمر الذى يميل إلى السواد، والذى نظفه جيدًا بالفرشاة فى اليوم السابق، مُرَتِّقًا من ناحية الجيب الذى تسبب كتاب «لوكريس» فى تلفه .

وإلى جانبه السيدة «روشيمور» مُتَزينة مُتَجملة، باهرة مُخِيفة. وكان يجلس بينها وبين الفتاة «أثينايس» الأب «لونجيمار»، والذى كان يجد فى سجن النساء نضارة الشباب .

وعلى مقاعد المدرج قامت شرطة الدرك بتكدس أناس لا يعرفونهم هؤلاء، وربما لا يعرف بعضهم بعضًا. الجميع من المتواطئين، من البرلمانيين، وعمال اليومية، والنبلاء السابقين، وبورجوازيين وبورجوازيات.

المواطنة «روشيمور» لمحت «جاميلان» على مقعد المحلفين، بالرغم من

أنه لم يكن يرد على رسائلهـا العاجلة ورســائلها المتكررة، تعشمت فى أن يُرسل إليهـا نظرة، راجية أن تكون بالنسبــة إليه جميلة ومـؤثرة، ولكن نظرة القاضى الشاب الباردة قد حرمتها من أى وهم .

قــرأ كاتب الجلســة قـرار الاتهام الذى كان مُختصرًا بالنسبــة إلى كل متهم، ولكنه كان طويلا بسبب عددهم. كان يستعرض المؤامرة بإسهاب، والتى كانت مُـدَبَّرة فى السجون لإراقة دمــاء ممثلى الأمة وشعب باريس، وإغراق الجمهورية بها، والذى يُحَدِّد مصير كل واحد منهم :

– من أكبر المفســدين الذين قامــوا بهذه الدسيسة الكريهة هو المدعــو «بروتو»، أحد أفراد الديزيليــت السابقين، والذى كان مُحصلَ ضرائب فى عهد الطاغية. هذا الشخص الذى عُرِفَ بوضوح – خاصة فى عهد الطُّغيان – بسلوكه المنحل، دليل مؤكد على أن الفجور والعاداتِ السيئة هى من ألد أعداء الحرية وسعادة الشعوب، وفى الواقع أن هذا الشخص ، بعد أن بَدَّد الأموال العــامة، وأنفق جــزءًا كبيرًا من قوت الشعب على المجــون،اجتمع بمحظيتــه السابقــة السيــدة «روشيمــور» ليُراسِلَا المهــاجــرين ويُخْبِرَا الأجانبَ فى الخارج بحالتنا المالية، وتحركات جيوشنا، وتقلبات الرأى .

« إن «بروتو» الــذى كـــان يعيش فى هذا الــدور لهو شخص يستحق الازدراء ، فقــد كــان يعيش مع زوجة غير شرعيــة، عــاهرة، التقطهــا من الوحل من شارع «فرومانتــو» – الفتاة «أثينايس» – واستغلها بسهولة للتـآمــر ضــد الثورة بصرخــات سفيهــة، وتحريضــات وقحــة. وبعض أحـــاديث هذا الرجل المشئوم، ســـوف توضح لكم هــذه الأفكار الدنيئة

وهدفها الفـاسد، فهـو عندما كان يتحـدث عن المحكمة الوطنيـة المعقودة اليوم لمعـاقبته كـان يقول بوقـاحة: محكمـة الثورة تشبـه مسرحية من مسرحيات وليم شكسبير، الذى يضيف إلى المشاهد الدامية مشاهد هزلية مُبتذلة ».

وكان دائمًا يمتـدح الإلحاد كأضمن وسيلة تذل الشعب، وتلقى به فى أحضان الفسق .

وفى سجن البـوابة الرئيسيـة حيث كـان مُحتَجـزًا كـان يرثى لحال الانتصـارات العظيمة لجيـوشنا كما يرثى لأسـوإ الكوارث، ويجتهـد فى إلقـاء الشك حـول أكثـر قـادتنا وطنيـة، بـأن ينسب إليهم أهدافَ خنق الحريات . وقد قال بلهجة قاسية :

اسمعـوا تلك الكلمـة القـاسيـة، والتـى يتردد القلم فى أن ينسخهـا : «انتظروا حتى يأتى يوم يبتلعكم فيه أحـد هؤلاء الذين يحملون السيوف لحمايتكم، سوف يبتلعكم مثلما يبتلع طائـر الكُرْكى «الضفادع» كما جاء فى الأسطورة ».

واستمر قرار الاتهام فى السرد هكذا :

«إن السيدة «روشيمـور» النبيلة السابقة، زوجـة غير شرعية لبروتو، وليست أقـل منه إثمًا، وليست فقـط لأنها كـانت تتراسـل مع الخارج، وكـانت أجيرة لبيت نفسه، ولكن لأنها منضمـة إلى رجال مـرتشين، مثل «جوليان» (من تولوز) و «شابو»، وكـانت أيضًا لها علاقات مع البارون

السابق «دى باتز»، فقد كانت تدبر مع هذا الفاجر شتى وسائل التدليس، ويعملان معًا على خفض قيمة أسهم شركة الهند، يشتريانها بأبخس الأسعار، ثم يرفعان أسعارها بوسائل تدليسية تتعارض مع الأولى، وبهذا تتبدد الثروة الخاصة والثروة العامة .

وسُجِنَت فى سجن «بورت – ليبر»[1]، وفى سجن النساء واستسلمت لمحاولات رشوة حيال القضاة والمحلفين .

«لويس لونجيمار» نبيل سابق، و «كابوشينى» سابق، ومنذ زمن طويل له تجارب فى الأعمال المُشينة وفى الجريمة قبل أن يرتكب أعمال الخيانة، وهو موجود هنا ليُجيب عليها. وعاش فى مخالطة مُخْجِلة مع الفتاة « جورسى » – وهى المُسماة « أُثينابيس » – تحت سقف واحد ، ومعهم «بروتو»، فهو شريك هذه الفتاة وهذا النبيل السابق.

وطوال مدة حبسه فى البوابة الرئيسية لم يتوقف يومًا واحدًا عن كتابة أهَاجٍ عدائية للحرية وللسلام العام، ومن الصواب القول – بصدد «مارت جورس» المدعوة «أثينابيس»: إن العاهرات هن أعظم خطرًا على التقاليد العامة، حيث يُسِئْنَ لهذه التقاليد، وهن شَيْنٌ وسُبَّة للمجتمع الذى يفضحنه . ولكن ما الفائدة من الاسترسال فى جرائم كريهة اعترفت بها المتهمة دون حياء ؟...».

وانتقل الاتهام بعد ذلك بعرض الخمسة والأربعين متهمًا الآخرين،

(١) كان يطلق عليه (بورت – رويال) سابقًا .

الذين لا يعرفهم «بروتو»، ولا الأب «لونجيمار»، ولا المواطنة «روشيمور»، إن لم يكونوا قد رأوا الكثيرين منهم فى السجون، والذين كانوا مشمولين مع الأوائل فى «هذه الدسيسة الدنيئة التى لم تتحدث حوليات الشعوب عن مثيلتها».

وينتهى الاتهام بالحكم بالإعدام لجميع الآثمين.

كان «بروتو» هو أول من تم استجوابه :

– هل تآمرت ؟

● كَلَّا، لم أتآمر ، كل ما ورد فى قرار الاتهام الذى استمعت إليه الآن خطأ .

– هكذا ، إنك تتآمر الآن أيضًا على المحكمة .

ثم انتقل الرئيس بعد ذلك إلى السيدة «روشيمور» التى أجابت باعتراضات يائسة، وبدموعٍ وجدلٍ فارغ .

أمَّا الأب «لونجيمار» فقد سلَّم أمره لله، ولم يكن معه حتى الدفاع المكتوب. وأجاب على الأسئلة التى وُجِّهت إليه بروح الزاهد، ومع ذلك عندما سماه الرئيس «كابوشينى» احتد الرجل العجوز وقال له :

– أنا لست «كابوشينى»، أنا راهب من المذهب «البارنابى» .

أجاب الرئيس بلهجة طيبة :

– ليس هناك فرق .

نظر إليه الأب «لونجيمار» مُتَبِّرمًا .

– لا يمكن إدراك خطأٍ غريب، بأن نخلط بين «كابوشيني» وبين راهب من المذهب البارنابى الذى يستمد دساتيره من المُبَشِّر « سان بول » نفسه.

وانفجرت ضحكات وهمهمة بين الجمهور.

واعتبر الأب «لونجيمار» هذه السخرية علامات إنكار، وأعلن أنه سوف يموت عضوًا لهذا المذهب، مذهب «سان بارنابيه»، والذى ينطبع فى قلبه.

سأله الرئيس : أتعترف بأنك تآمرت مع الفتاة «أثينايبس» والتى وهبتك علاقات حب حقيرة ؟

عندما سمع الأب «لونجيمار» هذا السؤال رفع بصره إلى السماء بنظرة مؤلمة، وأجاب بهدوء يُعبر عن دهشة روح بريئة، ووقار راهب يخشى أن يتفوه بكلمات تافهة.

ويسأل الرئيس الفتاة «جورسى» : أتعترفين بأنكِ تآمرت مع «بروتو» ؟

أجابت بلطف :

« السيد «بروتو» – على ما أعلم – لم يصنع إلَّا الخير، إنه رجل يجب أن يحذو حُذوه الكثيرون، ولا يوجد مَنْ هو أفضل منه، ومن يقول عكس ذلك فهو مخطىء، وهذا كل ما عندى لأقوله.

وسألها الرئيس عَمَّا إذا كانت تعترف بأنها عاشت مع «بروتو» فى

علاقة غير شرعية، وكان لابد من تفسير هذا المصطلح لها، حيث إنها لم تسمعه من قبل، ولكنها بمجرد أن فهمت ما الذى يرمى إليه أجابته بأن الأمر لا يتوقف إلا عليه، ولكنه لم يطلب ذلك منها .

ضحك كل من فى المنصات، وهدَّد الرئيس الفتاة «جورسى» بأنه سوف يأمر بإخراجها من الجلسة إذا أجابت مرة أخرى بأى نوع من أنواع التهكم .

حينئذ وصفته بأنه صرصور شاحب الوجه، وزوج مخدوع، ثم أمطرته هو والقضاة والمحلِّفين بسيل من أقذر الشتائم، حتى أن شرطة الدرك قاموا بإخراجها من القاعة.

ثم استجوب الرئيس بعد ذلك بقية المتهمين، بالنظام الذى كانوا جالسين به على مقاعد المدرج. وأجاب أحد المتهمين ويسمى «نافيت» بأنه ما كان فى وسعه أن يتآمر فى سجن، نظرًا لأنه لم يُقم فيه سوى أربعة أيام. وأخذ الرئيس فى الاعتبار هذه الملاحظة، وطلب من المواطنين المحلِّفين أن يأخذوها هم أيضًا فى اعتبارهم .

وآخر يسمى «بيلييه» أجاب نفس الإجابة، ووجه الرئيس نفس الملحوظة لصالحه إلى هيئة المحلفين. وفُسرت شهامة القاضى على أنها نتيجة لعدل يستحق المديح، أو كجزاء واجب على النميمة. وجاء الدور على نائب المدعى العام ليتحدث :

– هل من الثابت أن «موريس بروتو»، و «لويز روشيمور»، و «لويس لونجيمار»، و «مارت جورس» وشهرتها «أثينايس»، و «أوزيب

روشيه»، و «بليز جيتون فابيليه»، و «مارسيللين دى كورتيس»، إلخ.. قد دبروا دسيســـة وســائلهــا الاغتيــال، والمجــاعـــة، وتزييف الحوالات الحكومية، وصُنع نقــود مزيفــة، وإفساد الأخــلاق والفكر العام، وإثارة السجون، بهدف الحرب الأهلية، وتفكيك الإنابة العامة، وإعادة المَلَكية ؟

وانسحب المحلفــون إلى غرفــة المداولات، وأجمعــوا على تأكيد كل مــا يخص جميع المتهمين، بــاستثناء كُلٍّ مــن «نافيت» و «بيلييـــه» اللَّــذَيْنِ اعتبرهما الرئيسُ ثم المدعى العام خارجَ القضية.

وأصدر « جاميلان » قرار الاتهام بهذه الديباجة :

– إن الجُرْمَ الذى ارتكبـــه المتهمــون أمــر جَلِىٌّ وأوضحُ مــن النهــار، وتقتضى سلامة الأُمَّــة عقابهم، ويجب عليهم أن يتمنوا مَوْت أنفسهم، أو عذابهم كوسيلة وحيدة للتكفير عن جرائمهم.

وينطق الــرئيس بالحُكم فى غيـــاب الــذين يخصهم. وفى هــذه الأيام العظيمــة – على عكس مــا يتطلبه القــانون – لا يُنادَى على المتهمين ليُقــرَأ عليهم الحُكم، وذلك لأنه كان يُخْشَى بأس عدد كبير جدًّا من الأشخاص.

خــوف لا جــدوى منه، طالما أن انقيـــاد الضحــايا كــان حينئذ عظيمًا وعامًّــا! نزل كاتب المحكمــة ليقرأ قــرار الاتهام الذى سُمِعَ فى هذا الهدوء والصمت اللذين يجعلان من المتهمين – متهمى شهر بريريال – كأشجار حان قطعها .

المواطنة «روشيمــور» صَرَّحَتْ بأنها حــامل. وكُلِّفَ أحــد الجراحين –

وهو نفس الوقت مُحَلِّف – بالكشف عليها. ونُقلت إلى زنزانتها. وتتهد الأب «لونجيمار» وقال :

– آه ! هؤلاء القضاة، حقًّا هم رجال جديرون بالشفقة، وحالتهم النفسية يُرْثَى لها. إنهم يخلطون كل شىء، ويخلطون بين البرنابيين والفرنسيسكان .

وكان حُكم الإعدام يجب أن ينفّذ فى نفس اليوم عند «لاباريير دى لاترون – رانفيرسيه». تم الإعداد لتنفيذ حكم الإعدام، قُضيت الحاجة، وقُوِّرَ القميص، وقُصَّ الشَعْر، وكان المحكوم عليهم فى انتظار الجلاد، يقبع كالبهيمة فى القاعة الصغيرة، ويفصله عن غرفة قلم الكُتَّاب حاجز زجاجى .

عند وصول الجلاد ومساعديه كان «بروتو» يقرأ «لوكريس» فى هدوء، فوضع علامة على الصفحة التى بدأها، وأغلق الكتاب، ووضعه فى جيب «الريدينجوت» وقال للراهب «البارنابيتى» :

– أبى المبجل ، هذا ما كنت أخشاه، ذلك ما لم أستطع أن أقنعك به. سوف ننام (نحن الاثنان) نومتنا الأخيرة، ولن أستطيع أن أسحبك من كمك وأوقظك لأقول لك :

«أرأيت ؟ ليس عندك لا شعور ولا معرفة، فأنت فاقِد الحياة. إن ما يَعْقُبُ الحياة مثل ما يسبقها ».

أراد أن يبتسم، ولكنَّ أَلَمًا قاسِيًّا استولى على قلبه وأحشائه، وأصبح أقرب إلى أن تخور قواه. ومع ذلك فقد استطرد قائلًا :

– أبى، سترى ضعفى بسهولة، إننى أحب الحياة ولن أتركها أبدًا بلا ندم.

أجاب الراهب بلطف : احترس، فأنت أشجع منى، ومع ذلك فالموت يزيد من اضطرابك. ماذا يعنى ذلك؟ إنْ لم أكن أرى الضوء فأنت لن تراه مرة أخرى !

قال « برونو » :

– هذا احتمال قائم أيضًا ، فأنا أندم على الحياة لأننى تمتعتُ بها أفضل منك أنت الذى يساويها بالموت !

قال الأب «لونجيمار» وهو شاحب : هذه الساعة خطيرة، فليساعدنى الله ! من المؤكد أننا سوف نموت بدون إغاثة. كان يجب علىَّ ألَّا أتلقى سِرَّ القربان بفتور، وبقلب كَنُودٍ(١)، حتى تضنَّ السماءُ علىَّ فى اليوم الذى أحتاج إليها فيه. إننى فى حاجة مُلحّة إليها .

كانت العربات تنتظر، وتُكدس فيها المُدانون وأيديهم مُقيدة. وتُرفَع السيدة «روشيمور» – والتى لم يعرف الجَرَّاح حَمْلَها – على إحدى العجلات المزدوجة. كانت عندها بقية من جهد لتراقب الجمع الغفير من المتفرجين، وتتعشم حيث لا ينفع العشم، عسى أن تجد من بينهم منقذين، وكانت عيناها تتضرعان .

كان الحشد أقل عن ذى قبل ، والتصرفات الفكرية أقل عنفًا، فقط

---

(١) الكنود : العاصى ، والجاحد للنعمة .

بعض النسوة يهتفن : «إلى الموت!»، أو يَسْخَرْنَ من المُساقين إلى الموت. والرجال يرفعون أكتافهم ، ويلفتون رءوسهم وهم صامتون، سواء عن خوف أو عن احترام للقوانين.

وسرت رعشة بين الجماهير عندما مرت «أثينابيس» أمام الشباك، فكان لها مظهر طفلة .

انحنت أمام الراهب، وقالت :

– سيدى الراهب ، امنحنى المغفرة .

تمتم الأب «لونجيمار» فى وقار شديد بالحديث السرى ، وقال :

– أى بُنيتى ! لقد هَوَيْتِ فى قلاقل عظيمة، ولكن ليس فى وسعى أن أُقَدِّمَ إلى الله قلبًا أصفى من قلبك !

وصعدت – فى خفة – إلى عربة المحكوم عليهم، وهنالك ينتصب نصفها الأعلى ورأسها الطفولى أيضًا فى كبرياء ، وصاحت :

– عاش الملك !

وأشارت إلى «بروتو» إشارة خفيفة بأنه يوجد مكان إلى جوارها. وأعان «بروتو» الراهب البارنابى على الصعود، واتخذ مقعده بين الراهب وبين الفتاة البريئة.

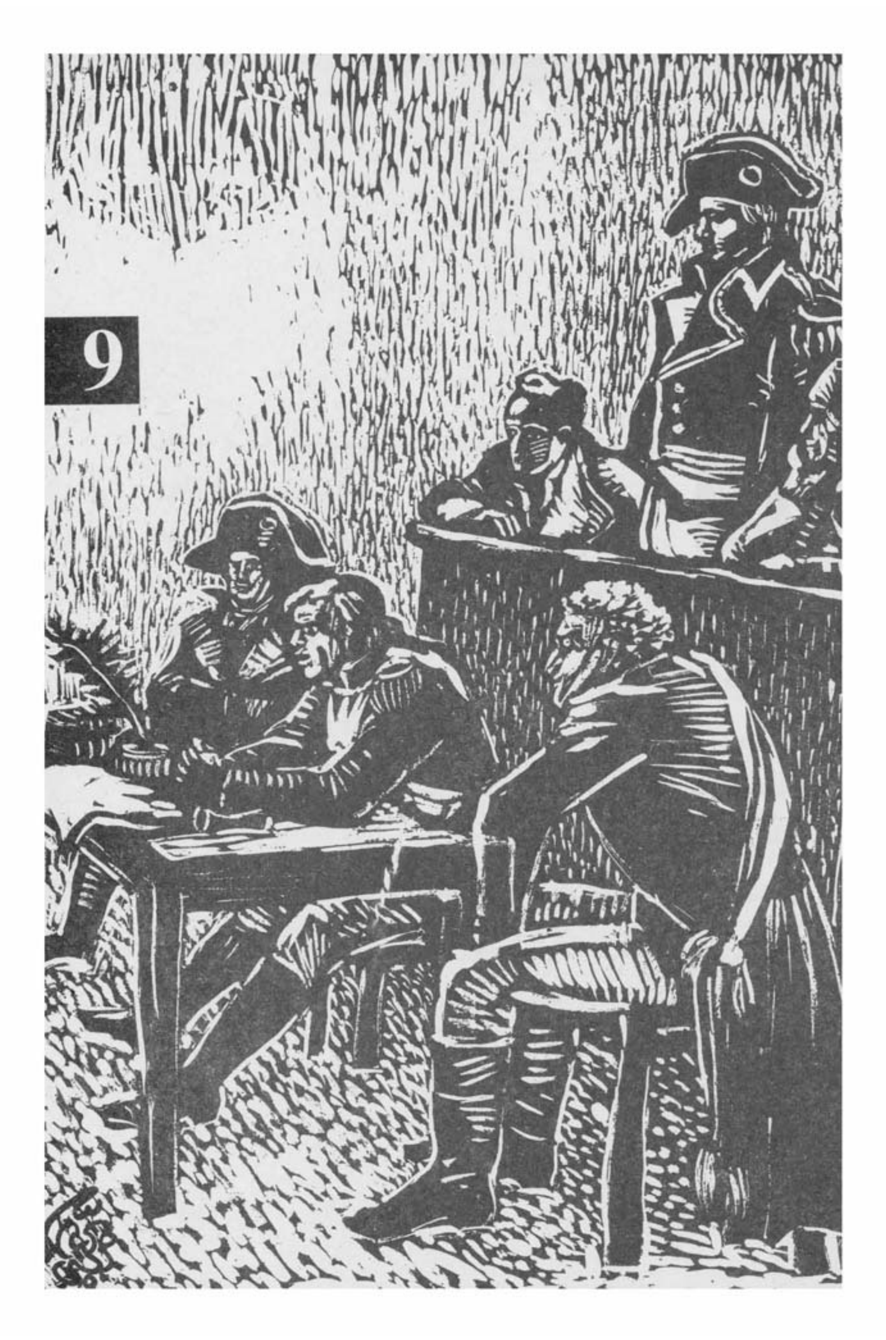
وقال الأب «لونجيمار» للفيلسوف الأبيقورى :

– سوف أطلب منك جميلًا : هذا الرب الذى لم تؤمن به بعد ، صَلِّ له

من أجلى، فليس هناك ما يؤكد أنك لست قريبًا منه أكثر مما كنتُه أنا نفسى .. يمكن اتخاذ القرار فى لحظة من أجل أن تصبح الطفل المتميز عند الله، ولا يحتاج ذلك إلَّا إلى لحظة.. سيدى ، صَلِّ من أجلى .

وبينما كانت عجلات العربة تركض على بلاط الضاحية كان الراهب يقرأ من قلبه وبشفتيه دعوات وصلوات المحتضرين عن ظهر قلب .

وكان « بروتو » يتذكر شعر الشاعر عن الطبيعة : « يحدث هذا عندما لا نكون...». الكل مقيد ويهتز فى العربة الشائنة ، كان يحتفظ بمظهر هادىء كأحد هموم رفاهيته. وإلى جانبه «أثيناييس» فخورة بأنها ستموت مثل ملكة فرنسا، وتنظر إلى هذا الجمع نظرة استعلاء ، ورجل الأعمال العجوز يتأمل – كخبير – عُرقوب السيدة الصغيرة الأبيض ، ويندم على ضوء النهار .


9

9

بينما كانت عربات المحكوم عليهم تسير نحو ميدان «لاترون – رانفيرسيه» – يحيط بها شرطة الدرك – وتصطحب إلى الموت كُلًّا من «بروتو» والمتواطئين معه، كان «إيفاريست» جالسًا على أحد المقاعد فى حديقة «التويليرى»، كان ينتظر «إيلودى». كانت الشمس تنحدر نحو الأفق، وتُغرق بسهامها المشتعلة أجمة القسطل.

وعند سور الحديقة، تمثال الإلٰهة «رنومه»[1] وهى على حصانها المُجَنَّح تنفخ فى بوقها الأزلى. وبائعو الجرائد يصيحون : نصر «فلوروس»[2] العظيم.

نعم، صَدَقَ « جاميلان » : « النصر لنا، ونحن دفعنا ثمنه » .

كان يُشاهد القادة الأشرار يَجُرُّون ظلالهم مذمومين فى التراب الدامى لهذا الميدان، ميدان «لاريفوليسيون»، حيث هلكوا. وابتسم بفخر، ظانًّا

(١) آلهة رمزية كما جاء فى الأساطير .

(٢) فلوروس : من مدن بلجيكا، انتصر فيها جوردان على النمسويين سنة ١٧٩٤ .

أنه دون القسـوة التى كـان له فيها نصيب لَقَضمت الخيـول النمسـاوية اليوم قشرة هذه الأشجار.

وكان يصيح فى داخله :

«أيها الْهَوْل الشـاقى ، أيها الإرهاب المقدس ! فى العـام الماضـى فى عصر مشابه، كان عندنا مدافعون عن أبطال مهزومين كالأسمال؛ أرض الوطن كانت تحت الغزو، وثُلثا الأقاليم فى ثورة. والآن، جيوشنا جيدة التجهيز، جيدة التثقيف، يقودها قادة مهرة، يُبادرون بالهجوم، وعلى أتم استعداد لإحراز الحرية للناس.

ساد السلام جميع الأراضـى بـالجمهورية.... أيها الهول الشاقى ! أيها الإرهاب المقدس ! أيتها المقصلة المحبوبة ! العام الماضـى – فى وقت مُشابه – كانت الجمهورية مُمزقة بالأحزاب، وأُفعوان الفيدرالية يُهدد بالتهامها، والآن الوحدة اليعقوبية تبسط على الإمبراطورية قوتها وحكمتها ...».

ومع هذه الحالة فقد كـان مُغتمًّا، وظهرت تجعيدة عميقـة على جبهته، كـان يشعـر بمرارة فمـه، كـان يفكر :«كنا نقـول : النصر أو الموت ، كنا مُخطئين، لأنه كان يجب أن نقول : النصر والموت ».

أخذ «جاميلان» ينظر حوله. الأطفـال كانوا يعملون أكوامًا من الرمل. والمواطنات جـالسات على مقـاعـدهن الخشبية تحت الشجـر، يُطرزْنَ أو يُحيكْن. والمارَّة كانوا يرتدون سراويلَ بأناقـة غريبة، يُفكرون فى أعمالهم أو فى مَسَرَّاتهم، وهم عائدون إلى مقارِّ إقامتهم .

كان « جاميلان » يشعـر بأنه وحيدٌ بينهم ، فهو ليس من مواطنيهم ، ولا من مُعاصريهم . إذن ماذا كـان يجرى ؟ كيف – بعد حماس السنوات الجميلة – تتعاقب اللامبـالاة والإرهاق ، وربما الاشمئزاز ؟ من الواضح أن هؤلاء الناس لا يريدون أن يسمعوا شيئًا عن محكمـة الثورة، وأداروا ظهورهم للمقصلة ، وقـد أصبحت مزعجـة فى ميدان «لاريفـوليسيون»، فنُقلت إلى ضـاحية «أنطوان».

ويتكرر نفس الوضـع عند مرور العـربات، ونفس التمتمة، ويُقال : إن بعض الأصوات تصيح قـائلة : «كَفَى !»، كفى ، عندما يكـون هناك مزيد من الخونة والمتـآمـــرين ! كَفَى ، عندمـا يكون لابـد من تجديد اللجـان، وتصفيـة الجمعيـة الوطنية ! كفـــى ، عندما يُـدَنِّس الفاسقـون السمعـة الوطنية ! كفى ، عندمـا نتأمل فقدان العدل فى المحكمة الثـورية ! لأنه أمر رهيب أن نفكر فيـه، وإفراط حقيقــى ! «فوكييـه» نفسـه دبَّر مؤامــرات، وكـان ذلك من أجل تدمير «مـاكسميليـان» الذى ضـحى من أجله ببـذخ، بسبع وخمسين ضـحيـة سِيقُـوا إلى الموت بالقميص الأحمر، قميص قتلة آبائهم .

إلى أى شفقة إجرامية كانت تستسلم فرنسا ؟ إذن يجب إنقاذها رغمًا عنهـا، وإذا صـاحت بطلب العفـــو تُصم الآذان وتُضرب . يا للأسف ! إن المصائر قضت بهذا : « الوطن يَلْعَنُ مُنقذيه ، فَلْيَلْعَنَّا ، وَلْيُنْقَذْ هو ! ».

« من النادر التضحية بضحـايا مغمورين، وأرستقـراطيين، وماليين، وصحفيين، وشعراء، أو يُقضى على رجال مثل «لافوازييه»، و «روشيه»،

و «أندريه شينييـــــه».. يجب ضرب هؤلاء الفَجَـــرة من ذوى السطوة.. وهؤلاء أيديهم ممتلئة ذهبًا، وملوثة بالدماء، كانوا يعدُّون العُدّة لتخريب «لامونتــانى» وعائلات «فـوشيه»، و «تاليان»، و «روفير»، و «كـاريبه»، و«بوردون».

لابد مـن تخليص الدولـة من هؤلاء الأعـــــداء . ولو انتصر «هيبير» لانقلبت الجمعية الوطنية، ولاندفعت الجمهورية نحو الهلاك، ولو انتصر كل من «دانتون» و «ديمولان» لسَلّمت الجمعية الوطنية – دون امتيازات – الجمهورية إلى الأرستقراطيين، وإلى المضاربين بالأسهم، وإلى القادة .

وإذا كان «تـاليان» أو «فـوشيه» وغيرهما وحوشًــا متعطشة للـدماء والسلب والنهب أو أفلحوا لغرقت فرنسا فى الجريمـة والرذيلـة ... أنـت يا «روبسبير» نائم، وهناك مجرمون سكارى من الفزع والرعب يفكرون فى موتك، ودفن الحرية.

يا «كــوثـون» ، ويا «ســان جــوست»، كم تـوانيتما فى الإبلاغ عن المؤامرات.

«ماذا ! الدولة القديمـة، الوحش الملكى يُؤَمِّن إمبراطوريته بأن يُلقى فى السـجن فى كل عـام أربعمائة ألف رجـل، ويشنق منهم خمسة عشر ألفًـا، ويُعـذب منهم ثلاثة آلاف، وعلى الجمهـورية كـذلك أن تُضَحى ببضعـة مئات من الرءوس لأمنها، وسلطتها !

فلنغرق فى الدماء، ولننُقذ الوطن ...»..

وبينما كان سابحًا هكذا فى تخيلاته ، إذا بإيلودى تجرى نحوه شاحبة ومنهوكة :

– «إيفاريست»، ماذا عندك لتقوله لى ؟ لماذا لم تأتِ إلى «لامورباناتر» فى الغرفة الزرقاء ؟ لماذا طلبت منى الحضور هنا ؟

● لأودعكِ الوداع الأخير .

فتمتمت بأنه ليس فى وعيه ، ولا تستطيع أن تفهم ...

أوقفها بحركة صغيرة من يده ، وقال :

– « إيلودى »، لا أستطيع أبدًا أن أقبل حبك .

● صَهْ يا « إيفاريست » ، اسكت !

وطلبت أن يذهبا بعيدًا ، فهنا الناس يراقبونهما ويسمعونهما . سارا حوالى عشرين خطوة ، ثم استطرد بهدوء شديد :

– لقد ضحيت للوطن بحياتى ، وبشرفى ، وسوف أموت دنيئًا ، ولن أترك لكِ أيتها البائسة سوى ذكرى كريهة ....

أيحبوننى ؟ هل يمكن أن يحبنى امرء بعد ذلك ؟... وهل أستطيع أن أُحَبّ ؟

وتقول له إنه مجنون ، وإنها تحبه، وستحبه دائمًا ، وإنها أصبحت محتدمة مخلصة، ولكنها كانت تشعر بأنها مثله على ما يرام، وتشعر أكثر منه ، بأنه على حق فيما يقول ، وأنها كانت تصارع الحقيقة .

واستطرد :

– أنا لا ألوم نفسى على شىء ، ما فعلته سأفعله ثانية. لقد جعلتُ من نفسى لعنة من أجل وطنى، إننى ملعون. لقد أقصيتُ نفسى عن الإنسانية، ولن أعود إليها أبدًا . لا ! المهمة الكبرى لم تنته . آه ! الغُفران ، السماح !..... هل الخونة يُسامحون ؟ المتآمرون، هل هم من الغافرين؟ الفاسقون قتلة الآباء يتزايدون بلا توقف، وهم يخرجون مِن تحت الأرض، ومنهم مَن يهرع من كل حدودنا، ومنهم شباب، من أفضل ما هلكوا فى جيوشنا، وشيوخ، وأطفال، ونساء بأقنعة البراءة والطهارة والعفو. وعندما راحوا ضحية لم يوجد مثلهم . ترين جيدًا أننى لابد أن أَعْدِل عن الحب، وعن كل بهجة، وعن كل ملذات الحياة، بل عن الحياة نفسها.

كانت «إيلودى» معتادة على تذوق اللَّذات الهادئة منذ أكثر من يوم ، وكانت تخشى أن تمزج – تحت تأثير قبلات عاشق محزون إلى الإحساسات الشهوانية – صورًا دامية، فلم تُجِبْ عن شىء قط، و«إيفاريست» ارتشف صمت السيدة الصغيرة كأنه كأس مُر المذاق .

– أنتِ تدركين ذلك جيدًا يا «إيلودى»، نحن أهلكنا أنفسنا، عَمَلُنا يلتهمنا، أيامنا وساعاتنا عبارة عن سنين. أخالنى عشت قرنًا من الزمان . انظرى إلى هذه الجبهة .. هل هى جبهة حبيب يحب ؟!....

● «إيفاريست»، أنتَ أسيرى، سأحتفظ بكَ، لن أرد لك حريتك .

كانت تعبر عن نفسها بلهجة الضحية. أَحَسَّ بها ، وهى نفسها تشعر به .

- «إيلودى»، هل فى إمكانكِ أن تشهدى - ذات يوم - بأنى عشتُ مخلصًا لواجبى، وأن قلبى كان مستقيمًا، ونفسى طاهرة، وأنى لا أملك أى عاطفة أخرى سوى الخير العام، وأننى وُلدت حساسًا وحنونًا؟ ستقولين : «لقد أدى واجبه»؟ بل لا لن تقوليه . ولن أطلب منك أن تقولى ذلك .

فلتُدَمِّرى ذكراىَ ! إن مجدى فى قلبى، والخجل يحيط بى .

إنْ أحْبَبْتِنِى فاحتفظى باسمى فى صمت أزلىّ .

وفى هذا الوقت كان هناك طفل فى الثامنة أو التاسعة من عمره يلعب بطوق، وارتمى فى هذه اللحظة بين ساقى «جاميلان»، فرفعه بين ذراعيه وقال :

- أيها الطفل الصغير، ستكبر وتترعرع حرًّا ، سعيدًا، وستدين بذلك إلى الحقير «جاميلان». إنى كنت كاسرًا من أجل أن تكون سعيدًا ، وكنتُ قاسيًا من أجل أن تكون أنت طيبًا، وكُنتُ بلا شفقة ولا رحمة من أجل أن يأتى غدٌ يتعانق فيه الفرنسيون ويذرفون دموع الفرح .

وضمه إلى صدره وهو يقول له :

- أيها الصغير ، عندما تصبح رجلًا ستدين لى بسعادتك وبراءتك، وإن سمعت اسمى دومًا فسوف تمقته. ثم أَنْزَلَ الطفل على الأرض،

فانطلق ليحتمى بتنورة أمه التى هرعت إليه لتخلصه. هذه الأم الصغيرة، كانت جميلة، ولها رقــة أرستقراطية بثوبها الأبيض، فــاصطحبت طفلها وتظاهرت بالاستعلاء .

رمق « جاميلان » « إيلودى » بنظرة شرسة وقال :

– لقد قَبِلْتُ هــذا الطفل، وربما آمُرُ غدًا بــإعدام أُمه بالمقصلــة . وابتعد بخطى سريعة .

ظلت «إيلودى» بلا حــراكٍ لبعض الوقــت، نظراتها ثابتــة ومسبلة، ثم اندفعت فجأةً تتبع خطى عشيقها، غاضبةً، صاخبةً، كأنها إحدى كاهنات باكــوس (إلٰه الخمر)، أمسكت به كأنها تريد تمزيقــه، وصاحت بصــوت خافت مختنق بالدم والدموع :

– حسنًا ! أنا أيضًــــا يا حبيبى، أرسِلْنِى إلى المقصلة، أنا أيضًــــا، مُــرْ بفصل رأسى عن جسدى !

وعند تمثُّلها فكرة السكين على رقبتها، اهتز كيانها رهبة وشهوة .

* * *

بينما كانت شمس شهر ثيرميدور[1] تغرب فى لون أرجوانى دام كان «إيفاريست» شاردًا، مغتمًّا ومهمومًــا، يطوف فى حدائق «ماربوف» التى أصبحت مِلْكية وطنيــة، ويرتادها الفرنسيــون فى أوقات فــراغهم، وكان

---

(١) الشهر الحادى عشر من السنة الجمهورية .

يُتَنَاوَلُ فيها الليمونادة والمثلجات، وكانت توجد خيول خشبية، وأماكن للرماية من أجل الشباب الوطنى .

وكان تحت إحدى الأشجار أحد «السافوبارد»، ولَدٌ صغير يلبس ثوبًا رثًّا، ويرتدى على رأسه قبعة سوداء ، يُرقِّص يربوعًا (حيوان من القوارض)، على الأنغام الحادة لقيثارته .

وكان هناك شاب ما زال فى مقتبل العمر، رشيق، يرتدى زيًّا أزرق اللون، مُعفَّر الشعر، وبصحبته كلب كبير، توقف ليستمع إلى هذه الموسيقىَ الريفية .

«إيفاريست» تعرف على «روبسبير»، رآه شاحبًا، نحيفًا، ووجهه متصلبًا، تملؤه التجاعيد المؤلمة، فجال بخاطره :

« يا له من إعياء ! وكم من الآلام تركت بصماتها على جبهته ! كم هو شاق أن تعمل من أجل سعادة البشر ! فيم هو يفكر فى هذا الوقت ؟ نغمة الأرغول الريفية هل تلهى فكره عن هموم الأعمال؟ هل يفكر فى أنه تعاقد مع الموت، وأن الساعة قد قربت لتأخذه ؟ هل يتأمل فى أن يعود إلى لجنة الخلاص العام منتصرًا وقد انسحب منها متضجرًا من الفشل فيها مع «كوثون»، و «سان جوست»، بأغلبية عاصية؟ خلف هذا الوجه الغامض ما هى الآمال التى تضطرب ؟ أو ما هى المخاوف ؟».

ومع ذلك ، ابتسم «ماكسيمليان» للطفل ، وقال له بصوت رقيق، وبشهامة، بعض الأسئلة عن الوادى، والكوخ، وعن الأبوين اللذين

تركهما الصغير المسكين، ألقى إليه بقطعة نقد فضية، وواصل نزهته، وبعد عدة خطوات، عاد ليناديى على كلبه الذى عندما شم رائحة اليربوع ، كشّر عن أنيابه أمام اليربوع الذى انتصب شعره :

– برونت ! برونت !

ثم اختفى فى الممرات المظلمة .

لم يقترب «جاميلان» من المتنزه المنفرد احترامًا ، ولكنه عندما تأمَّل هذه الهيئة الرقيقة التى كانت تتلاشى فى جنح الظلام، وجه إليها هذا الرثاء العقلى.

«لقد رأيتُ حزنك يا ماكسيمليان»، وأدركت فكرك، كآبتك وإرهاقك، وحتى هذا التعبير عن الخوف المطبوع فى نظراتك».. «كل ما فيك يقول : «فَلْيَنْتَهِ الإرهاب، وليبدأ الإخاء ! أيها الفرنسيون ، كونوا متحدين وفاضلين وطيبين، وأحبوا بعضكم ...».

« إيه ، حسنًا ! سوف أساعدك فى أهدافك، من أجل أن تستطيع بحكمتك وطيبتك، إنهاء الخلافات الأهلية، وإطفاء جذوة الحقد بين الإخوة، وأن تجعل الجلَّاد بُسْتانيًا لا يقطع إلَّا رءوس الكرنب والخس، وسوف أمهد أنا وزملائى فى المحكمة طرق الغفران، باستئصال شأفة المتآمرين والخونة .

سوف نضاعف من اليقظة والقسوة، لن يفلت منا أى آثم، وعندما يسقط آخر رأس من رءوس أعداء الجمهورية تحت السكين سوف

تستطيع أن تكون متسامحًا دون جريمة، وأن تعمل على سيادة البراءة والفضيلة على فرنسا، يا أبا الوطن !».

ابتعد النزيه ، ويلاقيه رجلان بقبعتين مستديرتين وسروال من «المانكان»، أحدهما مظهره شرس ، طويل ونحيف، له عين التنين، ويشبه «تاليان». تلاقيا معه عند منعطف الممر، رمقاه بنظرة عابرة، وتظاهرا بأنهما لا يعرفانه، ومضيا في طريقهما، وعندما أصبحا على مسافة بعيدة بحيث لا يسمعهما أحد، تمتما بصوت منخفض : إذن ها هو ذا، الملك، والبابا، والإله . و «كاترين تيون»[1] هي نبيته .

– ديكتاتور خائن ، طاغية ! وهو يأضًا من عائلة بروتس .

– ارتعد أيها الفاجر ! صخرة «طاربيان»[2] قريبة من «الكابيتول»[3].

الكلب برونت اقترب منهما ، فالتزما الصمت ، وحثَّا الخُطَى .

* * *

أنت نائم يا «روبسبير» ! الساعة تمر والوقت الثمين ينساب ...

أخيرًا ، في الثامن من «الثيرميدور»، في الجمعية الوطنية، نهض النزيه ليتحدث. أَو تطلعين مَرَّةً أخرى يا شمس يوم ٣١ مايو ؟ «جاميلان» ينتظر ويتعشم. إذن «روبسبير» سوف ينتزع مقاعد يزدريها هؤلاء

---

(١) كاترين تيون : عَرَّافة فرنسية (ت ١٧٩٤) .

(٢) طاربيان : صخرة في روما كان يُرْمَى المجرمون من فوقها .

(٣) الكابيتول : معبد وقلعة في روما .

المشرعون المذنبـون أكثر من الفيدراليين، وأكثـر خطرًا من دانتون ... لا ! ليس بعـد . قال : « لا أستطيع أن أقـرر تمزيق الحجـاب الذى يغطى هذا السر الخفى العميق للظلم، تمزيقًا كاملا » .

والصاعقـة انتشرت دون أن تصيب أى أحد من المتـآمرين، أخـافتهم جميعًا، ونذكـر منهم حوالى ستين – منذ خمسـة عشر يومًا – لم يجرءوا على النوم فى فراشـهم .

«مـارات» عَيَّن الخونة، أمّـا هو فكان يشير إليهم البنان. النزيه يتردد، ومنذئذ، هو المتهم....

وفى المساء، فى ردهة نادى، كانوا يتزاحمون فى القاعة، وفى الممرات، وفى الفناء. جميعهم هنا، الأصدقاء المرموقون، والأعداء الصامتون.قرأ عليهم «روبسبير» الحديث الذى استمعت إليه الجمعية الوطنية فى صمت رهيب، وصفق له اليعقوبيون تصفيقًا حادًّا .

قال الرجل : تلـك هى وصيتى بعد مماتى، وسوف تشـاهدوننى وأنا أشرب سم الشَّوْكران[1]، أشربه فى هدوء .

أجاب «دافيد» : أنا سأشربه معك .

– «الجميع ، الجميع» هكذا صـاح اليعقوبيون الـذين افترقوا دون أن يقولوا شيئًا .

وبينما كان موت العادل يُعَدُّ ، كان «إيفاريست» ينام نومًا كنوم الطلبة

(١) نوع من النباتات السامة، وبه قُتل سقراط .

فى حديقة الزيتون. وفى اليوم التالى، توجه إلى المحكمة حيث عُقدت الجلسة فى قطاعين، وكان القطاع الذى هو عضو فيه، يُحاكِم أحدًا وعشرين متهمًا بالتواطؤ فى مؤامرة «لازار»، وأثناء هذا الوقت وصلت الأخبار : «الجمعية الوطنية – بعد جلسة استمرت ست ساعات – أصددرت مرسومًا باتهام «ماكسيميليان روبسبير»، و «كوثون»، و «سان جوست»، مع «أوجيستان روبسبير» و «لوباس»، الذين طالبوا المشاطرة فى مصير المتهمين. نزل المنفيون الخمسة إلى حرم المحكمة ».

وعُلِم أن رئيس القطاع الذى يعمل فى القاعة المجاورة، المواطن «دوماس» أُلقى القبض عليه وهو على مقعده، وبينما استمرت الجلسة، سُمِعَتْ دقة الإنذار، ورن ناقوس الخطر .

تلقى «إيفاريست» وهو على مقعده من مجلس العموم أمرًا بالتوجه إلى دار البلديه ليشارك فى المجلس العام، وعند دق النواقيس والطبول أصدر قراره مع زملائه، وجرى إلى مسكنه يُقَبِّل والدته ويأخذ وشاحها .

كان ميدان « ثيونفيل » خاليًا ، والقطاع لم يجرؤ على أن يُعلن نفسه لا ضد ولا مع الجمعية الوطنية. كان الناس يُلامسون الأسوار، وينسابون فى الممرات، ويعودون إلى مساكنهم .

وعلى رنة ناقوس الخطر ودقة الإنذار، أجابت ضلف الشبابيك تتخبط مع صرير المصاريع .

المواطن «ديبون إينيه» اختبأ فى دكانه، والبواب «ريماكل» احتمى فى غرفته، و «جوزفين» الصغيرة تحتضن فى خوفٍ كلبها «موتون». المواطنة

الأرملة «جاميلان» تئن من غلاء المواد الغذائية، سبب كل سوء. وعند نهاية السلم، التقى «إيفاريست» بإيلودى لاهثةً، وخلاصتها السوداء ملتصقة على جيدها الندى .

– بحثتُ عنك فى المحكمة ولم أجدُك لانصرافك قبلى بلحظات. إلى أين أنت ذاهب ؟

● إلى دار البلدية .

– لا تذهب هناك ، ستهلك نفسك ! أُلقى القبض على «هنريوت»... والقطاعات متعطلة، وقطاع «البيك»، وقطاع «روبسبير» قابع فى هدوء ، وأعرف ذلك لأن أبى عضو فيها ، وإذا ذهبتَ إلى دار البلدية فإنك ستُهلَك بلا داعٍ .

● أتودين أن أكون جبانًا ؟

– بالعكس، بل الشجاعة أن تكون مخلصًا للجمعية الوطنية، وأن تطيع القانون .

● القانون يموت عندما ينتصر الفاسقون .

– «إيفاريست»، استمع إلى «إيلودى»، استمع إلى أختك، تعالَ اجلس بجوارها، لتُهَدِّئك .

نظر إليها ، لَمْ تَبْدُ له مشتهاةً مثلما تبدو له الآن، وهذا الصوت لم يكن له وقع شهوانى ومقنع مثلما هو فى هذه المرة .

– خطوتان ، خطوتان فقط يا صديقى !

فاستدرجته نحو السطح الذى يحمل قاعدة تمثال مقلوب (تمثال هنرى الرابع). تحيط به مقاعد يجلس عليها المتنزهون والمتنزهات.

إحدى بائعات الأشياء التافهة تعرض «الدانتيلًا»، وبائع المشروب الساخن يحمل على ظهره إناءً بصنبور ، ويُحرك الجرس، وبنات صغيرات يمرحن .

وعلى الضفة صيادون يجلسون لا يتحركون وصناراتهم فى أيديهم. كان الجو عاصفًا، والسماء مُلبدة. و«جاميلان» منحنيًا على الحاجز، شاخصًا ببصره نحو الجزيرة المدببة، والتى تشبه مقدمة المركب، كان يُنصت إلى حفيف قمم الأشجار مع الريح، وكان يشعر فى نفسه برغبة جامحة فى الهدوء والعزلة .

وكصدى صوت حلو من فكرها تَنَهَّدَ صوت « إيلودى » :

– هل تتذكر عندما كُنْتَ ترى الحقول ؟ كنتَ تتمنى أن تكون قاضيًا للسلام فى قرية صغيرة، تلك فى نظرك هى السعادة .

ولكن من خلال حفيف الأشجار، وصوت السيدة ، سمع رنين الإنذار ودقات الناقوس، والمعمعة البعيدة للخيول والمدافع على البلاط .

وعلى بعد خطوتين منه كان شاب يتحدث مع مواطنة أنيقة ، يقول :

– هل تعرفين الخبر ؟.... دار الأوبرا أقيمت بشارع «لإلوا».

عندئذ كان الهمس يدور حول اسم «روبسبير»، ولكن برهبة، لأنه ما

زال يُخْشَى جـانِبُـــه . وتُخفى النســوة شــائعـــات سقــوطه كما يُخفين الابتسامة .

تناول « جاميلان » يد « إيلودى » ولكن يتركها فجأة ويقول :

– الوداع ! لقد أشركُتكِ فى مصائرى الرهيبة، وأَذْوَيْتُ حياتَكِ إلى الأبد. الوداع . هل فى وسعك أن تنسينى !

قالت له : هذه الليلة لا تَعُدْ إلى مسكنك، تعـالَ إلى متجر «لامور بانتر». لا ترن الجرس، اقذف الشباك بحصــوة، وسوف أفتح لك الباب بنفسى، سألاقيك فى المخزن .

– سوف تَرَيْنِى منتصرًا، أو لن تَرَيْنِى إلى الأبد . وداعًا ! وعندما اقترب من دار البلدية سمع ضجــة ثقيلة تتصـــاعـد إلى السماء لأيام الأعيــاد فى ميــدان «لاجـريـف» يسمع قعقعـة أسلحــة، ويرى تلألـؤ الإيشــاربات والأزياء، ومدافع «هنريوت» رابضة .

ارتقى سلم الشرف، وعند دخـولـه إلى قــاعــة المجلس، وَقَّعَ فى كشف الحضور . والمجلس العام لمجلس العمــوم بإجماع ٤٩١ عضوًا حاضرين أعلنوا أنهم إلى جانب المُبعدين .

أمر العمــدة بإحضار لائحة حقـوق الإنسان، وقـرأ المادة التى تقول : «عندمــا تغتصب الحكومة حقـوق الشعب، فالثـورة من أجل الشعب هى من أقدس الواجبات التى لا غنى عنهــا»، وكبير قضاة باريس يعلن أنه فى الانقــلاب السياسى للجمعيــة الوطنية، مجلس العمــوم يُعارض الثـورة

الشعبية. أعضــاء المجلس العام أقسمــوا اليمين على أن يموتوا فى مكانهم. اثنان من ضباط البلدية كُلِّفَا بالتوجه إلى ميدان «لاجريف» لِيَدْعُوَا الشعب إلى الانضمام إلى قُضاته حتى يُنقذوا الوطن والحرية.

والتقى بعضهم ببعض، وتبــادلوا الأنبــاء، وأُبديت الآراء، ومن بين هؤلاء القضــاة قليل من الحرفيين. مجلس العموم المجتمع هنا كما أسفــر عنه التطهير اليعقوبى مؤلف من : قُضــاة، ومحلفين من المحكمة الثورية، وفنانين مثــل « بوفاليــه » و « جاميــلان »، ومن ذَوِى الدخول (وهم من لا عمل لهم)، ومدرسين، وبورجــوازيين موسرين، وتجار كبار، ورءوس مُغبَّرة، وبطون تتدلى منها حُلّى بسلاسل، قليل من القباقيب، وبنطالونات، وكارمانيولات، وأغطية رأس ، وقبعات حمراء .

هؤلاء البورجــوازيون عددهم كبير، عندهم إصرار ، ولكن إذا فكرنا فى الأمــر تقريبًــا كل من تحتويه باريس من جمهــوريين حقيقيين واقفين فى مقــر البلديــة ، كما لو كــانوا على صخــرة الحرية، يحتــويهم محيط من اللامبالاة .

ومع ذلك، فقــد وصلت أنبــاء طيبــة : جميع السجــون - حيث كــان المُبعدون مسجونين - فتحت أبوابها وأطلقوا ضحاياهم .

وصل «أوجيستــان روبسبير» من الحبــس، وكــان أول من دخل دار البلدية، مُحْتَفًى به .

وفى الســاعــة الثامنة، عُلِمَ أن «مــاكسيمليان» - بعــد أن قاوَمَ طويلًا - توجه إلى مجلس العموم. كان مُنْتَظَرًا، وسوف يأتى ، وجاء : دوَّى هتاف

هائل زلزل قبـاب قصر البلدية القـديم، دخل محمـولا على عشرين ذراعًا.
هذا الرجل النحيف، شديد النظافة إلى درجة الوسوسة، يرتدى زيًّا أزرقَ،
وسروالًا أصفر ، كان قد اتخذ مقعده وتحدث .

وعند وصوله أمر المجلس بإنارة واجهة مجلس العموم فى الحال، فهو
رمز الجمهـورية. تحدث بصوتٍ رفيع وبتأنُقٍ. تحدث بنقـاء وبإسهاب،
هؤلاء الحاضرون هناك الذين جازفـوا بحياتهم من أجله تبينوا – فى هيبة
– أن هذا رجل صادق الـوعد، ورجل لجان، ومنبر، لا يتسرع فى اتخاذ أى
قرار، ورجل عملٍ ثورى. اصطحبـوه إلى غرفة المداولات. والآن جميعهم
هناك . هؤلاء المُبعَدون المرموقون : «لوباس»، «سان جوست»، «كوثون».
«روبسبير» تكلم. الوقت الثـانيـة عشرة والنصف بعـد منتصف الليل،
ويتكلم أكثـر . وفى ذلك الوقت كان «جـاميـلان» فى قاعـة المجلس، يلصق
جبهته إلى إحـدى النوافذ، ينظر بقلق، يرى المصابيح يتصاعـد دخانُها فى
الليل المظلم .

ومدافع «هانريوت» رابضة أمـام دار البلدية. وفى الميدان الذى يسبح
فى ظلام دامس، جَمْعٌ غفير مضطـرب، قلق، مـرتـاب، وفى منتصف الليل
وقـد مضت ثلاثـون دقيقـة، انطلقت مشـاعل من أحـد أركـان شـارع
«لافانيرى»، تحيط بمفوض من الجمعية الوطنية، متقلدًا شاراته، ويُمسك
بين يديه ورقـة ويقرأ فى ضوء أحمر قـرار الجمعية الوطنيـة الذى يعتبر
خـارج حماية القانون أعضـاءً من مجلس العمـوم المتمرد، وأعضـاء من
المجلس العام الذين يساعدونه، أو المواطنين الذى يلبون نداءه .

الخروج على القانون يعنى الموتَ دون محاكمة ! وهذا الأمر كفيل بتثبيط هِمَّة أصحاب العزيمة القوية وتوهينها. شعر «جاميلان» بجبهته أثلجت، شاهد الجمعَ الغفير يغادر الميدان . وعندما أدار رأسه رأت عيناه أن القاعة التى كانت تموج بالمستشارين منذ برهة قد خلت تقريبًا، لكنهم فى الواقع هربوا، وقد وَقَّعُوا .

الساعة الآن الثانية. النزيه يتداول فى القاعة المجاورة مع مجلس العموم والنواب المُبْعدين .

«جاميلان» جابَ بعينيه اليائستين أرجاءَ الميدان المظلم. شاهد على ضوء الشموع الركائز الخشبية تتلاحم على إفريز البقالة مع ضوضاء العوارض، والفوانيس تتوازن وتتأرجح هبّت ريح قوية، وبعد لحظة هطل سيل، وأصبح الميدان مُقفرًا، وهؤلاء الذين لم يطردهم القرار الصعب، شتتهم بضع قطرات من الماء. وهُجِرَت مدافع «هانريوت». وعندما ظهرت على ضوء البرق تنطلق فرق الجمعية الوطنية فى شارع «أنطوان» وبالشارع الرئيسى، أصبحت ضواحى مجلس العموم خالية تمامًا .

أخيرًا قرر «ماكسيميليان» أن يستعيد قرار الجمعية الوطنية من قطاع «لى بيك» .

المجلس العام تسلح بالسيوف والمسدسات والبنادق، ولكن صلصلة السلاح، ووقع الخطوات والنوافذ المحطمة ملأت المجلس، وفرق الجمعية

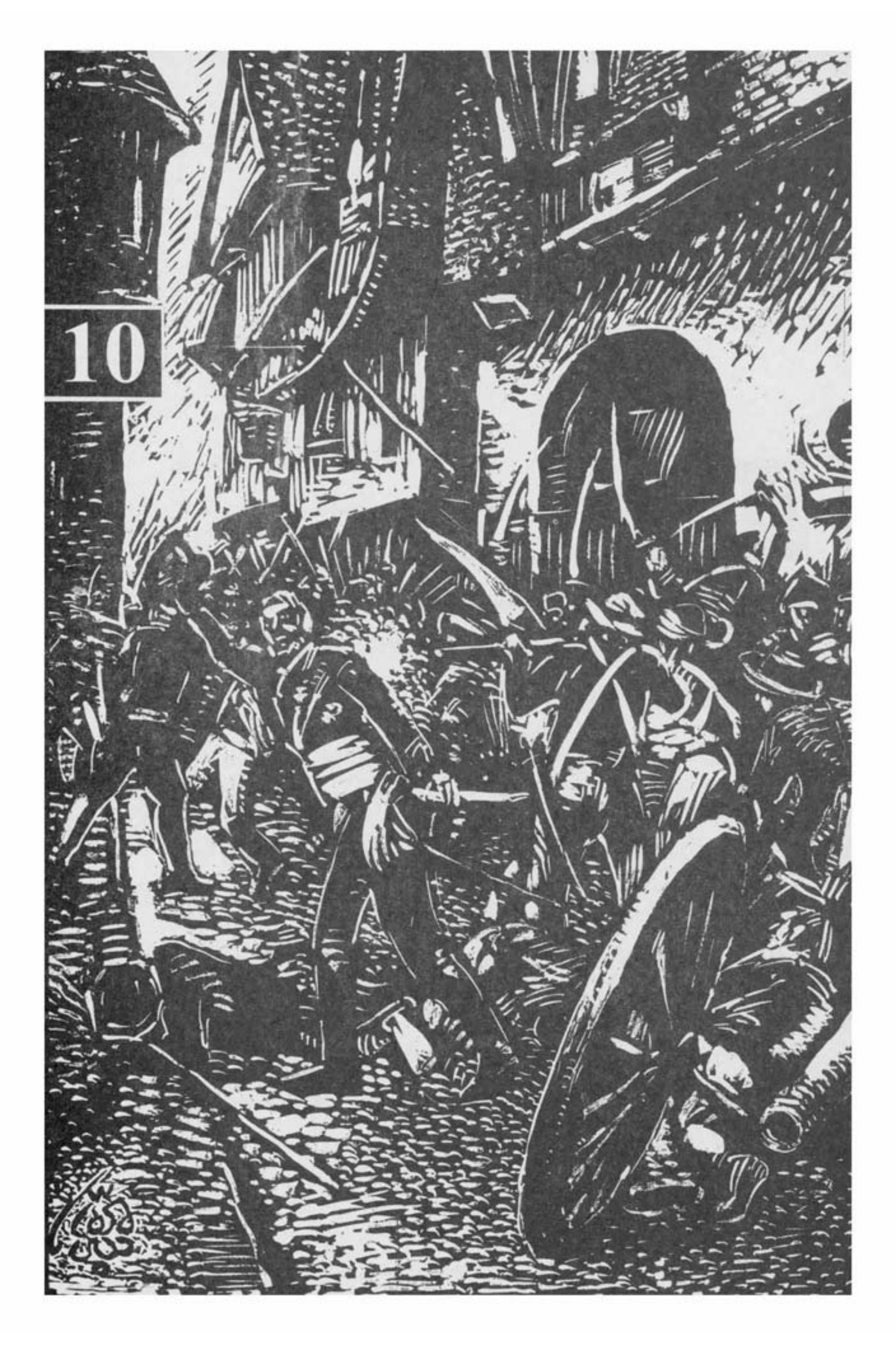
الوطنيـة مـرت من خـلال قـاعـة المداولات مندفعـة كـالجُرف الهارى، واندفعت إلى قـاعـة المجلس. وانطلقت رصـاصـة ، ويَرَى «جـاميـلان» «روبسبير» يقع مُحَطَّمَ الفَكِّ .

ويمسك «جاميلان» بمديتـه، المدية التى تساوى ستة فلسات، والذى فى يوم مَخْمَصـة قطع بها خبـزًا مـن أجل أم مُعْسِرة، وأنه فى مـزرعـة «أورانجيس» فى ليلة جميلة، «إيلودى» حفظتها على ركبتيه، وهـى تسحب الرهانات، فتحها يريد أن يغمدها فى قلبه: ولكنها اصطدمت بنتوء وانثنت على الحلقـة التى انفتحت وانجـرح أصبعين مـن أصـابعـه. وسقط «جـاميـلان» وهو يُدمى، وبـلا حـراك، ولكنه كـان يتألم من البرودة القـارصـة، وفى خِضّم الصخـب لصراعٍ مخيف ، وبازدراء ، استمع بكل تمييز صوت الجندى الفارس « هنرى » يصيح :

– الطاغيـة لم يعـد له وجـود ، وتحطمت نجـومـه . الثـورة سـوف تستأنف مجراها المتعاظم والمخيف .

« جاميلان » فقد وعيه .

وفى الساعـة السابعـة صباحًا ، أرسلت الجمعيـة الوطنية طبيبًـا إليه ليعالجه . الجمعية كانت ممتلئة بالعناية من أجل شركاء «روبسبير» فهى لا تريد أن يفلـت أى واحـد منهم من المقصلة، فتنقـل الفنان الرسـام، والمحلف السابق ، وعضو المجلس العـام السابق لمجلس العموم، نُقِلُوا إلى البوابة الرئيسية .



10

10

وفى اليوم العاشر ، بينما كان «إيفاريست» ينام على سرير قذر فى زنزانة نومًا محمومًا ، استيقظ مذعورًا ، وكان خائفًا خوفًا لا يوصف. باريس كانت فى أُبَّهتها وبراحتها تبتسم للشمس ، وبُعِث الأمل من جديد فى قلوب المساجين. افتتح التجار متاجرهم، ويرى البورجوازيون أنفسهم أكثر ثراءً، والشباب أسعد حالًا، والنساء أكثر جمالًا ، بسقوط «روبسبير» .

عدد قليل فقط من اليعقوبيين، وبعض الرهبان الدستوريين، وبعض السيدات كبار السن كانوا يرتعدون خوفًا من رؤية الإمبراطورية تنتقل إلى الأشرار وإلى الفاسدين. وفد من محكمة الثورة يتكون من المدعى العام وقاضيين توجه إلى الجمعية الوطنية لتهنئتها بإحباط المامرات .

قررت الجمعية أن المقصلة سوف تُنقل من جديد إلى ميدان «لاريفوليسيون»، وكان الهدف من ذلك أن الأغنياء والمُرفَّهين والنساء الجميلات كلهم يستطيعون أن يروا – دون مضايقات – تعذيب «روبسبير» وموعده فى نفس اليوم. الديكتاتور وشركاؤه كانوا خارجين

على القانون، ويكفى أن تثبت هويتهم عن طريق ضابطين من البلدية حتى تُسَلِّمهم المحكمة إلى الجلاَّد، ولكن ظهرت إحدى الصعوبات : الإثباتات لا يمكن إجراؤها على الشكل، نظرًا لأن مجلس العموم بأَسْره خارج على القانون . صرحت المحكمة بإجراء الإثبات للهوية عن طريق شهود عاديين.

واُقْتِيدَ الحكام الثلاثة إلى الموت مع شركائهم الأساسيين، فى وسط صيحات الفرح والخوف، واللعنات والضحكات، والرقص .

وفى اليوم التالى أُخرج « إيفاريست» – الذى استرد بعض قواه ، وتقريبًا استطاع أن يقف على ساقيه – أُخرِج من زنزانته، واقتيد إلى المحكمة، ووُضِع على مقعد المدرج حيث رآه مراتٍ عديدة مشغولاً بالمتهمين، وحيث كان الضحايا من المشاهير أو من المغمورين يجلسون منتظرين دورهم. والآن يئن المدرج تحت وطأة سبعين فردًا ، ومعظمهم أعضاء فى مجلس العموم، والبعض الآخر من المحلفين، مثل «جاميلان»، واعتبروه هو أيضًا خارجًا على القانون. شاهد مقعده، والمسند الذى كان من عادته أن يتكىء عليه، الموضع الذى كان يُرْهِب منه المساكين، الموضع الذى كان عليه أن يعانى فيه من نظرات «جاك موبيل»، و «فورتونيه شاسانى»، و «موريس بروتو»، ونظرات الاستعطاف من المواطنة «روشيمور»، والتى كانت قد ساعدت فى تعيينه محلفًا، والتى كانت مكافأتها على ذلك قرارًا بقتلها .

ورأى مرة أخرى – متصدرًا المدرج، حيث يجلس القضاة على ثلاثة مقاعد كبيرة من خشب الأكاجو المبطنة بالقطيفة الحمراء – التماثيل

النصفية لكل من «كاليبه» و «مـارات»، وكذلك تمثال «بروطس» النصفى الذى شاهده ذات يوم.

لا شىء تغير، لا الفئوس ولا شعارات الفاشيـة، ولا القلانس الحمراء وقصاصـات الورق، ولا الشتائم التى تقـذف بها الحائكات من المنصات على هؤلاء الذين حُكِم عليهم بالموت، ولا روح «فوكييه - تانفيل» العنيد ، المجتهـد فى عملـه، يُقلِّب أوراقـه بحماس، أوراق قتل الإنسـان، ويُرسل كقاضٍ متكاملٍ أصدقاءَ الأمس إلى المقصلة.

المواطن «ريماكل» بواب وترزى، و «ديبـون إينيـه» نجـار فى ميـدان ثيونفيل، وعضو لجنة المراقبة لقطاع لوبون - نوف ، يعـرفان «جاميلان إيفاريسـت»، كفنان ورسام، ومحلف سـابق فى محكمة الثـورة، وعضو سابق بالمجلس العـام لمجلس العموم. وكانا قد شـهـدا من أجل الحصول على حوالة حكوميـة بمبلغ مائـة فلس، على حساب القطاع، ولكن نظرًا لما كان بينهما من عـلاقة جوار وصـداقة من المتهم، فقد أبديا المضـايقة من تلاقى نظراتهما مع نظراته، باختصار، كـان الجو حارًّا ، وكانوا عطشى، وكانوا مضطرين إلى الانصراف لشرب كوب من النبيذ .

بذل «جاميـلان» مجهودًا لكى يصعد إلى العربة، لقـد فقد دماءً كثيرة، وجرحه يسبب له آلامًا شديدة. سَاطَ الحوذى فرسه النحيل، وبدأ الركب يتحرك فى وسط الهمهمات الساخرة .

بعض النسوة اللائى يعرفن «جاميلان» قذفنه بهذه الكلمات :

– هيــا إذن ! يا سفــاكَ الدمــاء ! أيها القـــاتل بثمانيــة عشر فــرنكًا فى اليوم!...

لم يبتسم فقلن : انظرن إليه ، كم هو شاحب ، الجبان !

كـانت هــؤلاء النسوة هن أنفسهن اللائى سَبَبْنَ – منــذ عهد قريب – المتــآمرين والأرستقــراطيين، والساخطين، والمتســامحين الذين أرسلهم «جاميلان» وزملاؤه إلى المقصلة .

انعطفت العربة إلى الشارع الرئيسى، شــارع «مورفونديس»، وصلت ببطء إلى «البون – نوف » وشارع «لامونيــه» وتوجهوا إلى ميدان الثورة، إلى منصـــة إعدام «روبسبير». كـان الجواد يتعثر، والحوذىُّ يلهب أذنيــه بالسوط فى كل لحظة .

كـــان جمع المتفــرجين الغفير يؤخـــر الموكب، مبتهجين متـــزاحمين، الجمهــور يُهنىء شرطــة الدَّرَك الذين يمتطون جيــادهــم ، وعلى ناصيــة شارع « هوتوريه » تتزايد الشتائم والسباب .

وبعض الشبــاب فى مطعم جــالسون إلى الطاولات فى قــاعــات المطعم ، حسب ذوق العصر ، ووقفوا فى النوافــذ يطلون منها وفى أيديهم المناشف، وصــاحوا :

– أيها المتوحشون، ها هم آكِلُو لحوم البشر الدماء !

وعندمــا اصطدمت العــربة بكوم مــن القمامــة لم يُرفَع خــلال هذين اليومين الأخيرين، حيث وقعت الاضطرابات، انفجــر أولاد الذوات قائلين وهـم يضـحكون :

العربة المتوحلة !... اليعقوبيون فى القمامة !

كان «جاميلان» يفكر ، واعتقد أنه فهم :

– «سأموت لا محالة، أعتقد ذلك. من المنصف أننا نتلقى هذه الإهانات الموجهة إلى الجمهورية، والتى يجب علينا أن ندافع عنها .

كنا ضعفاء ، وجعلنا من أنفسنا آثمين بالغفران، وخُنَّا الجمهورية نحن نستحق مصيرنا. «روبسبير» نفسه الطاهر القديس أخطأ بالتى هى أحسن، وبدماثة خلقه، ومُحيَت أخطاؤه باستشهاده، وبالاقتداء به أنا خُنتُ الجمهورية، فَهَلَكَتْ ، ومن الإنصاف أن أموت معها . لقد حافظتُ على دمائى، فيُهرق دمى ! وأُهَلك ! فأنا أستحق ذلك... ».

وبينما كان يفكر هكذا إذْ شاهد لافتة «لامور بانتر»، فانهمرت فى قلبه سيول من المرارة والعذوبة. كان المتجر مغلقًا، كذلك النوافذ الثلاث الخاصة بالمطعم جميعها كانت مغلقة .

وعندما مرت العربة أمام النافذة اليسرى – نافذة الغرفة الزرقاء – امتدت يد امرأة، فى بنصرها خاتم من الفضة، أبعدت مشربية النافذة، وألقت نحو «جاميلان» زهرة قرنفل حمراء، لم تستطع يداه المقيدتان أن تتلقاها، ولكنه كان يحبها كرمز وصورة لشفتيها الحمراوين المعطرتين، كانتا تُنعشان شفتيه .

واغرورقت عيناه بالدموع، متأثرًا تَأَثُّرًا عميقًا بهذا الوداع الجميل الذى رآه يرتفع فى ميدان الثورة، ألا وهى المقصلة الدامية .

* * *

كان نهر السين يجحف بثلوج نيفوس[1] (أى بعد ستة شهور ، نهاية ديسمبر ١٧٩٤ أو يناير ١٧٩٥). وأحواض التويليرى، والجداول، والينابيع، كانت متجمدة. وكانت ريح الشمال تهب فى الشوارع بموجات من الصقيع، وكانت أنفاس الجياد تضبح بالبخار الأبيض؛ وكان الأهالى وهم يمرون عند باب صانعى النظَّارات ينظرون إلى مقياس درجة حرارة الجو .

كان أحد العاملين يمسح القطرات المتكثفة على زجاج متجر «لامور بانتر»، والفضوليون يُلقون نظرة على الصور المطبوعة التى تلائم ذوق الوقت. ومن هذه الصور صورة «روبسبير» وهو يعتصر قلبًا مثل الليمونة فى كأس ليشرب منه الدم، ومنها قطع رمزية كبيرة مثل التيجروقراطية (حكم النمر)، وذلك لم يكن سوى أُفعوانات، وثعابين، ووحوش مخيفة أطلقها الطاغية على فرنسا.

ومنها أيضًا، مؤامرة «روبسبير» المروعة، واعتقال «روبسبير»، وموت «روبسبير» .

وفى ذلك اليوم – بعد طعام الظهر – دخل «فيليب ديماهيس» متجر «لامور بانتر» يحمل تحت إبطه لوحاته، وأحضر إلى المواطن «جان بلين» لوحة قد حفرها حديثًا بالتنقيط : «انتحار روبسبير». الإزميل القاسى فى يد النحات صَنَعَ من «روبسبير» شخصًا مُقَزِّزًا إلى أقصى درجة .

---

(١) نيفوس : الشهر الرابع من السنة الجمهوية، ما بين ٢١ ديسمبر – ١٩ يناير . ويجحف : يُلقى ويرمى ويجرف .

لم يكن الشعب الفرنسى بعد منتشيًا بجميع هذه الأعمال التى تختص بالخزى والرعب لهذا الرجل الذى يتحمل عبء جميع جرائم الثورة، ومع ذلك فإن بائع الرسم والصور الذى يعرف الجمهور طلب من «ديماهيس» أن يحفر له من الآن فصاعدًا موضوعات عسكرية.

– لابد لنا من انتصارات وفتوحات، وسيوف ، وقبعات بالريش الملون، وقادة . نحن ذهبنا من أجل المجد. أشعر بذلك بداخلى، قلبى يخفق لقصة مغامرات جيوشنا الباسلة .

وعندما أحس بأى شعور فمن النادر ألّا تحس به الناس جميعًا فى نفس الوقت. كل ما نحتاج إليه، هُم الغُزَاةُ المحاربون، والنساء، أى : مارس(١) وفينوس(٢) .

– أيها المواطن «بليز»، عندى أيضًا لوحتان أو ثلاث لوحات لجاميلان، والتى أعطيتنى إياها لأحفرها، أهى مطلوبة ؟

● كلا ، مُطلقًا .

– وبصدد «جاميلان» ، فبالأمس، عندما مررتُ فى شارع «لوتمبل» وجدت عند بائع «روبابيكيا»، الذى يقع حانوته أمام دار «بوماشيه» جميع لوحات هذا البائس . كانت توجد هناك لوحة «أوريست وإليكترا». رأس «أوريست» التى تشبه رأى «جاميلان» جميلة حقًّا، أؤكد لك ذلك...

---

(١) مارس : إله الحرب كما جاء فى الأساطير .

(٢) فينوس : إلهة الجمال عند الإغريق .

الرأس والذراع غايـة فى الروعة... وقال لى بائع «الـروبابيكيا» إنه لم يكن مترددًا فى بيع هذه اللوحــات إلى فنانين يرسـمـون عليهـا .... هذا المسكين «جـاميلان» ! كــان يمكنه أن يكون نابغــة من الطراز الأول لو لم يعمل فى السياسة .

● كـان له روح المجرم! أجـاب بذلك المواطن «بليـز». لقـد أَمَطْتُ عنه اللثـام فى هذا المكان نفسه، فى حين كـانت غـرائزه دمـوية، وأيضًا كـانت مكبوتة، لم يكن يسامحنى قط...! كان وغدًا جميلًا .

– الصبى المسكين ! كـان مخلصًا . المتعنتـون هم الذين تسببـوا فى هلاكه.

● أعتقـد أنك لا تدافع عنه يا «ديماهيس»!... فهـو لا يستحق الدفـاع عنه .

– كَلَّا أيها المواطن «بليز»، لا يمكن الدفاع عنه .

ويربتُ المواطن «بليز» كتفَ «ديماهيس» الجميل ويقول :

● الزمان تغير ، ويمكن أن ندعوك «بارباو» الآن، إن الجمعية الوطنية تذكـر المُبعدين... فيمكنك يـا «ديماهيس» أن تنقش لى صورة لشـارلوت كورداى.

دخلت المتجر سيدة سمراء، تلتف فى فراء، وتبدو عليها العظمة، وحيت المواطن «بليــز» بإيماءة خفيفـة، إيماءة وديـة ورزينة. كـانت «جــولى جـاميلان»، ولكنهـا لم تعـد تحمل هذا الاسم المشين، أطلقت على نفسهـا

اسم «المواطنة أرملة شـاسـانى»، وكـانت ترتدى تحت معطفهـا عبـاءة حمراء ، إكراما لقمصان الإرهاب الحمراء .

كانت «جولى» فى بداية الأمر تشعـر بالنفور من عشيقة «إيفاريست»، وكان كل ما كان يتعلق بأخيها يُعتبر كريهًا بالنسبة لها .

ولكن المواطنة « بليز » – بعد وفاة « إيفارست » – استقبلت الأم الثكلى عندها فـوق سطوح المتجر «لاموربـانتر». و «جولى» أيضًا كـانت لاجئة إليـه، ثم عثرت على مكان لها فى محل لبيـع الملابس فى شارع «لومبـارد». وشعـرها القصير، «على طريقـة الضحيـة»، ومظهـرها الأرستقـراطى، وجِدَادُها، كل ذلك كان يجذب إليهـا تعاطف أولاد الذوات. و «جان بليز» الذى هجرته «روز تيفينان» نصف هجر قَدَّمَ إليها خدمات قبلتها منه. فى ذلك الوقت كـانت «جـولى» تحب أن ترتدى ملابـس رجال، مثلما كـانت تفعل فى الأيام المأسـاوية، وأوصت بتفصيل مـلابس جميلة تليق بشـاب أنيق، وكـانت تذهب دائمًا حـاملـة عصًـا غليظة فى يدها، وتتناول طعـام العشـاء فى بعض «كباريهات سيفـر أو مـودون» مع فتاة عـاملة فى محل أزياء. لا يُعـوِّض حزنها أى عـزاء عن مـوت زوجها الشـاب الذى تحمل اسمـه، هذه الأنثى «جـولى» لا تجد أى راحـة فى حـزنها إلَّا فى خـوفهـا، وعندما كانت تقابل أى يعاقبة كانت تُؤلِّب ضدهم المارة بإطلاق صرخات الموت. كان يتبقى لها بعض الوقت لتقضيه مع أمهـا، التى كانت بمفردها فى غـرفتها تتمتم على سبحتهـا أدعيـة طوال اليوم. لقـد أصبحت ثكلى فى ابنها الذى انتهت حياته نهاية مأساوية، وتشعر بالألم لذلك .

لقد أصبحت «روز» الصديقة المستديمة لإيلودى، والتى كانت بكل تأكيد تنسجم مع حمواتها .

سألت المواطنة «شاسانى» :

– أين إيلودى ؟

ويُظهر «جان بليز» بأنه لا يعرف مطلقًا .

كان يهدف من ذلك إلى رسم خطة. جاءت «جولى» لتصطحبها لزيارة «لاتيفينان» فى شارع «مونصو»، حيث الكوميديانة تقيم فى منزل صغير بحديقة إنجليزية .

فى البداية الرئيسية كانت «لاتيفينان» قد تعرفت على مُوَرِّد كبير للجيوش ، هو المواطن «مونفورت». كانت أول من خرجوا من هذا السجن بتوسل من «جان بليز»، وحصلت على الإفراج للمواطن «مونفورت»، الذى لم يكد يتحرر حتى زود الفِرَق بالمواد الغذائية، وضَارَبَ على أرض «حى المشتل» .. وقد شَيَّدَ المهندسون : لودور، وأوليفين، وويللى، فيها منازلَ جميلة، فى ظرف ثلاثة أشهر، ومن ثم ارتفعت قيمة الأرض فيها إلى ثلاثة أمثال .

كان «مونتفورت» منذ أن سُجن فى «لوكسيمبورج» عشيقَ «لاتيفينان»، أهدى إليها فندقًا صغيرًا يقع بالقرب من «تيفولى» وشارع «دى روشيه»، كانت قيمته عالية، ولم يكلفها شيئًا ، وبيعت الأسهم المجاورة، واسترد قيمتها عدة مرات .

كان «جان بليز» رجلًا شهمًا، وكان يعتقد أنه لابد للمرء أن يتحمل ما لا يستطيع مَنْعه، فترك «لاتيفينان» إلى «مونتفورت» دون أن يختلف معها.

وبعد وقت قصير من وصول «جولى» إلى «لامور بانتر» نزلت «إيلودى» إلى المتجر وهى فى كامل زينتها، وبالرغم من قسوة الطقس، فإنها كانت ترتدى تحت معطفها ثوبها الأبيض العارى، كانت تبدو شاحبة الوجه، ناحلة القوام، ونظراتها تسرى واهنة، وكل كيانها كان ينطق بالشهوة. ذهبت المرأتان عند «لاتيفينان» حيث كانت تنتظرهما. اصطحبهما «ديماهيس»، والممثلة كانت تستشيره من أجل زخرفة فندقها، وهو كان يحب «إيلودى»، والتى كانت فى هذا الوقت أكثر من شبه مصممة على ألَّا تتركه يعانى أكثر .

وعندما مرت السيدتان عند «مونصو»، حيث دُفن تحت طبقة من الجير، هؤلاء الذين نُكِّل بهم فى ميدان «لاريفوليسيون»، قالت « جولى » :

– هذا حسن أثناء البرد ، ولكن فى الربيع فإن الراوائح الذى تنبعث من هذه الأرض تتسبب فى تسمم نصف المدينة .

استقبلت «لاتيفينان» صديقتيها فى غرفة استقبال أثرية، حيث كانت مقاعدها الوثيرة وكنباتها مرسومة بريشة «دافيد»، وبحفر بارز رومانى، وكانت منسوخة بالطريقة التدرجية (طريقة كان يستخدمها الفنانون فى القرن الثامن عشر فى فرنسا، يستخدم فيها الفنان لونًا واحدًا،

متدرجًا من الغـامض إلى الفاتح، أو بالعكس)، ويسود ذلك كل الحوائط، وفوق التماثيل، والتماثيل النصفية، وشمعدانات مدهونة بالبرونز .

وكانت تضـع باروكة مُجَعَّدة فى لون القـش الأصفر ... فى هذا العصر كـانت الباروكـات منتشرة جدًّا ، كـان يُقَـدَّمُ منها اثنتـا عشرة، أو ثمانى عشرة كهـدية من الخطيب إلى خطيبته . وكـانت ترتدى ثوبًا ضيقًـا (على الطريقة الفينوسية) يحبس جسدها كأنه غلاف .

ثم ألقت بمعطف على كتفيها ، واصطحبت صـديقتيها وفنانَ الحفر إلى الحديقة التى يرسمهـا «لودو»، والتى لم تكن سوى مجموعة فـوضوية من الأشجار العـارية، وبقايا مواد بناء. وكانت تعـرض فيها - رغمًا عن هذا - كهفِ فينيـال[1]، وكنيسـة صغيرة قـوطيـة بناقـوس ، ومعبـدًا ، وحامولة .

وتقول مشيرة إلى باقة من الصنوبريـات : أريد أن أُقيم نصبًا تذكاريًّا للمسكين «بروتو ديزيليـت». لم أكن أتجاهله، كـان ودودًا. لقـد ذَبَحَـهُ الوحـوش، فبكيتـه كثيرًا . «ديماهيس»، أُريـدكَ أن ترسم لى جَـرَّةً فـوق عَمُود.

وأضـافت فى الحال :

- شـىء مؤسف ... كنت أريد أن أُقيم حفلَ باليـه هذا الأسبوع، ولكنَّ جميعَ عـازفى الكمان محجـوزون لمدة ثلاثة أسـابيع مقـدمًـا. المواطنة

---

(١) كهف مشهور بإسكتلندا .

«تاليـان» تقيم كل مسـاء حفلة رقص. وبعـد تناول العشـاء، اصطحبت عربة «لاتيفينان» الصديقـات الثلاث » و «ديماهيس» إلى مسرح «فايدو»، وكان كل مـا هو أنيق فى باريس مجتمعًا فيـه. النساء، وتسريحاتهن «على الطريقة القديمة »، أو «على طريقة الضحية»، وبأثواب مفتوحة أرجوانية أو بيضاء، أو باللون الذهبي، والرجال يرتدون «ياقـات» سوداء مرتفعة جدًّا ، وتختفي ذقونهم في أربطة عنق بيضاء عريضة.

كان الإعلان عن مسرحية «فيدر»[1] و «كلب الجنايني». كانت الصالة بأكملهـا تقـول النشيـد المُحَبَّب إلى الشبـاب الأنيق وأولاد الذوات، وهو «صحوة الشعب».

فُتح الستار، وظهر على المسرح رجل ضخم وقصير : كان هو «لايس» الشهير، وشَدَا بصوته الجميل الصداح :

– أيها الشعب الفرنسى ، شعب الإخوان !.....

ودَوَّى تصفيق هائل ، حتى أن كريستال الثُّريا سمع رنينه. ثم تتناقل بعض الهمهمـة، وأجاب أحد المواطنين بقبعـة مستديرة، أجـاب من ردهة المسرح بالنشيد الوطنى الفرنسي :

– هيا يا أبناء الوطن ! .....

واختنق هذا الصوت وسط الهتافات ، ودوت الصيحات :

– ليسقط الإرهابيون ! الموت لليعقوبيين .

---

(١) رواية لراسين .

ثم طلبوا من «لايس» أن يصدح مرة أخرى بالنشيد «الثيرميدورى» :

– أيها الشعب الفرنسى ، شعب الإخوان !....

وفى جميع صالات العرض كان يوجد تمثال نصفى لمارات على عمود أو على قاعدة ، وفى مسرح «فايدو» كان هذا التمثال النصفى قائمًا على قاعدة صغيرة، من ناحية «يمين الممثل»، على إطار البناء الذى يُغلق المسرح.

وبينما كان «الأوركسترا» يعزف افتتاحية «فيدر» و«هيبوليت»، أشار شاب أنيق بعصاه الغيظة إلى التمثال النصفى لمارات، وصاح :

– ليسقط « مارات » !

وصاح كل من فى القاعة مُرددين :

– ليسقط « مارات » ! ليسقط « مارات » !

وساد الجمع أصواتٌ بليغة تقول :

– إنه لمن العار أن يظل هذا التمثال النصفى قائمًا !

– «مارات» الفاجر يسود فى كل مكان خزيًا لنا ! إن عدد هذه التماثيل النصفية له تساوى عدد الرءوس التى أراد قطعها .

– أيها الضفدع السام !

– أيها النمر ! أيها الثعبان الأسود !

وفجأة صعد أحد المتفرجين على حافة «اللوج» الذى يجلس فيه، ودَفَعَ بالتمثال، وقَلَبَهُ. وهوى الرأس المصنوع من الجبس وتناثر قطعًا على رءوس الموسيقيين، وسط تصفيق جميع من فى القاعة، ثاروا، ونهضوا وهتفوا بنشيد «صحوة الشعب»:

– أيها الشعب الفرنسى، شعب الإخوان!....

ومن بين المغنيين المتحمسين، تعرفت «إيلودى» على الجندى الفارس الجميل، كاتب المدعى الصغير «هنرى»، حبها الأول.

وبعد العرض استدعى «ديماهيس» الجميل عربة، واصطحب المواطنة «بلين» إلى متجر «لاموربانتر». وفى العربة أمسك الفنان بيد «إيلودى» بين راحتيه قائلًا:

– هل تُصدقين يا «إيلودى» أننى أحبك؟

● أصدقك ما دُمْتَ تحب كل النساء.

– أحبهن فى شخصكِ أنتِ.

ابتسمت «إيلودى» وقالت:

● قد أضطلع بمهمة عظيمة، بالرغم من الباروكات السوداء اللون والشقراء والصهباء الواسعة الانتشار، إذَنْ فلأتهيَّأً لكى أكون – من أجلك – جميعَ أنواع السيدات.

– «إيلودى» أُقسم لكِ .....

● مــاذا ! قَسَم أيها المواطن «ديماهيس» ؟ إمَّـــا أنك حَسَن الطوية، أو أنك تظنني ساذجة.

لم يجد «ديماهيس» شيئًا يجيبها بــه . واعتبرت نفسـها هى المنتصرة، بأنها انتزعت منه روحه .

وعلى ناصية شــارع «لالوا» سمعوا أغــانىَ وصياحًا، ورأوا أشبــاحًا تتحرك حول جمرات نيران، كانت مجموعة من الشباب المتأنق الذين بعد أن خرجوا من المسرح الفرنسى قد أحرقوا تمثالاً يمثل صديق الشعب.

وبشـارع «هونورية» اصطدمت قبعــة الحوذى المقرنة بتمثال مضحك لمارات معلق على المشنقة.

عَبَّرَ الحوذى عن سروره بهذا اللقــاء ، واستدار نحــو البورجــوازيين، وقص عليهم كيف أنه فى مساء اليوم الســابق لطَّخَ بائع الكرشة فى شارع «مونتورجاى» رأسَ «مارات» بالدماء وهو يقول : «هذا ما يحبه»، وكيف أن بعض الصبية فى سن العــاشرة قد قذفوا تمثــاله النصفى بالقاذورات، وبأى الألفاظ كان المواطنون يصيحون : «ها هو ذا مُسْتَقَرَّهُ !».

وبعد ذلك سُمعت الأغنية عند جميع المطاعم وبائعى الليمونادة :

– أيها الشعب الفرنسى ، شعب الإخوان !......

وصلت «إيلودى» إلى متجــر «لاموربانتر»، وقفــزت من العــربة وهى تقول :

– وداعًا ، مع السلامة !

ولكن «ديماهيس» توسل إليها بلطف، وتذلَّلَ لها بمنتهى الرقة، قائلًا بأنها لا تواتيها الشجاعة لتتركه على الباب .

قالت : الوقت متأخر ، ولن تبقى إلَّا لحظة .

وفى الغرفة الزرقاء نَزَعَتْ عنها معطفها ، وظهرت فى ثوبها الأبيض على طريقة القدماء، ممتلئة ودافئة ، وقالت له :

– ربما تشعر البرودة، سأوقد النار ، إنها مُعَدَّة .

أشعلت القداحة، وأشعلت نيران المدفأة. احتضنها «فيليب» بتلك الرقة التى تظهر القوة، وشعرت بعذوبة غريبة . ولما شعرت بأنها استجابت تحت تأثير القبلات، فتملصت منه قائلة :

– دعنى .

ثم خلعت غطاء رأسها ببطء أمام المدفأة، ثم نظرت بكآبة إلى الخاتم الذى كانت تضعه فى بنصر يدها اليسرى، خاتم صغير من الفضة، حيث صورة «مارات» كانت متلاشية، واختفت معالمها .

أخذت تنظر إليه حتى اغرورقت عيناها بالدموع، وحجبت نظرها ، فخلعته بهدوء وألقت به فى النار .

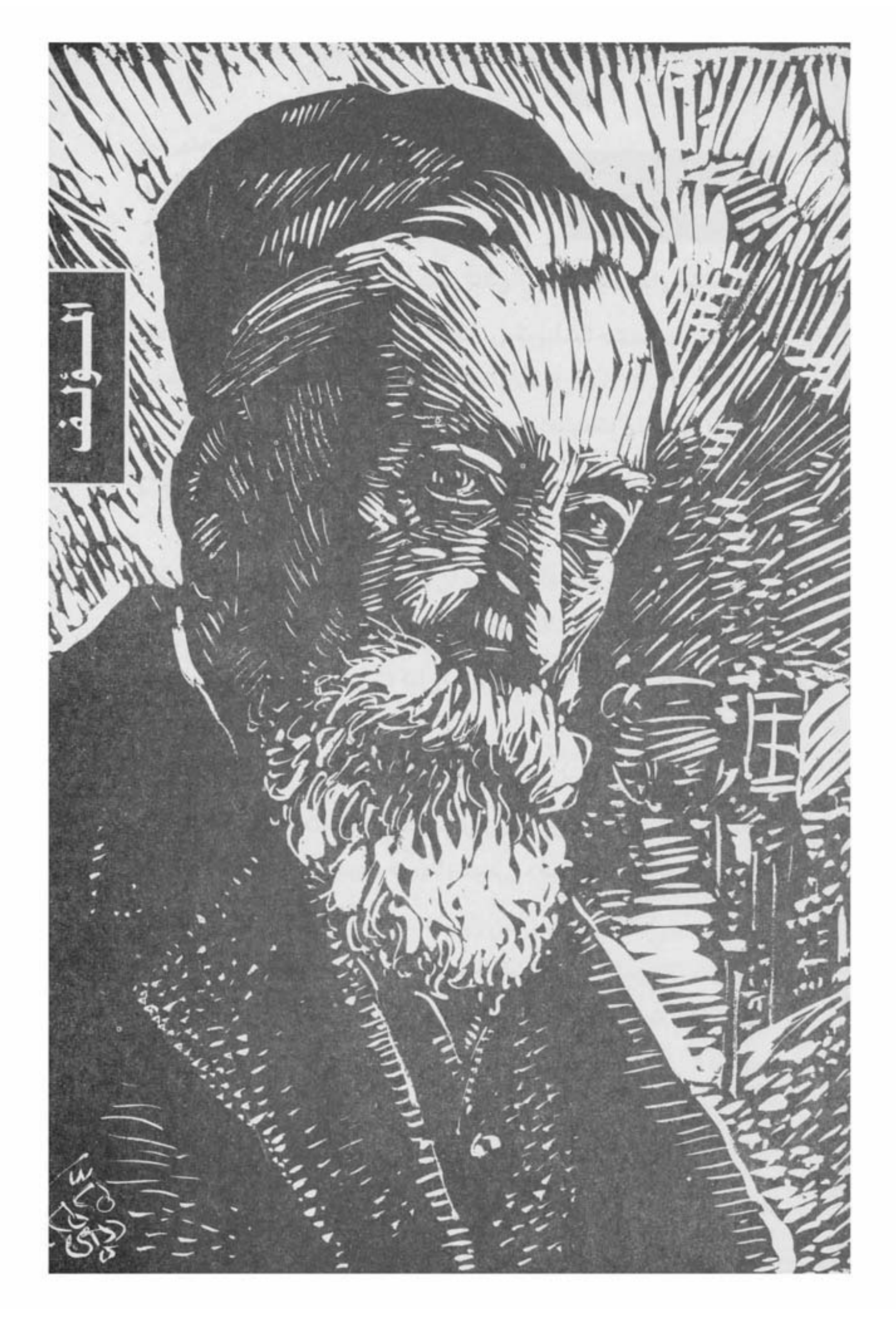
حينئذ تألقت بالدموع والابتسامة، وزاد الحب والحنان من جمالها، فألقت بنفسها بين أحضان «فيليب».

كان الوقت متأخرًا عندما فتحت المواطنة «إيلودى» باب الشقة لعشيقها، وهمست إليه فى الظلام :

– وداعًا يا حبـي ... حان وقت عودة أبى، إذا سمعـت جلبة على السلم فاصعدْ بسرعـة إلى الطابق العلوى، ولا تنزل إلا بعد ما يزول الخطر فى أن يراك أحد . ومن أجل أن أفتح لك باب الشـارع، دُقَّ ثلاث دقات على نافذة البوابة . وداعًا يا حياتى ! وداعًا يا روحى !

ومَضَتْ آخـر جَـذْوَة فى المدفأة. وتترك «إيلودى» رأسـها يهبط مـرة أخرى على الوسادة ، وهى سعيدة ومتعبة .

***



أناتول فرانس

- ولد أناتول فرانس فى السادس عشر من أبريل ١٨٤٤، والده فرانسوا - نويل تيبو (١٨٠٥ - ١٨٩٠)، صاحب مكتبة «فرانس»، وهى مكتبة زاخرة بالكتب والوثائق ذات الطابع الخاص عن الثورة.

- تلقى دراسته الثانوية فى : «كولليج ستانيسلاس»، حصل على البكالوريا فى ١٨٦٤ - فى عام ١٨٧٣، أصبح فرانس شاعرًا بارناسيًّا مرموقًا، وأصدر «قصائد ذهبية».

- أمين لمكتبة مجلس الشيوخ فى عام ١٩٧٦. كتب «الأفراح الكوارنثية».

- تزوج من مارى - فاليرى جيران دى سوفيل فى عام ١٨٧٧، وكان فى ذلك الوقت صحفيًّا وناقدًا أدبيًّا.

- فى عام ١٨٧٩، أصدر أول رواية نثرية (جوكاست والقطة العجفاء).

- فى عام ١٨٨٤، أصدر (كنائس الخوف) على شكل حلقات فى صحيفة، (من الثانى من مارس إلى السادس عشر منه)، كما أصدر رواية مناهضة للثورة، مُستلهمة من حياة «أندريه شينييه»:

- فى عام ١٨٩٢، انفصل عن زوجته، واستمر فى إصدار سلسلة من الروايات الناجحة، مثل «الزنبقة الحمراء»، والتى حققت نجاحًا مرموقًا، وفى ١٨٩٦ تم انتخابه للأكاديمية. ثم اندمج فى مجموعة سياسية وأدبية جديدة فى عام ١٨٩٨.

– فى عام ١٩١٢ ، أصدر رواية « الآلهة عَطْشَى ».

– فى عام ١٩١٤، أصــدر «ثورة الملائكة»، وهى تعبر عن حبــه للسلام ونبذه للحروب ، وكانت بداية الحرب العالمية الأولى، وعاش منعزلاً .

– فى عام ١٩٢١ ، حصل على جائزة نوبل فى الآداب .

– فى عام ١٩٢٤ ، توفى أناتول فرانس بعــد حياة مليئة بالإنتاج الأدبى والسياسى، وكان الفضل يرجع إلى مكتبة والــده التى ساعدته على تغذية ميوله، أدبية كانت أم سياسية .

* * *

ظهــــرت رواية « الآلهة عَطْشَى » فى الفترة مــــا بين الخامس عشر من نوفمبر ١٩١١ إلى الخامــس عشر من ينايــر ١٩١٢ فى مجلة بــاريس، وفى شهر يونية رأت النور فى المكتبات .

ورواية «الآلهة عَطْشَى» عبارة عن لوحــة فنية رائعة تعبر عن الموقف الذى اتخذه كاتبنا حيــال الثورة الفرنسيــة، فهى ليست مجرد عمل أدبى فحسب ، بل هى أيضًــا تاريخ ومناقشــات حول الثــورة، من رجل محب للسلام، ينبــذ العنف ويمقته، ولا يميل إلى إراقة الدمــاء وسفكها، ولا إلى الثورات التى تُراق فيها الدماء .

ولا يتــوقف الأمــر عند هذا الحد ، بل هى تصــوير وتحليل للطبقــات والشخصيــات التى ظهــرت أثناء وبعــد الثــورة، وتجسيــد للشعــور والأحــاسيس التى كانت مــدفــونة وكامنة فى أعماق نفــوس بعض فئات

الشعب، والتى كانت مفعمة بالحقد والكراهية للملك والعائلة المالكة، خاصة «مارى أنطوانيت»، والتى تسمى فى الرواية على لسان الشعب : «النمساوية».

انفجرت هذه الأحاسيس الدفينة وانطلقت من مكامنها تقتل وتذبح، وتريق الدماء، وتقطف الرءوس، ليس فقط من أفراد العائلة المالكة، بل أيضًا من النبلاء والأثرياء ، وكبار الشخصيات، بتوجيه التهم الملفقة إليهم، وإدانتهم باللاثورية، واللاوطنية، والعداء للجمهورية، والخيانة، لذلك هرع الكثيرون بالهجرة إلى الخارج .

ومن ثم ، كانت هذه اللوحة القاسية عن التزمُّت الثورى، بالرغم من أن اليسار الفرنسى كان يوقر ويحترم اسم «أناتول فرانس».

ومن أجل أن يتسنى لنا تفهم تأثير هذه الرواية فى عام ١٩١٢، يجدر بنا العودة إلى الانطباع الذى كان يسود فرنسا عن الثورة الفرنسية، ومن أجل تفسير المهارة العجيبة، والعبقرية الفذة للمؤلف، ودرجة استيعاب وتركيز كاتب يبلغ من العمر ثمانية وستين عامًا، وقدرته على التعبير القوى والسليم لكل صور البلاغة فى الفكر والأسلوب، وكيف أن شاعرًا بارناسيًّا (أى يتبع مدرسة شعرية معينة)، يتحول إلى رجل شعبٍ يهتم به، ويشعر بما يكابده من جَوْر واضطهاد وجوع .

ومن أهم ما كان له تأثير فى ذلك الوقت فى إثارة الإحساسات السياسية والدينية، وقسَّمَ فرنسا إلى معسكرين، القضية الشهيرة، قضية الضابط «درايفوس»، وهو ضابط فرنسى من أصل يهودى، وُلد

فى مولهوز (١٨٩٥ – ١٩٣٥)، وكان قد أُدين ظُلْمًا فى قضية تجسس، وفى عام ١٨٩٩ صدر حكمٌ بالعفو عنه، ورد اعتباره سنة ١٩٠٦ بعد إعادة النظر فى الحكم ١٨٩٧ – ١٨٩٩، ومن ثم كان الانقسام إلى معسكرين : معسكر يمثل أنصار «درايفوس»، وهم مناهضون للروح العسكرية، ومعسكر للأكليروس، ويتجمعون حول رابطة حقوق الإنسان، أمَّا المناهضون لدرايفوس فهم مناهضون للسامية، ومناصرون للروح العسكرية، وأنصار الأكليروس يتجمعون حول رابطة الوطن الفرنسى، ثم بعدها للجنة العمل الفرنسى .

كما قدم أناتول فرانس (خاصة فيما بين عامى ١٩٠٠ – ١٩٠٥) ضمانات للآداب الفرنسية، والكلاسيكية، والمعارف.

كما قدم لنا فرانس توازنًا مرهفًا لفكرٍ رفيع، والتمتع بالحياة، والتبحر فى العلم .

وكاشتراكى، نَشَرَ فرانس كتاب «آراء اشتراكية». وكان يُلقى خطبًا فى كثير من المناسبات الخاصة، (فى نومفبر سنة ١٩٠٤) لإشهار الحزب الاشتراكى الذى يوجد حديثًا .

إن رواية «الآلهة عطشى» تُعد متزامنة للحب الذى يُكِنُّه المؤلف للماضى، والنفور من التاريخ .

فى ذلك العصر كانت وجهات النظر مختلفة بين الفلاسفة والمؤرخين، والأدباء والشعراء، من أمثال روسو، وتين، وروبسبير، ودانتون،

ولامــــارتين، وهـوجــو، وديدرو، فمنهم مــن يرَى أن الثــورة مُناهضــــة للكلاسيكيــــة، وجــوهرها رومــــانتيكى ودينى، وهـى وليـــدة روســو «الديكتاتور الكاهن»، و«ضلال الفكر» .

ومن هنا ، فمنهم من يرى أن رواية «الآلهة عَطْشَى» مــا هى إلَّا رواية عن الثورة، وليست قصة ضد الثــورة، أو مناهضة للثورية، ولكن عندما قــرءوها عرفــوا ما يُسبب احتــدام أناتول فــرانس تجاه الثورة، وأن مــا يُسبب الخوف هو «جان جاك روسو».

صــدرت رواية «الآلهة عَطْشَى» معـــاصرة لنظريات عــالِم الاجتماع «جــوستـــاف لوبون» فى علم نفس الشعـــوب سنة ١٨٤٩، و«علم نفس الثــورات»، فى زمن كــان فيــه رؤســاء الأحــزاب مُحاطين بهالة دينيــة فى الجمعيـــــــــات، وبين الجماهير، والمحلّفين، حيث تنتصر دائمًا المواهــب الروتينية، مما أدى إلى تفاقم الحالة فى فــرنسا، حتى أنها بعد الثورة – فى سنة ١٧٨٩ – كانت تخوض حربًا ضد الحلفاء .

ويُمكن اعتبار «الآلهة عَطْشَى» هجــاء ضد رجــال الكنيسة يثير القلق، بسبب الإدانات، وأحكام الإعـــدام، وعمليــات الإبعــاد، والتُهــم المُلَفَّقَــة، واللعنات التى يُطلقهـــا كل من المتـــزمّتين، والمتعصبين، والمتعطشين إلى الدماء، ضد اللامبــاليين السلبيين، والمستضعفين، وذلك سوف يقابلنا فى شخصيــات الرواية، من أمثــال «ديبـون إينيــه» الذى يعمل نجــارًا، وفى شخصيــة البواب، والفتــاة «أثينايبس» و «بلين» والد إيلودى، و«جــولى» شقيقــة إيفـــاريست، التى سلَّمت نفسـهــا لأحــد القضـــاة الانتهــازيين، و«بروتو»، والراهب «لونجيمار».

وبالرغم من العنوان التراجيدى لهذا الكتاب، فهو ليس كذلك، ولكنه جدير بأن يقدم التراجيديا كشكل مؤثر للوهم المتكبر والمشئوم عند البشر.

وأناتول فرانس، أديب حاذق، يجيد استخدام أسلوب الطباق .

إن فلسفة فرانس تنبع من الشكل الكامل للشعور بالوحدة والوسيلة للتغلب عليها، فمن جهة الزمن وشكل الحياة أمر الإنسان لا يعنى شيئًا، فالإنسان لا حول له ولا قوة، ولا يملك شيئًا تجاه نفسه، فهو لا يحتفظ بشىء ولا يُغَيِّرُ شيئًا، ولكنه من عبيد التغيير الكونى.

ومن جهة أخرى فإن مصدر اليأس عند فرانس هو مصدر الشفقة والسخرية، وإن الحماس العاطفى المريض بين «فكى المقصلة» يُشعل جذوة غموض الحياة، الذى يوجه الموت نفسه بتحريض الحواس، لأن الحواس هى الحياة بأسرها.. وفى نظره أن الحب صار ساديًّا.

كانت الثورة الفرنسية بالنسبة لفرانس مرجعًا دائمًا، ولكنه لم يستخرج منها إلَّا أعمالًا صغيرة، فيما عدا «الآلهة عَطْشَى»، الرواية الثورية العظيمة المنتظرة .

إذن لم تكن نتاجًا ظرفيًّا، بل على العكس إنها نتاج فنى جوهرى، حيث تظهر ثوابت فكر وثوابت فن. ولكن من أجل تعريفها لم يكن فرانس يجهل الظروف، فهو لم يكن يجهل شيئًا عن المجازفة التى تمثلها صورة الثورة الفرنسية إلى عام ١٩١١ تقريبًا .

وإيفاريست - بطل الرواية - كان مُخلصًا وأمينًا إلى درجة أدَّت به أخيرًا إلى المقصلة، وذاق ما أذاقته للعشرات.. لم يكن يُجارى التيار الذى يعيشه، وقد أدى به ذلك إلى التزمُّت والتعصُّب ضد كل من يجده ضد الثورة، حتى ولو كانت أخته «جولى» نفسها، فقد حَكَم على أصدقائه بالإعدام، وفى النهاية استيقظ ضميره، وكان يؤنب نفسه ويلومها على ما فعله وما يفعله، ولكنه كان فى نفس الوقت يُبرِّرُ أن ما يفعله ضد الإنسانية هو واجب لكى يعيش الوطن وتحيا الجمهورية : « نريق دماءنا ، فى سبيل الوطن ».. و« الموت أو النصر ».

على العكس من إيلودى - بطلة الرواية - فبالرغم من صغر سنها فإنها تبدو مُحنَّكة، كأنها تبلغ من العمر عتيًّا ، فهى لا تُقيم وزنًا إلَّا لمصلحتها الشخصية وإرضاء شهوتها ، بدليل أنها بعد أن أُعدِمَ عشيقها «جاميلان» ألقت شباكها على «ديماهيس»، وأقامت معه علاقة كالتى كانت قائمة بينها وبين «إيفاريست». ومن قبلهما كان جندى الخيالة الجميل «هنرى»، والذى كان يعمل حارسًا تحت إمْرة السيدة «روشيمور» التى كانت لها اتصالات هامة، وهى التى توسطت لإيفاريست لتعيينه مُحلِّفا، وكانت مكافأتها منه، «فكى المقصلة».

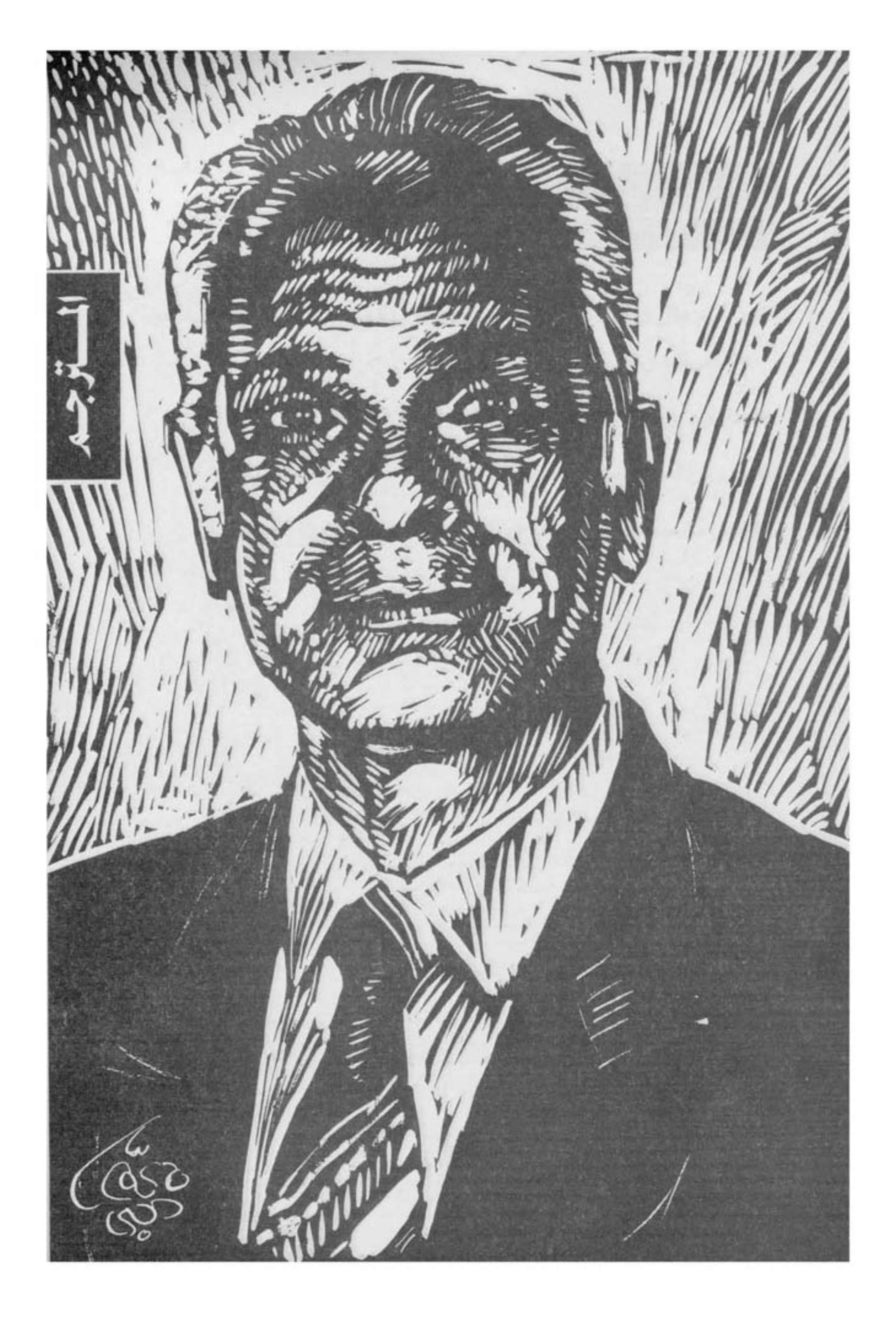
ويرى «أناتول فرانس» أن زعم الثورة بالتحكم فى الزمان والمكان، وتغيير الفنون والأفكار، والعادات، وأسماء الشهور والشوارع، وصور القصاص، أمر صبيانى وخطير، فالثورة تفرض علامات ورموزًا، فهى غير قادرة على تغيير الحياة، وأشد أنواع الجرائم خطورة هى الجرائم

الفعلية. فباسم الحرية «كم من الجرائم قد ارتُكِبَتْ!»، وكراهية الطغيان تم اعتقال الكوميديين الفرنسيين من أجل كلمة تسامح. هذا الهياج البليغ الذى كَدَّرَ الواقع والحقيقة، وألهب الحواس، واستدعي ثأر الطبيعة.

ونجد عنصرًا مشتركًا بين كل من الثلاثى : «بروتو»، والأب «لونجيمار»، والفتاة «أثينابييس»، وهو الجُبْن، يجعل من الشجاعة عنصرًا لا طائلَ منه.. أدائهم الإرهاب، فكانوا يثيرون القلق، أو يُضحكون أصحابهم فى السجن .

هكذا، وباختصار شديد ، يقدم لنا «أناتول فرانس» لوحة شاملة لفرنسا فى عهد الثورة، وفترة الحرب، وقيام الجمهورية.. «الآلهة عطشى» تناولت الحالة السياسية والاجتماعية والعسكرية. وكذلك تناولت الفن، سواء فن التصوير والنقش الذى كان سائدًا حسب ذوق العصر، وكذلك فن المسرح، حيث كان فى عصره الذهبى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ولم يسلم من الإرهاب الثورى .

مصطفى كامل خليفة



مصطفى كامل خليفة

- ليسانس آداب قسم اللغة الفرنسية وآداب - كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٣.
- دبلوم عال فى الترجمة التحريرية والفورية من كلية الآداب - جامعة القاهرة بدرجة جيد جدًّا ١٩٨٢.
- مترجم بوزارة الداخلية من ١٩٦٦ إلى ١٩٧٣.
- مدرس لغة فرنسية من ١٩٧٣ إلى ١٩٨٢ بالمدارس الثانوية.
- عمل مترجمًا بوزارة الدفاع والطيران بالمملكة العربية السعودية.



7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين

تليفون : 3256098 - 3251043

صدر من هذه السلسلة

اللا أخلاقى .. أندريه جيد

العجوز والبحر .. أرنست هيمنجواى

الأم الكبيرة ..جابريل جارسيا ماركيز

صحراء الحب .. فرانسوا مورياك

شعب يوليو .. نادين جورديمر

أمير الذباب .. وليام جولدينج

أنطوانيت .. رومان رولان

الغريب ..ألبير كامى

أحلام الناى ..هيرمان هسه

الأم .. جراتسيا ديليدا

ولم يقل كلمة .. هاينرش بل

مراعى الفردوس .. جون شتاينبك

مغامرات نلز العجيب .. سلمى لاجرلوف

رياح الشرق ورياح الغرب .. بيرل باك

الآلهة عطشى .. أناتول فرانس

تصميم ورسوم : محمد حجى

الدار المصرية اللبنانية

